سلسلة

روائع أفكار رواد الإصلاح والتغيير في العالم العربي والإسلامي

إسلام بلا مشايخ

روائع أفكار الصادق النيهوم

علاء الدين آل رشي





دمشق – ساحة عرنوس – بناء واحة عرنوس –بجانب السفارة البلغارية الدور الرابع –

مكتب رقم ١ – ص ب : ٣١٤٩٠

أسس عام ٢٠٠٧ بمدينة دمشق .

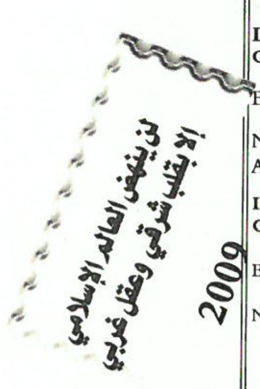
– رسالة المركز :

- أن يكون عربياً، مسلماً، إنسانياً، عالمياً، يشع بحروفه الفاهمة حواراً، وتلاقياً، وتعارفاً، وحكمة ..
- محاولة جادة للخروج من القوالب الجاهزة والأفكار المعتادة والقناعات المحنطة .
- نقلة نوعية من اللاإدراك إلى الإدراك بلوغاً إلى الأمل على أن يصبح أي تعاهد واستيثاق من غائب مغيب حاضر فاعل .
- الناقد الثقافي لن يكون حبيس منظومة دائرية أو حلقة فكرية مفرغة بل هو إسعاف وإنعاش للفكر والوجدان .

تتم التحويلات المالية باسم مركز الناقد على الحساب التالي :

IN USD ($)
Correspondent bank :
SWIFT:COBADEFF — **COMMERZBANK / FRANKFUR**
Beneficiary bank :
SWIFT : BBSFSYDA — BANQUE BEMP SAUDI FRANSI
Name of the final beneficiary : (MARKAZ AL NAKED/BBSF)
Account number of the final beneficiary : **(0125719/BBSF)**

IN SAUDI ARAB RIYAL (SAR)
Correspondent bank :
SWIFT : BSFRSARI — **BANQUE SAUDI FRANSI**
Beneficiary bank :
SWIFT;BBSFSYDA — BANQUE BEMP SAUDI FRANSI BBSF
Name of the final beneficiary — (MARKAZ AL NAKED/BSF):
(0125719/BSF)



الإهداء

إلى

عباس محمود العقاد

الفيلسوف الأديب

الذي لم يكن شيخا يوقد البخور

علاء الدين



مقدمة المؤلف

خائف لكنها رسالتي ...

لا يتمحور الإسلام حول شخص ما، وذلك على عكس كثير من المبادئ والنظريات وحتى الأديان الأخرى بل إن ركنه الشديد هو(كتاب)، أجل كتاب ﴿لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ﴾[فصلت/٤٢] .

حيث الحرف له البلاغة والإقناع له المعنى .

كما أن حضور الإسلام ليس بلحية طويلة، وثوب قصير، وفكر طفولي، وعمامة متحجرة، وانسحاب من الحياة وسلاح طائش، وعقل ينتمي إلى القاعدة وأخواها.

إن الرضا البائس بهذه المظاهر أورث ثلاثية الانحطاط :

فكر مثقل بانحرافاته، ونفس محبطة بأغلالها، ومجتمع ينوء تحت فرديته.

إن الكثير من الصور المتحركة اليوم والتي تنطق باسم الإسلام تتحمل مسؤولية الرهق المعاصر، ولا يمكن إيجاد حل يُمكّن من استئناف الدور الحضاري والحضور الفاعل للشعوب العربية، دون إعادة الاعتبار للفكر مع إتلاف رايات الوصاية التي باسم سدّ الذرائع أحكمت المغاليق على الإنسان فشوهت رؤيته وجعلته في عتمة و لم يصمد أمام أي غزو أو اعتداء .

لابد من ترسيخ قاعدتين في حياتنا كي نصحو من غفلتنا، وإلا بقينا نتحصن بأتربة انحرافاتنا وأضرحة أوهامنا :

- لايحق لأحد أن يدعي امتلاك الحقيقة، فالحقيقة نسبية وكل طوائف المجتمع العربي ودياناته وتياراته الفكرية مطالبة بسلم حقيقي وتوافق جماعي من غير إكراه، وأن السلاح محرم وأن الإنسان مقدس بغض النظر عن ديانته ولونه وفكره ومعتقده .
- إن التراث الثقافي محكوم بتاريخيته وبمحدودية الجغرافيا والتاريخ، ولذلك علينا غربلته ونفي الشوائب منه والغريب حقا أن نكون الوحيدين في العالم الذين يعتقدون أن أناساً من ألف سنة هم الذي يشكلون رؤيتنا وقاعدتنا المسبقة في الحكم على بعضنا.

أف لأمة حلقت شعر رأسها واستبدلته (بباروكة) ظنت أنها تغنيها عن شعرها الحقيقي إن ثقافات الاستعارات التي جملنا بها قبح خطاباتنا جنت علينا اليوم، ونحن مأسورون للماضي بلعنته لا بقوته الماضي سجن لا صحيفة اعتبار ومختبر نتائج .

نحن بحاجة إلى إعادة الاعتبار للعقل كي نكون محترمين حقا نفكر لا نكفر نبشر لا ننفرنبدأ خطوات التنمية وفق تسلسل صحيح .

إن الإسلام ليس أيدلوجيا فوقية تفرض بالعصا والقهر وإلا أين فطريته وأصالته البشرية ؟!

الإسلام لايفرض بالسلاح وترويع الآمنين فهذا سلوك اللصوص لا أتباع النصوص، ومؤتمرات نصرة الرسول بحاجة إلى حسبة جديدة إن واقعنا الاجتماعي المعقد والاقتصادي الفاشل وفكرنا المستعجل لا يكفيه قرارات تشجب ومسيرات طائشة وفلكلور ومسرح سهل التركيب والفك.

أشرفت على طباعة كتاب (الأيام والساعات الأخيرة في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم)، وكم حز في قلبي أني قضيت أشهرا أستجدي العلماء والأثرياء كي يسهموا في دعم هذا المشروع حتى قيض الله كوثره[١] أسهمت في نشر هذا الكتاب، الكثيرون فهموا أن النصرة للرسول بمهاجمة السفارات ومقاطعة البضائع وعقد المؤتمرات، ولكنها أي هذه المظاهر فشة خلق سرعان ماتبخرت .

إننا وبكل فخر أمة الأوائل في المهازل نفضل الشغب على النظام، والحرب على السلام ، والثرثرة على العمل، والصراخ على الإقناع والصفع على الحوار، والرواية على الدراية . ليس هذا جلدا ولكنه إخراس وصد لكل مداح غافل أصيب بحول فصغر كبائرنا وكبر صغائرنا.

١- السيدة كوثر البقاعي التي تجمع بين رقة المشاعر وعمق التدين والخروج على الأبنية المحنطة.

أين جمال الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي والقاسمي و...؟!

لقد تم تحنيط أفكارهم ومهاجمة مشاريعهم وتدمير رؤاهم .

هذا الكتاب يحاول إقامة التلاحم بين الإسلام كرسالة حضارية وثقافية وعدالة إنسانية وبين الدين كعبادة مجردة، وبذلك نسقط الكهنوت نهائيا من التعامل مع الدين وكذلك الاستغلال لصالح الناقمين والمستبدين والحاقدين، ويعيد قراءة الفقه على ضوء الثوابت، والتاريخ على نسيج الحقائق لا لف النقانق.

قد يصطدم الوعي بكثير من الآراء المبثوثة في هذا الكتاب وتلك حقيقة أنشدها فأنا شخصياً لست مؤيدا لكل ماجاء فيه ولا أطالب أحداً بذلك ولكني أطمح أن يأتي مفكر مصلح فيندي جفاف عقولنا بجراءته مناقشا ومصححاً فينعش جذورنا الفكرية ومن ثم يتغنى الشباب المرهق بربيع كلماته المصححة والمصوبة للصادق النيهوم ولغيره .

الصادق النيهوم –رحمه الله – جابه الفقه المثالي أو الانبطاحي بإسلام واقعي ثائر، قد تكون عصرنة فهمه معطوبة أو معيوبة ولن أضطر إلى تحديد مستويات التوافق أو التفارق معه أو المقبولات والمنكورات بل ذلك أدعه للقارئ كي يفتح ثغرة في جدار الاسترخاء الفكري المريض الذي لم ننجح في خلق وابتكار دواء له.

إن الكتاب جهد لرجل مثقف أشرف على أضخم الموسوعات العلمية في العالم العربي، وشهد له حتى الخصوم بعلو كعبه وعميق فكره ومع هذا فالنيهوم لم يكن من المشايخ ولا ينتمي لمؤسسة دينية، ولذلك اخترت عنواناً له (إسلام بلا مشايخ).

فالكتاب اجتهادات لمثقف لا يستهان به وفي مجمل آرائه مزيج من التصادم بين الماضي والحاضر والاستفادة من الماضي حاضراً .

ترى هل يقبل المشايخ أن يشاركهم مثقف في قرءاة الإسلام أظن أن ذلك مرفوض في مجتمع لايؤمن بالشراكات فلا تعددية سياسية ولا معرفية متنوعة ولا تعددية زوجية.

أكرر لن أدافع عن هذا الكتاب فالفكر لم ولن يكون فريسة محام ماهر يتغلب بالباطل على الحقائق فالعقل حارس أمين لو تم توظيفه .

رحم الله الصادق النيهوم، الذي بعثر مكدساتنا الفكرية وأقلق غفلتنا ونازل جهلنا ببسالة. قد يكون عاصفة قاسياً لكن مرارة كلماته مفهومة فهي بحق ردة على تاريخ متمذهب وفقه متسلط وعقل جهول .

ليس هذا الكتاب إلا:

★ رفضاً لأن يتحكم عدد محدد من المبادئ والقواعد في التعامل مع النص.

★ استنكاراً حقيقياً لنماذج ثقافية ظلت تؤثر لقرون عديدة في واقع الحياة ونبض المجتمعات، وهو رفض لأن يتحول الفكر إلى مقدس يخشى أن يناقش .

إسلام بلا مشايخ هل هو تلك القناعة التي قالها الأستاذ أحمد البغدادي في كتابه – تجديد التفكير الديني :(في قناعتنا أن بؤس حياة المسلم المعاصر يعود إلى وجود رجل الدين في حياتنا، والذي حلّ محل الدين الدين بصورة مأساوية، وبدلاً من أن يكون الدين محور الحياة لدى الإنسان المسلم، أصبح رجل الدين هو محور الحياة، وهو الذي يحل جواز الصلح مع العدو الصهيوني، ويحل أو يحرم الربا، وهو الذي يقرر للإنسان مجالات تحركه، وفي ظل كل هذه القرارات يظهر الإنسان المسلم في صورة العاجز، عن استيعاب المتناقضات التي تملأ حياته، ولايسمع لرجل الدين صوتاً فيها لأنها تتعارض مع مصالحه الخاصة)[1] ؟!

لست من أصحاب هذا الفكر التعميمي الذي يتناقض مع التفكير الموضوعي فألفاظ العموم تفيد الاستغراق والشمول ولا تبين معنى حقيقيا لكونها فضفاضة غير نسبية أغرعف أن الدين جوله البعض إلى ديناميت وحوله آخرون إلى دكان وبعضهم جعله حرفة يصيد فيها الضعفاء والمساكين وآخرزن وأعتقد أن الكثير من الكتابات التي صدرت عن الأخ البغدادي تميل إلى هذا المنحى التصفوي التعبوي ضد من يختلف معهم و لم يكن النيهوم كذلك بل كان أكثر وعيا ودقة وأكثر علماً وفهماً وبعداً عن التنطع والتشدد والتطرف التي تتوارى فيها كتابات البغدادي .

1- مؤسسة الانتشار العربي بيروت لبنان ص 298 ، ط2 2008 م.

النيهوم في هذا الكتاب يقدم معرفة نقدية متحررة من الخوف ومن التحجر ولا يتورع عن نقد ما نظن أنه بدهي أو غير فابل للتصويب،إن إلحاح الواقع بتطلب ملاحظة واستقراء وتتبعا لمواطن الخلل في ثقافتنا.

إن أصحاب الولاية والسماحة والفضيلة والسادة الشيوخ لن يضيقوا ذرعا بهذه الرؤى الصادقة النيهومية، فالكتاب أقل بكثير من جراءة الأعرابي الذي بال في المسجد فعلمه الرسول الكريم أن هذا الفعل لا يصح .



من الصادق إلى قرائه[1]

أنا أريد أن أقول لكم:

كل عام وأنتم بخير.

وأريد أن أقول أيضاً: كل عام وأنتم طيبون ومبارك عليكم كل شيء.. أجل..

أنا أريد أن أقول لكم: كل عام وأنتم بخير، ولكن هذا تحصيل حاصل فأنتم على أي حال دائماً بخير. ولديكم وجبة العشاء ومصنع السردين والتبغ وعلاوة السكن والإذاعة الليبية، ولديكم أيضاً مغنٍ يقول «**نارك ولاعة يا بلادي**».

والمرء لا بد أن يفتح فمه من الدهشة عندما يعرف أنكم حققتم ذلك كله خلال سبعة عشر عاماً فقط. أعني أن المرء يستطيع أن يموت من الدهشة عندما يعرف أن الآمة الليبية لم تستغرق سوى سبعة عشر عاماً لكي تبنى دار الإذاعة وتنال علاوة الغلاء وتردم المستنقعات. فالواقع أن هذه المنجزات لم تتم في أي بلد آخر حتى الآن. أعني لم تتم في المدة نفسها على أي حال. والمرء يستطيع أن يقول بثقة: إن ألمانيا الغربية ـــ هي بلد نال استقلاله أيضاً منذ سبعة عشر عاماً ـــ لا تملك قانوناً لعلاوة الغلاء. و لم تردم سوى مستنقع واحد متوسط الحجم.

فأنتم أحسن..

1- هذه الرسالة لا يقصد بها جغرافية معينة وإن عنى المؤلف بها بلاده إلا أنها تصدق على كل بلد تضاريسه تحتفل بـــ (قهر الإنسان) .

أعني أنتم وحدكم بخير، وباقي شعوب العالم تعيش «بأسوأ حال» ففي هولندا يحرثون البحر ويسقونه بالعرق الحامض ويصابون بالسعال ولا يذهبون للعلاج على نفقة الدولة.

وفي اليونان يأكلون من البحر، ويشربون منه أيضاً، ويصنعون من أجساد أطفالهم قوارب لصيد السمك دون معونة من البنك العقاري بالطبع. وفي الصين ينامون في القوارب ويفجرون القنابل الذرية ويحركون الآلات بالعرق دون أن يكون لهم متر واحد من أقمشة هيلد.

شعوب العالم بأسوأ حال. فكل عام وأنتم وحدكم بخير.

تقبضون علاوة الغلاء، وتنهبون البيوت بموجب قانون الإسكان وتأكلون ما يزرع الآخرون بعد أن يصلكم في سفن الآخرين.

كل عام و أنتم طيبون. لأن العالم ـــ بدونكم ـــ لا يقف على قدميه. ولأنه بدونكم يفقد سيده ويمتلئ بالعبيد الملونين بالعرق ويبدو خالياً من المتعة مثل ألف ليلة بدون شهريار.

فأنتم وحدكم بخير، والباقي عبيد في مزرعتكم.

الباقي ينهضون في هولندا مع الغراب ويجلسون في الجرارات العملاقة ويحرثون البحر ويسقونه بجرادل العرق الأسود لكي يطعموا الرجل الليبي فستقاً مقشراً.

والباقي يجلسون في مصانع ألمانيا وراء الآلات والأفران طوال النهار، ويحرقون أعينهم بالسهر لكي يعطوا الرجل الليبي مرسيدس مقشرة. الباقي

مجرد عبيد. والرجل الليبي سيد حافي القدمين يصلي الفجر بعد الساعة العاشرة، ويقود حصانه الحديدي إلى المقهى ويستمتع بالمضغة والحديث عن إسرائيل، ثم يعود في الغداء لكي يأكل وجبة الأرز الذي زرعه عبد إيطالي، وربطه الفجل التي زرعها عبد تونسي والبرتقال الذي زرعه عبد لبناني وقطعة اللحم من النعجة التي رباها عبد صومالي ويغسل يديه بالصابون الذي صنعه عبد أميركي ويمسحها في المنشفة التي نسجها عبد ياباني ويركب حصانه الحديدي الذي صنعه باقي العبيد، ويذهب إلى المقهى ليستمتع بالمضغة والحديث عن إسرائيل.

الرجل الليبي سيد حافي القدمين والعالم كلب في مزرعته.

وما دام الله يقف إلى جانبنا، وما دامت شركات البترول تقف هناك أيضاً، فليس ثمة شك أن العالم سيظل مربوطاً من عنقه أمام بيتنا ويظل يحرسنا ويهز لنا ذيله ويطعمنا فستقاً مقشراً. فالعالم تشتريه النقود كما يشتري المرء أيقونة خشبية من السوق، وما دام خمسمائة مليون جنية في العام، وخمسة موانئ عاملة في تصدير البترول، فالأيقونات الخشبية لا تملك فرصة واحدة. إنها جميعاً تحت تصرفنا.

ونحن نستطيع أن نواصل اللعبة إلى نهايتها.

أعني نواصل بناء العمارات بعد أن نستورد الطوب من يوغوسلافيا والحديد من ألمانيا والزجاج من إيطاليا والعمال من لبنان.

ونواصل إنجاب الأطفال ما دام في وسعنا أن نطعمهم لبناً مجففاً من سويسرا ونكسوهم ملابس ناعمة الملمس من اليابان.

ونواصل بناء المدن الرياضية ما دامت شركات يوغسلافيا قادرة على أن تمدنا بالأحجار والرمل واليد العاملة والمهندسين.

نحن بوسعنا أن نفعل أي شيء، ما دمنا لا نفعله حقاً.. أعني ما دمنا لا نحتاج إلى شيء آخر سوى أن نحك المصباح السحري ونترك عبدنا الجني يحقق مطالبنا.

نتركه ينحني بين أيدينا، ويقول لنا شبيك لبيك وكل عام وأنتم طيبون ثم يوقع معنا عقداً لشراء الأحجار والبصل واللبن المحفوظ في الزجاجات وصناديق البرتقال.

فكل عام وأنتم بخير.

وليبيا تسود العالم وتتركه يعمل في مزرعتها. والليبيون يقودون حميرهم الحديدية ويستمتعون بالمضغة والحديث عن إسرائيل.

كل عام.. حتى ينضب البترول.

وتشد شركة أسو رحالها وتتخلى عنا، وتفرغ الصحون ويتفرق الذباب، والخبراء الأجانب، وتعلن لنا مؤسسة البترول أنها قررت أن تقفل أبوابها لأجل غير مؤقت.

إذ ذاك.. لن يحس أحد أنه بخير.

ولن يكون بوسعنا أن نلعب دور الآغا الحافي القدمين.. إننا سننهض في الصباح مصابين بالصداع ــ كما يحدث عادة عندما يقضي المرء معظم الليل في حفلة صاخبة ــ ونشد قامتنا القصيرة لكي نبدأ الطريق من أوله محملين بالديون.

وسوف يكون الرجل الليبي مصاباً بأكثر من الصداع، وسوف يكون مترهلاً وخالياً من الطموح، وسوف يغمض عينيه ألف مرة قبل أن يفتحهما لكي يرى ليبيا الحقيقية تقبع في رأس إفريقيا ــ مثل عجوز تغسل حصرانها في البحر ــ لا شيء لديها سوى الذكريات القديمة.

إذا ذاك سيتغير وجه العالم بالنسبة لنا.

أعني كما يحدث في جميع القصص.. ينفض عن بيتنا الضيوف ويتركوننا للصداع المتوقع بعد ليلتنا الحافلة بالأحلام و...

ذلك حدث أيضاً لعلاء الدين عندما فقد مصباحه السحري.. أليس كذلك؟

وحدث للشاطر حسن.. وسوف يحدث لنا أيضاً.

ولكن المرء لا يحتاج إلى متابعة القصة إلى هذا الحد.. فالبترول لم ينته حتى الآن.. وأنتم ما زلتم كل عام طيبين.

وما زالت لديكم وجبة العشاء وشركة المقاولات العامة وعلاوة السكن والإذاعة الليبية.. وما زال لديكم من يقول «نارك ولاعة يا بلادي».

وسوف تظل النار ولاعة حتى تصلكم رائحة الشياط.

فمبارك ما يقول المغني..

وكل عام وأنتم ــ كالعادة ــ بخير.[1]

1- فرسان بلا معركة ص 185 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر.



إن جحا، لا يثير معركة أكاديمية مع الفقهاء، مثل الحلاج، ولا يعتبرهم طرفاً في النزاع أصلاً.

إنه لا يناظرهم في مسائل الفقه الإسلامي، بل يتحداهم لتطبيق الإسلام نفسه، في واقع الإدارة الإسلامية.

الصادق النيهوم

في جذر الرهق المعاصر

رؤية الصادق لجذر الإرتكاس المعاصر والوهن العام وذلك من خلال سراديب تصل إلى سر الضنك والشقاء المعاصر .



➢ عجز الإرادة السياسية :

وطننا العربي، يقع ضمن العالم الأخير، في خانة تضم أكثر الشعوب عجزاً عن ملاحقة مسيرة الحضارة.

وهو موقع لا مبرر للشكوى منه، سوى أن الحضارة بأسرها، ولدت أصلاً في وطننا، وأن السفن والأسلحة، التي ارتاد بها الأوروبيون قارات العالم الجديد، كانت في أيدينا، قبل أن يعرفها الأوروبيون بثلاثة قرون على الأقل.

فلماذا يحدث الذي ما يحدث؟ وكيف يمشي وطن وناسه ـــ إلى الوراء؟ ثمة إجابة.

وهي إجابة محددة، وصحيحة، وجادة وسهلة، وخالية من أهواء الفلسفة، لكن مشكلتها أنها مكتوبة بلغة عربية أخرى، لم ينسها العرب فقط، بل تعلموا، بدلاً منها، لغة عربية جديدة، مما يجعل مهمة الترجمة، صعبة بعض الشيء، وأحياناً ـــ أيضاً ـــ صعبة ومفاجئة.

إن هذا الحديث، هو الخطوة التي لابد منها، لارتياد إجابة غائبة عن الأسئلة المطروحة الآن في واقعنا.

وهي إجابة طمرتها الإرادة السياسية، في ثقافتنا العربية، منذ أربعة عشر قرناً، وراء إجابة مزورة عمداً، في ثقافة عربية أخرى.[1]

1- محنة ثقافة مزورة ، صوت الناس أم صوت الفقهاء ؟ ص 10 -11 .

➢ تزييف الوعي :

القول بأن الإدارة الإسلامية، محت الإسلام من وعي الناس، ليس استعارة، بل تقرير لحقيقة حرفية مروعة.

فثمة ممحاة خاصة، لا تمحو الكلمات المكتوبة، بل تمنع معانيها من الوصول إلى وعي الناس، بثلاث مصاف ثقافية فعالة:

المصفاة الأولى: اللغة.

فالفكرة التي لا تعبر عنها كلمة، لا تصل أبداً إلى وعي الناس.

وقد تعمدت الإدارة الإسلامية مثلاً، أن تنقل نظمها عن بيزنطة، من دون أن تنقل ألقابها الرسمية.

فلم يدع الخليفة نفسه إمبراطورا بل خليفة، لأن كلمة الإمبراطور، كان شأنها أن تصل إلى وعي المواطن، وتعري أمامه مدى الانحراف المميت، في جهاز دولته الإسلامية.

رداً على هذه الخدعة، اختار جحا، أن يعيش ــ دائماً ــ في عصر رجل طاغية.

فهو لا يخاطب الخليفة أو الإمبراطور، بل يخاطب الحجاج بن يوسف، وجنكيز خان، وهولاكو، وتيمورلنك في محاولة متعمدة، لتجاوز حيلة لقب الخليفة، وإيصال مفهوم الطغيان إلى وعي المواطن المسلم.

المصفاة الثانية: التقاليد المقدسة

في يد الإدارة الإسلامية، لمحو الإسلام من وعي الناس، هي مصفاة التقاليد المقدسة.

فالفكرة التي تحرسها المقدسات تصبح فكرة محرمة، حتى إذا لم تكن محرمة حقاً، من سفور المرأة إلى الخروج على طاعة السلطان.

وفي هذا المجال، لعب الفقه الإسلامي، الدور النهائي الحاسم، في محو كلمة الأغلبية من وعي الأغلبية نفسها، بتحديد مصادر التشريع، في أربعة مصادر فقهية، ليس بينها صوت الناس.

هي القرآن، والسنة، وإجماع الصحابة، وقياس الفقهاء.

رداً على هذه الضربة، اختار جحا، أن يلعب دور الفقيه الجاهل.

وهو دور صعب، بالنسبة لرجل جاهل حقاً.

أما بالنسبة لجحا، الذي ارتوى قلبه بحكمة الشرع الجماعي، فإن هذا الدور، كان يقوم على منهج دقيق في النقد، يجعله سهلاً، وممتعاً أيضاً.

إن جحا، لا يثير معركة أكاديمية مع الفقهاء، مثل الحلاج، ولا يعتبرهم طرفاً في النزاع أصلاً.

إنه لا يناظرهم في مسائل الفقه الإسلامي، بل يتحداهم لتطبيق الإسلام نفسه، في واقع الإدارة الإسلامية.

ومن هذا المنظور العملي ـــ والصاعق ـــ كان بوسع جحا، أن يعري تحالف المؤسسة الدينية مع الإقطاع، ويخلد الفقه الجاهل في وعي الناس باعتباره أمثولة جماعية للجهل المضحك في جميع العصور.

وقد بلغ من غضب جحا، على أئمة الجوامع، أنه قتل ذات مرة إماماً، ورمى جثته في بئر.

لكن أمه، شاءت أن تنقذه من عواقب جريمته، فأبعدت جثة الإمام، ورمت في البئر جثة تيس.

وعندما جاءت الشرطة للتحقيق مع جحا، اعترف لهم مباهياً بما فعله، ونزل إلى البئر، لكي يريهم جثة القتيل.

في قاع البئر وجد جحا جثة التيس، ورفع رأسه لكي يسأل الشرطة قائلاً: (اللحية هي اللحية، لكن هل كان للإمام قرون؟)، في محاولة واضحة، من جانب جحا الغاضب، لرد بعض المستحق إلى حضرة الإمام.

المصفاة الثالثة: المنطق

في يد الإدارة الإسلامية، لمحو الإسلام من وعي الناس، هي مصفاة المنطق.

فمشكلة المنطق أنه في الواقع (منطقان).

أحدهما يوناني، ينتسب إلى أرسطو، ويقوم على فكرة مؤداها أن (أ) هو (أ).

وكل شيء غير (أ)، ليس هو (أ).

والآخر صيني، ينتمي إلى تشو انج تسو الذي يقول: (ما هو واحد، هو واحد. لكن الذي ليس واحداً، هو أيضاً واحد).

والفرق العملي بين هذين المبدأين: يظهر بوضوح في القياس التالي: فطبقاً لمبدأ أرسطو: (إن الإسلام، وكل شيء غير الإسلام، ليس هو الإسلام).

وطبقاً لمبدأ تشوانج تسو (إن الإسلام، هو الإسلام، لكن الذي ليس إسلاماً، هو أيضاً إسلام).

المبدأ الأول: تبناه أهل الظاهر، والمبدأ الثاني تبناه أهل الباطن.

وبذلك انقسمت ثقافة المسلمين، بين منطقين، كلاهما يثبت ـــ منطقياً ـــ عدم منطقية الآخر.

فأهل الظاهر، يكفرون الصوفية، لمجرد أنهم لا يقولون بالظاهر.

والصوفية تتجاهل الفقهاء، لمجرد أنهم لا يعترفون بعلم الباطن.

ورغم أن المعركة، تبدو منطقية في حد ذاتها، فإنها في أرض الواقع، كانت مجرد معركة مختلفة، لها هدف مشترك واحد، وهو محو الإدارة الجماعية من واقع الإسلام، ومنع هذه الفكرة من الوصول إلى وعي المواطن، بإبادة كلمة الإدارة الجماعية، من قاموسه باسم الجدل المنطقي.

رداً على هذه الضربة، اختار جحا، أن يلعب دور المعلم الجاهل.

وهو دور صعب آخر بالنسبة لرجل جاهل حقاً.

أما بالنسبة لجحا، العارف بعيوب الجدل، فإن المشكلة تحل نفسها بنفسها.

إنه يضرب مبدأ الظاهر، بمبدأ الباطن، ويتركهما يتشاجران، على مشهد من جمهور في حاجة ملحة إلى الضحك.

فمثلاً: ضاع حماره ذات مرة، وجاء الشامتون لكي ينقلوا له هذا الخبر الأليم، فقال لهم، متعمداً أن يحصي أمامهم مكاسبه: (الحمد لله، إنني لم أكن فوق الحمار).

والحمار رمز صوفي للشهوات، وجحا، يقرر هنا، أن الإنسان الذي أضاع شهواته، ليس إنساناً ضائعاً، لكنه لا يقول ذلك مباشرة، بل يقوله في الصيغة التي تتيح له أن يسخر من وسائل المنطق.

فالمنطق يقول، إن جحا يضيع، إذا ضاع حماره، وينسى طبعاً، أن جحا، قد وجد نفسه، لأنه تخلى عن شهواته، ونزل طائعاً من فوق ظهر الحمار.

ومثلاً: سأله تلميذه عن مئذنة عالية.

فقال له متأملاً: (هذه بئر مقلوبة) والبئر مصدر الماء أصل الحياة.

وجحا يقرر هنا، أن الإسلام المقلوب رأساً على عقب، لا يستطيع أن يروي ظمأ الناس إلى السلام والعدل.

لكنه لا يقول ذلك مباشرة، بل يختار الصيغة التي تتيحها له وسائل القياس المنطقي.

فليس ثمة علاقة بين البئر والمئذنة، سوى المنطق القائل، بأن البئر المقلوبة، تصبح ــ منطقياً ــ هي المئذنة.

ومثلاً: طلب منه جاره أن يعيره حماره، فاعتذر له قائلاً: إن الحمار قد مات.

لكن نهيق الحمار، ارتفع فجأة، مما دعا الجار إلى أن يقرعه على هذه الكذبة.

فقال له جحا متسائلاً: ((يا سيدي، كيف تصدق الحمار، وتكذبني؟)).

والمنطق يقول: إن الجار على خطأ، لكن الواقع يقول إنه على صواب.

وهدف جحا، من وراء تقرير هذا التناقض، هو أن يظهر قدرة المنطق على تبرير الكذب من دون وعي الناس.

فالمواطن المسلم يصدق أن الخليفة الغارق في شهواته، حاكم شرعي لأنه من بيت رسول الله.

رغم أن أعمال الخليفة نفسه، تشهد على فساد هذا التبرير، بصوت أعلى من نهيق حمار جحا.

إن الإدارة الإسلامية، لم تمح الإسلام بممحاة، بل بمصفاة مسخرة، لمنع تعاليمه من الوصول إلى وعي الناس.

وقد تمت الضربة بالأسلحة الثلاثة القادرة على تدمير هذا الوعي من أساسه.

وهي سلاح اللغة، وسلاح المقدسات، وسلاح الجدل.

ورغم جهود جحا في مقاومة هذه الكارثة الشاملة، فإن استعادة الإسلام إلى وعي المواطن المسلم، ربما لا تكون الآن هدفاً قابلاً للتحقيق أبداً، من دون مراجعة شاملة ـــ وتنقية دقيقة وموجعة ـــ للغتنا نفسها، ومقدساتنا نفسها، ومنطقنا نفسه.[1]

1- محنة ثقافة مزورة - صوت الناس أم صوت الفقهاء - رياض الريس للكتب والنشر ط3 - بيروت 2000م- ص 137 وما بعدها.

➢ لا مكان للتعبير:

الواقع أن التاريخ لا يعرف دولة واحدة، تبرعت لمواطنيها بحق التصويت سوى دول العالم الثالث التي ألهمها الله الزهد في السلطة، إلى حد دعاها أن توزع الإدارة مجاناً على مواطنين، لا يطالبون بحصة في الإدارة، ولا تجمعهم أحزاب حقيقية، ولا تنطق باسمهم إذاعة، ولا يسمح لهم بالخروج في المظاهرات، إلا بإذن من الإدارة.[1]

➢ الانحطاط الفقهي (فقه بلا إدارة)

ــ لقد أصبح الإسلام على يدي معاوية[2]، فقهاً إسلامياً من دون جهاز إداري، وانقسم على الفور إلى ثلاثة مذاهب سياسية، متنكرة تحت عمامة الفقه:

الأول: مذهب الخوارج الذي بدأ برفض التحكيم، بين علي ومعاوية، بحجة أنه مساومة على حكم الجماعة،واستن بذلك أول سابقة فقهية، تجيز الخروج على الجماعة نفسها.

الثاني: مذهب الشيعة، الذي بدأ بإنكار سلطة معاوية، بحجة أنه ليس الإمام الشرعي، ثم ما لبث أن تحول إلى مذهب فقهي، ينتظر بين الفقهاء، عودة الإمام الشرعي الغائب.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء – رياض الريس للكتب والنشر ط3 - بيروت 2000م- ص 31 وما بعدها.

2- اقترح على القارئ الاطلاع على سيرة الخليفة معاوية بن أبي سفيان غفر الله له، في ما كتبه زيد بن علي الوزير في كتابه : (الفردية) وعباس محمود العقاد في كتابه: (معاوية بن ابي سفيان) ومحمد بن المختار الشنقيطي في كتابه:(الخلافات السياسية بين الصحابة.)

الثالث: مذهب السنة الذي لم يظهر أصلاً، إلا لفرز بقية المسلمين الواقعين تحت سلطة بني أمية، في مذهب فقهي ثالث، يرد على الخوارج والشيعة، بحجة أن الخروج على الجماعة ــ حتى من دون إدارة جماعية ــ خروج على أصل الشرع.

وقد عاد هذا المذهب، فانقسم على نفسه، إلى أربعة مذاهب سنية أخرى، تختلف حول مسائل أكاديمية عابرة، لكنها تتفق جميعاً على الاعتراف بشرعية الحكم الو راثي، من دون حاجة إلى انتظار إمام شرعي غائب.

تحت هذه الظروف، ازدهرت علوم الفقه، وأصبح اسمها ((علوم)) وتبارى الفقهاء في شرح خفايا الشرع، فاكتشفوا أبعاده الإنسانية والتزامه بالدفاع عن حقوق المستضعفين، وسجلوا هذه الحقوق على الورق، في دراسات قانونية مفصلة.

ولكن ذلك بقي فقها على الورق.

أما في أرض الواقع، فقد كانت الإدارة الإسلامية، تدين علناً بشرع آخر.

وكانت تنقل نظمها حرفياً عن نظم بيزنطية ــ وتبيح الخصاء، وتجارة الرقيق، وتشغيل الأطفال، وتعامل المرأة بمثابة جارية، وتتجاهل وجود العجوز.

وفي الفترة الواقعة بين إنهاء نظام الإدارة الجماعية على يدي معاوية وبين إعلان حقوق الإنسان في القرن العشرين، ثمة ١٤٠٠ سنة، قضاها الفقهاء في الكلام عن حقوق الإنسان، من دون أن تسمع الإدارة الإسلامية مرة واحدة عن هذه الحقوق[1].

➢ **غياب الشرعية :**

غاب الجامع، وغاب معه عصر الخلفاء الشرعيين، وخرجت الإدارة من أيدي الجماعة، وخسرت الأغلبية حق اتخاذ القرار، وتعطل مبدأ المسؤولية الشخصية، واستولت الدولة، على بيت مال المسلمين، وفقد المجاهد سلاحه، وفقد المواطن حقه في الضمان الاجتماعي.

لكن هذا الانقلاب الجذري الشامل، لم يظهر بمثابة انقلاب على عقيدة الإسلام، بل بمثابة تفسير ((عملي)) لهذه العقيدة، بموجب أقوال فقيه عالم في شؤون الفقه، وهي خدعة كانت مميتة جداً، لأنها تمت باللغة الإسلامية نفسها التي أستعملها الإسلام.

فمثلاً: خسر الجامع وظيفته الإدارية، لكنه لم يغلق أبوابه، بل تحول إلى خلوة للصلاة والوعظ.

وهي مهمة من شأنها أن تجعله بيتاً مقدساً من بيوت الله، من دون حاجة إلى مؤتمر إداري، يجمع طوائف الناس.ومثلاً: لم يعد يوم الجمعة، موعد اللقاء بين جميع الأديان، لكنه لم يصبح يوماً عادياً، بل تحول إلى

1-محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء – رياض الريس للكتب والنشر ط3 – بيروت 2000م- ص 62 وما بعدها.

عطلة للصلاة، يلتقي فيها المسلمون، لسماع موعظة في الفقه، يلقيها فقيه موظف في الدولة، ويختمها بالدعاء للخليفة، بمثابة بيعة جماعية له.

وفي أغلب عصور الدولة الإسلامية،كان الفقهاء يبايعون ثلاثة خلفاء في وقت واحد، خليفة في قرطبة وخليفة في القاهرة، وخليفة في بغداد.

ومثلاً: لم تسقط فريضة الجهاد من أصل الشرع، لكنها لم تعد تعني الدفاع عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، بل نالت تفسيراً فقهياً طارئاً، فأصبح الجهاد هو نشر الإسلام، من دون نظامه الجماعي، مما حمل الإسلام إلى شعوب كثيرة، من ون أن يتغير حال الشعوب نفسها.

ومثلاً: لم يسقط مبدأ المسؤولية الشخصية من نص الشرع، لكنه أصبح مسؤولية عن أداء الشعائر، وليس عن الإدارة، مما دعا إلى تعميق الدراسات الفقهية، لكي تغطي أدق التفاصيل، من دون أن يلاحظ أحد الخرق العلني لمبادىء الإسلام في أنظمة الحكم، من صلب المعارضين السياسيين، إلى الاستيلاء على بيت المال.

ومثلاً: إنهار الشرع الجماعي، وأصبحت شؤون الدولة الإسلامية في يد رجل واحد.

وهو انحراف صريح عن كل مبدأ أساسي في الإسلام، لكن مذاهب الفقه، رأت أن تلصقها بالإسلام إلى الأبد بموجب نظرية مؤداها أن أول شرط في الدولة الإسلامية، أن يكون الخليفة من قريش.

ومثلاً: انقلب تفسير المفهومات، فلم يعد الكافر، هو فرعون الذي طغى في البلاد، بل أصبح هو المواطن الذي يخرج على طاعته.

وقد اتفقت مذاهب الفقه على إهدار دم الخارج على السلطان، بحجة أنه خارج على الجماعة، من دون أن يهدر أحد دم السلطان نفسه الذي استباح حق الجماعة بأسرها.[1]

➢ إشكالية التفسير الفقهي للدين :

لقد نجح الفقه، في تحويل الإسلام.من عقيدة لها إدارة، إلى عقيدة مسخرة لخدمة إدارة أخرى.

ونجح بذلك في تغييب وظيفة الجامع وراء وظيفة المسجد، وإنهاء نظام الدولة الجماعية، وتفريق الجماعة بين المذاهب، وتطويع الأغلبية لإدارة الأقلية.

وأكثر من كل شيء آخر، نجح الفقه في تفسير الدين، تفسيراً غيبياً محضاً، لا يستعمل لغة الناس، ولا يتكلم عن عالمهم، الذي يعرفونه في ضوء النهار.

إن يوم الجمعة مثلاً يتحول في علم الفقه إلى يوم خاص، لأسباب جديدة حقاً[2].

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء – رياض الريس للكتب والنشر ط3 – بيروت 2000م- ص 65 وما بعدها.

٢- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء – رياض الريس للكتب والنشر ط3 – بيروت 2000م- ص 69 وما بعدها.

➢ القصور الفقهي

حتى بداية العصر الصناعي الحالي، كان الفقهاء قادرين على حل مشكلة المراهق، بدعوته إلى الزواج المبكر.

وكانت ظروف المجتمع الزراعي، تجعل مثل هذا الزواج حلاً مناسباً من جميع الوجوه.

فخلال الخمسة عشر عاماً الأولى، التي يكتمل فيها نمو الصبي، يكون هذا الصبي قد تعلم كل المهارات المطلوبة، لأداء العمل اليومي في المزرعة، وأصبح مزارعاً مؤهلاً، يكسب رزقه بعرق جبينه، ويستطيع أن يعول امرأة وأطفالها، مما يجعل زواجه المبكر، مشروعاً مفيداً، يحل كل مشاكله النفسية والاجتماعية، ويحرره من مرحلة المراهقة نفسها، ويضمن له أن يلتزم جانب العفة، ويغض طرفه عن بقية النساء، كما يريده الفقهاء أن يفعل.

بحلول العصر الصناعي خرج المراهق فجأة من هذه الجنة، لم تتأخر مرحلة المراهقة عن موعدها، بل تأخر موعد التأهيل، وصار على الصبي، الذي يكتمل نموه في سن الخامسة عشرة، أن يواصل تعليمه إلى ما بعد سن العشرين، ثم يقضي بضع سنوات أخرى في التدريب على مهنته الجديدة، قبل أن يصبح مواطناً قادراً على كسب ما يكفي لإعالة زوجته وعياله.

وفي ظروف هذا التغيير الخارج على سنن الطبيعة نفسها، كان على المراهق، أن يواجه في مجتمعه المسلم ثلاث مشاكل معقدة، لا يعرف لها الفقهاء حلاً، لأنها غير قابلة أصلاً للحل.

الأولى : إن مرحلة المراهقة، ترتبط تلقائياً باكتشاف المراهق لجسده، باعتباره مصدراً لمتعة محيرة جديدة، وهو اكتشاف صاعق، لا يحتوي أبعاده سوى الزواج المبكر، لأنه سلاح في يد الطبيعة لتحقيق هذا الغرض بالذات.

من دون الزواج المبكر، يصبح جسد المراهق مشكلة مؤلمة، خارجة على سنن الطبيعة نفسها.

فليس ثمة مخلوق حي ــ بما في ذلك الحشرات والدواب ــ معداً لكي يغالب طبيعته، من دون أن يواجه أمراضاً معقدة لا علاج لها.

المشكلة الثانية: التي تواجه المراهق في مجتمعه المسلم، أنه يعيش في واقع، بفضائل موروثة من واقع سواه، فالفقهاء لا يزالون يريدونه أن يغض طرفه عن النساء، أو يغالب غرائزه الجنسية إلا بقدر ما يستطيع الفقيه نفسه أن يغالب سلطان النوم.

المشكلة الثالثة: التي تواجه المراهق في مجتمعه المسلم، أنه إنسان محكوم عليه سلفاً بمعاداة الجسد الإنساني.

فهذا الجسد هو مرضع ((العورات)) في ثقافتنا العربية، من وجه المرأة إلى أخمص قدميها، ومن وسط الرجل إلى ما فوق الركبة ببضعة سنتيمترات، في محاولة قاسية من جانب الفقهاء، لإدانة أعضاء جسم الإنسان، بدل إدانة مجتمعه الشاذ.

والواقع أن معاداة الجسد الإنساني، ليست فكرة إسلامية، بل فكرة يهودية، مصدرها التفسير الوثني للتوراة، التي روت في قصة الخلق، أن آدم وحواء، اكتشفا أنهما عريانان، عندما أكلا من الشجرة المحرمة، وطفقا يغطيان عورتيهما بأوراق الشجر.

وهي قصة، لا يجوز تفسيرها حرفياً، إلا في منهج وثني مثل منهج اليهود في تفسير نصوص الدين، أما بلغة الدين نفسه، فإن القصة لا تتحدث عن عري الجسد، بل عن عري الروح، بسبب ارتكاب الخطيئة، وهو عري من نوع آخر، يسمى ((عورة))، لأنه نقص طارىء على الإنسان، وليس قطعة من جسده الحي.

إن الزعم بأن ((عورة)) آدم وحواء، هي جسدهما، فكرة لا يصدقها أحد سوى عجائز الأحبار اليهود.

وفيما عدا هذا الاستثناء، فإن الجسد البشري، بريء من كل العورات، وبريء من الدنس، وجميل، ومؤنس، ويستحق أن ينال نصيبه من الهواء والشمس، لكي يزداد عافية، ويقاوم أمراض السمنة والترهل.

وإذا شاءت ثقافة ما، أن تورط نفسها في معاداته، بموجب أقوال بضعة عجائز من أحبار اليهود، فإن ذلك يكون خياراً مميتاً حقاً، لأنه يجعل كل طفل يولد في هذه الثقافة، يولد طفلاً في جسم يهودي عجوز.

وفي مجتمعنا العربي الحالي، أكثر من أربعين مليون مواطن في سن المراهقة ـــ وثمة ملايين أخرى قادمة في الطريق ـــ يعيشون جميعاً في العصر

الصناعي، بنظم عصر الزراعة، ويقضون زمناً يتراوح بين ٧و١٥ سنة، محشورين في الظلمة، بعيداً عن أعين المجتمع، ريثما يتم تأهيلهم في المدارس والجامعات.

وطوال فترة الدراسة، لا أحد يعرف ما تفعله هذه الملايين، ولا أحد يعرف ماذا يحدث لها. [1]

➢ فقدان الشرع الجماعي

إن الصحافة والإذاعة والتلفاز، لا تستطيع أن تنشر مبادىء الإسلام من دون شرعه الجماعي، لأنها مجرد مكبرات للصوت.

وما دامت الإدارة غير جماعية، فإن ترديد آيات القرآن، وأحاديث الوعاظ، في هذه الأجهزة، عمل باهظ التكاليف جداً، ثم أنه غير واقعي، وغير ملائم لمادة هذه الأجهزة، ولا هدف من ورائه، سوى إسدال ستار من لغة الدين على ما تفعله أجهزة الإدارة.

أما استخدام مكبرات الصوت للأذان، فهو عمل يتجاهل الهدف من وراء اختيار صوت الإنسان بالذات، فقد اختار الرسول عليه السلام ((درجة)) الصوت الإنساني، لأنها هي الدرجة التي ((يسمعها)) الناس فعلاً، من دون أن تصم أذانهم، وتزعج أطفالهم، وتقلق مرضاهم.

1- محنة ثقافة مزورة - صوت الناس أم صوت الفقهاء - رياض الريس للكتب والنشر ط3 - بيروت 2000م- ص 69 وما بعدها.

ولعل المؤذنين الذين يحبون استخدام مكبرات الصوت، يدهشهم أن يعرفوا، أن الذبذبات الصوتية الصادرة من مثل هذه المكبرات، تتصاعد حول المئذنة في دائرة محيطها خمسين متراً، إلى ١٠٠ ديسيبل.

وإن رفع الأذان خمس مرات كل يوم، عن طريق هذه المكبرات يعرض جميع جيران المسجد، طوال نصف ساعة يومياً، لمقدار من الضغط، يعادل الجلوس على مقربة من محرك نفاث.

وهو أمر من شأنه أن تكون له عواقب صحية وخيمة، أراد الرسول عليه السلام، أن يتجنبها متعمداً، لكن المؤذنين اعتقدوا أنهم أكثر معرفة، بما أراد الرسول.

إن ((درجة)) الصوت الإنساني، هي التي تجعله صوتاً مؤنساً يليق بإشاعة الأذان.

أما رفع هذه الدرجة، بمقدار ما تستطيع المكبرات، فهو أمر يتجاهل أن الآذان البشرية نفسها، لا تستمع صوتاً تزيد ذبذباته على ٢٥ ديسيبل، من دون أن يقفز قلب الأسد في صدره رعباً، وتزيد دقاته بمقدار ثلاثة أضعاف على الأقل[١].

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء – رياض الريس للكتب والنشر ط3 – بيروت 2000م- ص 73 وما بعدها.

➢ سقوط نظام الإدارة الجماعية :

ماذا حدث في عصر معاوية؟

لقد سقط نظام الإدارة الجماعية وسقطت معه مسؤولية الناس عن مصيرهم في هذه الحياة الدنيا وتقدم الفقهاء لحل معضلة لا يملكون لها حلا، وخلال وقت قصير كان الفقه الإسلامي يفسر الإسلام بأسره تفسيرا قائما على التبشير بجنة سماوية في حياة أخرى وكانت فكرة الجنة في هذه الحياة – أو على الأقل نصف الجنة – قد خرجت من حسابات الفقه الإسلامي إلى الأبد .

إن الإسلام الذي لا يعترف بسلطة رجال الدين، يعيد رجال الدين تفسيره، باعتباره إسلاما لا علاقة له بالسلطة.

لم تعد الحياة الأخرى تعني عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، بل صار لرجال الدين علم بها، وصار بوسع بعضهم أن يصفها للناس، بالشبر والذراع.

لم تعد كلمة مسلم أداة إشارة إلى مواطن محرر من شرع الأقوياء، يعمل لدنياه كما يعمل لأخرته، بل أصبحت تحية يتبادلها المسلمون، في واقع لا يعرف السلام.

لم تعد كلمة الرحمة أداة إشارة إلى قوانين إسلامية رحيمة بالطفل والمراهق والمرأة والعجوز والغريب، بل أصبحت دعاء للميت ــ قبل الحي ــ لكي يرحمه الله في حياة جديدة أخرى.

لم يعد عدل الله يشمل الدنيا والآخرة، بل أصبحت الدنيا، رهناً بالحظ والأنساب، واقتصر عدل الله بين الناس، على الناس الميتين.

إن لغة الإسلام، تتحول على يد الفقه، إلى لغة تتحدث عن (عالم الغيب).

وتصبح بذلك لغة غائبة، لا تقول شيئاً لع علاقة براقع الناس.

وفي ثقافة خرساء إلى هذا الحد، يفقد المواطن قدرته على النطق، ويتراجع شرع الجماعة، ويغيب عدل الله عن عالم الناس، من دون أن يغيب اسم الله، عن لغتهم.

وهو ما حدث في تاريخ الإدارة الإسلامية، منذ عصر معاوية، ولا يزال يحدث علناً حتى الآن.

فمثلاً: لا يزال القاضي المسلم، يتعمد أن يصدر حكمه باسم الله.

وهو إجراء يعني ضمناً أغن القاضي قد ضمن نزاهة التحقيق، لأنه يعيش في مجتمع محرر من أهواء السلطة.

ورغم أن هذا الشرط، لم يتوافر لقاض مسلم واحد، منذ عصر معاوية، فإن كل حكم يصدر في محاكم المسلمين، يصدر باسم الله.

ومثلاً: كل دولة إسلامية، تعلن الآن في دستورها، أن الإسلام دينها الرسمي، مما يعني ترجمته حرفياً، إن الإدارة نفسها، إدارة جماعية.

وهو نظام لم تعرفه الدولة الإسلامية، منذ عصر معاوية أيضاً، لكن أحداً لا يتنازل عن حصته من الإسلام.

ومثلاً:

لا يزال المواطن المسلم، يتلقى في المسجد دروساً في الدين الإسلامي، ولا يزال يسمع في الحديث أنه ((راع)) وأنه مسؤول عن رعيته، لكن أحداً من المواطنين المسلمين، الذين ولدوا منذ عصر معاوية حتى الآن، لم يرع أبداً سوى بعض الخرفان.

ومثلاً: لا تزال الإذاعات الإسلامية ، تفتتح برامجها بآيات بينات من كتاب الله الحكيم.

لكن برامج هذه الإذاعات نفسها، لا تزال أشهر نماذج الدجل الإعلامي الخالي من روح البيان والحكمة.

إن ((ترجمة)) الإسلام، من شرع جماعي قائم على حق كل مواطن في تقرير مصيره حياً وميتاً، إلى وصفة فقهية لدخول الجنة في حياة أخرى، ترجمة بعيدة عن أصل النص.

أملتها حاجة الأمويين إلى إدارة تتكلم بلغة الإسلام، من دون أن تتكلم عن شرعه الجماعي، وهي حاجة، لم يكن بوسع الفقه أن يلبيها إلا بإنهاء العلاقة بين لغة الدين وبين لغة الدنيا، والعودة إلى قاموس السحرة القديم، في الإسرائيليات التي ظهرت فجأة على يد علم فقهي جديد، اسمه علم الحديث والسنة[1].

1- محنة ثقافة مزورة - صوت الناس أم صوت الفقهاء - رياض الريس للكتب والنشر ط3 - بيروت 2000م- ص 81 وما بعدها.

➢ فقدان المناعة الفكرية

الإنسان يقف عاري الصدر، أمام حراب لغته المتطورة، أنه يفهم كل ما يقال له، وتدخل دماغه أفكار لا علاقة لها بحاجاته الحقيقية.

ويستطيع أن يتداول كلمات مميتة جداً، مثل ((الصنم الإله، والشعب المختار، والبابا المعصوم من الخطأ، وتفوق الجنس الجرماني))، من دون أن يعرف أنها مميتة، إلا بعد فوات الأوان.

من هذه الثغرة المفتوحة، تتسلل إلى لغات الأمم، مصطلحات خيالية محض، لا تعني شيئاً في أرض الواقع، لأنها مجرد بديل ((سحري)) من الواقع نفسه.

وكلمة الثقافة العربية المعاصرة كلمة سحرية من هذا النوع.

إنها تسمية سياسية، مثل تسمية الوطن العربي جاءت من العدم، للتعويض من واقع معدوم.

فلا الوطن العربي، حقيقة إدارية، ولا الثقافة العربية المعاصرة، لها علاقة بجميع العرب.

إننا نملك التسمية، لكننا لا نملك ما تعنيه في أرض الواقع.

وهي محنة عقلية قاسية، لها جذور في عالم الطفل، الذي يستعيض من ركوب الحصان، بركوب كرسي اسمه ((الحصان)).

إن كلمة الثقافة العربية المعاصرة، مصطلح طفولي إلى هذا الحد:

مصطلح يفترض سلفاً، أننا نملك تراثاً عربياً مشتركاً.

والواقع أننا عرب مقسمون بين خمسة تواريخ على الأقل.

الأول: تاريخ ديني يبدأ من آدم وحواء.

والثاني: تاريخ طبيعي، لا يعترف بهذه البداية.

والثالث: تاريخ سني، يعتبر معاوية خليفة شرعياً.

والرابع: تاريخ شيعي، يعتبر معاوية، مجرد دجال.

والخامس تاريخ حديث، يقسمنا حالياً إلى اثنتين وعشرين دولة، كل دولة منها، لها تاريخ منفصل عن الأخرى، ببوابات حديدية، تحت حراسة رجال الحدود.

مصطلح يفترض، أننا نتكلم لغة واحدة، والواقع أن ما نقوله فعلاً، يختلف من دولة إلى أخرى، بقدر ما تختلف لغة عن لغة.

فالذي يدعو مثلاً إلى السلام مع إسرائيل، لا يفهم الذي يدعو إلى مواصلة الحرب ضدها، حتى إذا كانا يتكلمان لغة مشتركة.

مصطلح يفترض أننا عرب، يجمعنا مصير واحد، وهي فكرة عاطفية، لها علاقة بحب المواساة، وليس بحب الواقع.

وقد أثبت ظهور النفط، إلى أي مدى، تستطيع مصائرنا أن تختلف، رغم ((مصيرنا)) الخرافي المشترك، حتى أن مواطناً عربياً مفلساً وجائعاً،

وحافي القدمين، يستطيع أن يعيش على بعد مرمى حجر، من مواطن عربي آخر، يبذر ثروات لا تحصى، في القمار والدعارة وشراء الخدم، من دون أن يردعه بموجب قانون عادل واحد، أو حتى أن يقذفه بحجر.

وإذا كان هذا اسمه المصير المشترك، فذلك مرده إلى أننا مشتركون عمداً، في تزوير مثل هذه الأسماء.

إن ثقافتنا العربية المعاصرة، لا تملك الحصان.

وليس لديها تاريخ مشترك، ولا تخاطب كل العرب، ولا تستطيع أن تغير واقعهم، لأنها ثقافة مترجمة في غياب العرب أنفسهم.

رأس المشكلة، أن الثقافة ـــ من دون شرع الجماعة ـــ مجرد سلاح سياسي لضرب الجماعة نفسها.

إنها ليست أفكاراً ((ثقافية)) في الكتب، بل قوانين، ومحاكم، ومدارس، وأعياد، وأناشيد، وخطب، وجرائد، وإذاعات، وأموال طائلة تنفق علناً، وكل عام.

وإذا خرجت الإدارة من يد الناس، فإن الثقافة أيضاً تخرج من يدهم، وتصبح سلاحاً رهيباً في خدمة من يدفع الثمن.

ومنذ عصر الأهرام، كان المواطن المثقف، قد اكتشف مكانه تحت مظلة فرعون، وكان المثقفون المصريون، يشرحون للناس، كيف يشيدون أهرامات خالدة، لطاغية ميت، وكيف يلقون بناتهم سنوياً في النيل.

وطوال الفترة الواقعة بين عصر سومر، وبين ظهور الإسلام، كانت الثقافة سلاحاً مهمته تجهيل الناس، وليس تثقيفهم، تستخدمه الدولة والكنيسة علناً، في مؤامرة أدت إلى توطيد فواحش أخلاقية رهيبة في تاريخ الثقافات، منها تزوير الشرائع الإنسانية، الذي تكفل بتحويل الثقافة إلى عالم السحرة والمعجزات، وأخرج الدين من واقع الناس,وأفقده مهمته ومعناه معاً.

لهذا السبب, سكتت جميع الثقافات القديمة عن قضايا الإنسان، وفشلت في أكتشاف حقوقه، وفشلت في تطوير مجتمعات حقيقية محررة من الرق والربا وعبادة الأصنام الحية والميتة.

إن شرع الجماعة في الإسلام، هو الذي صحح هذا المسار، لأنه حرر المثقف من حاجته إلى لغة السحرة، وحماه من سلطة الإقطاع، وكفل له حرية الفكر، وجعلها حقاً دستورياً من حقوقه.

وفي ظل هذا الدستور الجديد، أصبحت الثقافة لأول مرة في تاريخها، سلاحاً في يد الناس حقاً، لا يدعوهم إلى بناء أهرامات خالدة، ولا يوصيهم بإلقاء بناتهم في النيل، ولا يفرقهم بين المؤسسات الدينية والعنصرية، بل يدعوهم إلى بناء عالم الإنسان السعيد الواحد، وتحرير أيديهم من قيود الإقطاع، والجهاد دفاعاً عن مصالح الأغلبية.

وهي الثقافة الفعالة الوحيدة، التي تكلمت فعلاً بلغة الناس، واستطاعت أن تخاطب عقولهم، وتعرفهم بأعدائهم الحقيقين، وتعلمهم أن يحرروا مجتمعهم من الرق والربا والإرهاب وعبادة الأقوياء، وأعادت كل مواطن

منهم على حدة إلى الحضيرة، محرراً من الشك والخوف، إلى حد أنه يذهب إلى الموت طائعاً، دفاعاً عن شرع الناس، فتستقبل أمه نبأ موته بالزغاريد.

من دون الشرع الجماعي، يقع انحراف هائل في هذا المسار:

تغييب ضمانة الجماعة لحرية الفكر.

وتغييب حرية الجدل.

وتعود الثقافة حيث كانت ذات مرة في إدارة فرعون.

ويكتشف المثقف مكانه المريح القديم، ويصبح ـــ مرة أخرى ـــ ساحراً في البلاط الملكي، لا يهمه ما يحدث للناس، بل يهمه أن ينطلي عليهم سحره.

وهي حرفة تتطلب تلقائياً، أن يتكلم المثقف لغة لا علاقة لها بالواقع، ويرتكب الخطأ المميت، الذي لا يليق أن ترتكبه، حتى حشرة صغيرة مثل النحلة.

إنه يورط نفسه، في موقف مستحيل، وحافل بالإحراج.

فالثقافة ـــ من دون حرية الفكر ـــ لا تستطيع أن تكون ثقافة إنسانية حقاً، وليس بوسعها أن تلتزم بالدفاع عن عالم الناس.

لكنها ـــ من جهة أخرى ـــ لا تعرف كيف تسد هذا العيب الظاهر، وليس لديها خيار آخر سوى أن تدبر لنفسها قناعاً إنسانياً مزوراً، وتندس وراءه في محاولة طفولية، لافتعال عاصفة داخل فنجان.

إنها تقول كلاماً كبيراً جداً، على لسان مثقف في حجم فأر.

مثقف لا يملك حق الكلام، في مجتمع لا يملك حق النشر، تحت سلطة لا تحبذ تبادل الأفكار.

مثقف وحيد، لا يضمن الناس حقه في إبداء الرأي، مهمته أن يضمن حقوق الناس، وأن يدافع عنهم بقلم رصاص، في وجه أنظمة بوليسية عاتية، تقاتل بالرصاص، وأن يقول لهم جهازاً، ما لا يطيق أحد أ، يسمعه سراً.

وفي ظروف خرافية من هذا الطراز، يصبح السحر ثقافة، وتقوم عاصفة داخل فنجان، ويولد للناس، واقع ثقافي، لا علاقة له بواقعهم.

وتصبح لغتهم بديلاً باطلاً من الحق نفسه.

وهو ما حدث ـــ حرفياً ـــ في ثقافتنا العربية المعاصرة.

لقد ولدت هذه الثقافة في بيت نابليون، وتربت في مدارس الأوروبيين الأغنياء وتعلمت نظمهم وشرائعهم الرأسمالية، كما يتعلم الخادم عادات سيده الثري، وعندما تراجع الأوروبيون عن الوطن العربي، تركوا هذه الثقافة المغتربة في رعاية إدارة عربية مسخرة لخدمة رأس المال، مما فرض ((تعريب)) ثقافتنا المعاصرة لغوياً،وأعطاها قناعاً عربياً، تخفي وراءه تفسيراتها المستوردة، وغربتها الهائلة عن واقع العرب، وعجزها الظاهر عن تغيير هذا الواقع، حتى بتقليد الأوروبيين.

إن ثقافتنا الجديدة المعربة تصبح كرسياً عربياً مريحاً، لكنها لا تصبح هي الحصان.

في رعاية هذه الثقافة البراقة المعاصرة، تصاعدت المعركة الصليبية ضد العرب، من حرب بعيدة في شمال أسبانيا، إلى حرب تجري حالياً في شوارعهم، من بيت إلى بيت، وتورط العرب فجأة، في وصفة سحرية مميتة، تعالج جميع الأمراض، لكنها لا تشفي المرضى أنفسهم.

فمثلاً: كلمة الديمقراطية في ثقافتنا الجديدة المعربة، تعني تطبيق نظام تعدد الأحزاب.

وخارج هذا التعريف، لا تملك ثقافتنا، صيغة شرعية أخرى للديمقراطية.

رأس المشكلة بالطبع، أن نظام تعدد الأحزاب، من دون رأس المال، لا يستطيع أن يحمي نفسه من العسكر والفقهاء، وأن العرب المحبوسين، داخل البحر المتوسط، منذ عصر كولمبس، لم يجمعوا رأس المال أصلاً، وليس بوسعهم أن يتجمعوا في أحزاب، لا تملك ما يدعوها إلى التحزب.

إن النتيجة الأولى، لهذا التفسير ((المعاصر))، هو أن يفقد العرب كل أمل ممكن في تحقيق الديمقراطية.

والنتيجة الثانية، أن تصبح الديمقراطية نفسها وصفة سحرية، تعيش في ثقافة العرب، من دون أن تتحقق في واقعهم.

ومثلاً:

كلمة الاشتراكية في ثقافتنا الجديدة المعربة، تعني تأميم الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، والتحول إلى نظام القطاع العام.

وهو تفسير صحيح فقط، في بلد يحكمه حزب لينيني، فإن التأميم لا يلغي الملكية الخاصة، بل يجمعها في يد مالك كبير واحد، يجلس وحيداً فوق القمة، ويسلم أملاكه لجيش من الموظفين الذين يتولون إدارتها، طبقاً لروتين حكومي مفتعل، لا تهمه قوانين الإنتاج، بل قوانين الضبط والربط.

وفي ظروف إدارية من هذا النوع، يحدث ما حدث في وطننا العربي، وتولد اشتراكية من دون حزب عمالي حاكم، كما تولد أرنب من قبعة ساحر، فيتم تأميم مرافق الإنتاج، وتقوم عاصفة داخل فنجان، وينهار الاقتصاد تحت وطأة الروتين، ويتكلم الخبراء نيابة عن الناس أنفسهم، ويذهب الموظف غير المناسب، إلى المكان المناسب، وتشيع العمولة، ويعم الفساد، ويقف الناس في طوابير طويلة تحت الشمس، فيما تصدر الصحف يومياً، للإشارة بمنجزات الاشتراكية تحت شمس سحرية أخرى.

ومثلاً: كلمة الليبرالية في ثقافتنا الجديدة المعربة، تعني استبعاد الدين من لغة الإدارة.

وهو تشريع ناجح في الغرب، حيث كان رأس المال، قد تولى تحرير الإدارة من لغة الإقطاع.

أما في الوطن العربي، فإن فصل الدين عن الإدارة، لا يحقق شيئاً في الواقع، سوى أن يقطع الجسر الوحيد الذي يربط العرب بشرع جماعي قادر على تحريرهم من قبضة الإقطاع.

إن موقف ثقافتنا العربية المعاصرة، تجاه واقع العرب القاسي موقف حرج من جميع الوجوه.

فهي ـــ من جهة ـــ لا تستطيع أن تتحدى الإدارة الإقطاعية، ولا تستطيع أن تتحدى المؤسسة الدينية، على غرار ما حدث في النموذج الرأسمالي الذي تنقل عنه.

وهي ـــ من جهة أخرى ـــ ثقافة أوروبية متطورة، تعادي الإقطاع، وتعادي سلطة رجال الدين.

وفي ظروف حرجة إلى هذا الحد، لم يكن بوسع ثقافتنا الجديدة المعربة، إلا أن تمسك العصا من وسطها، وتجرب أن تعيش بين العرب، مثل سائح أوروبي، لا علاقة له بما يحدث للعرب أنفسهم.

إن المثقف العربي المعاصر يرفع قبعته احتراماً أمام كل شيء في متحفنا القديم.

يساند رجال الإقطاع.

يبرر أخطاءهم المميتة.

يشيد بمآثرهم في الصحف.

يغني لهم.

يرقص لهم.

يرسم لهم.

يخطط لهم.

يلعن خصومهم.

ذلك كله، وهو يعرف سراً، أن الإدارة الإقطاعية قد خسرت السباق منذ زمن بعيد، وخرجت من قاموس الثقافة إلى البد، وأن الحديث عنها بلغة عصرية، لا يجعلها عصرية حقاً، بل يجعلها بديلاً سحرياً، من اللحاق بثقافة العصر.

يساند رجال الدين، ويشيد بتاريخ الدولة ((الإسلامية))، مرة من وجهة نظر الشيعة، ومرة من وجهة نظر السنة، وهو يعرف سراً ــ ومن دون أدنى شك ــ أن تطبيق الشريعة، معناه أولاً، تطبيق الإدارة الجماعية وأن الإسلام ــ من دون هذه الإدارة ــ قد خسر معركته قبل أن تبدأ، وخسر السباقة على المحيط، وخسر السباق على الفضاء، وأن مذاهب الفقه بالذات، هي الثقافة التي انتهت بالإسلام إلى هذا المصير.

أن المثقف العربي المعاصر، لا يملك أعداء، لأنه (مثقف) من دون قضية.

رجل ولد في غياب والديه، يمثل نظريات أوروبية، ليس لها جذور في تراث العرب، ويتكلم لغة معربة عن عصر لم يدخله العرب، ويقلد نموذجاً أوروبياً مختلفاً في أدق تفاصيله عن واقع العرب.

وفي رعاية هذا الساحر الجديد، شهد الوطن العربي أكثر من معجزة، وتم توحيده تحت لواء لغة واحدة ودين واحد وتاريخ واحد ومصير مشترك، وأنشئت جامعة الدول العربية، بمثابة دليل (ملموس) على حقيقة هذه الوحدة.

وإذا كان ثمة من يريد أن ينكر أن الأرنب يخرج من قبعة الساحر، فعليه أن ينكر أولاً وجود الشمس الساطعة على مبنى جامعة الدول العربية[1].

1- محنة ثقافة مزورة - صوت الناس أم صوت الفقهاء - رياض الريس للكتب والنشر ط3 - بيروت 2000م- ص155 وما بعدها..

➢ **مفارقاتنا :**

الماء يباع في كل الحارات..

والفلسفة أيضاً..... ولكن المشكلة أن معظم الرجال يعبرون الأرض ورؤوسهم في السماء باحثين بإرهاق عن نجمة بيضاء تجلب الحظ الحسن...

والتاريخ مثل سجلات البلدية لا يسجل برج الميلاد ولا يهتم بالحظ.

فانظروا إلى أسفل إذا ولدتم مرة أخرى..

ولا تتركوا النجوم تخدعكم... ولا الزناتي خليفة.. وثقوا أن الله قد وضع الإنسان على الأرض ووضع كل شيء يخصه معه... وأن الله لا يمكن أن يكون قد نسي شيئاً يخصنا من السماء...[1]

➢ **العجز عن القراءة :**

إن العجز عن القراءة نوع واحد من أنواع الأمية فقط. وهو أيضاً الشكل الخارجي لها الذي يستطيع المرء أن يلمسه بأصابعه، ولكن ذلك لا يعني بأي حال أن (الأمية) تبدو دائماً في هذا الشكل الواضح بالذات. إنها تصبح أكثر وضوحاً وأكثر خطورة ومدعاة للخسارة عندما تختفي وراء قناع القدرة على القراءة، ويصير بوسع (الأمي) أن يقرأ لك أفكاره

1- كلمات الحق القوية ص 105 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

المشوّهة من فوق منصة الخطابة، ويخدعك عن سمها القاتل بالبديهيات التي تبدو من الخارج منطقية ومغرية.[1]

➢ الرقابة :

التماسك ـــ إذا لم يخل من الرقابة كلية ـــ فإنه في الواقع مجرد نوع من معسكرات الاعتقال.[2]

➢ الثقافة المزورة:

مشكلتنا في الواقع لا تخص عدد العاجزين عن القراءة والكتابة بقدر ما تخص «نوع» المعارف التي نتناقلها سواء بالقراءة أو بالسماع عبر جميع مصادرنا الفكرية في بلدنا الصغير. تلك الحزمة القديمة من الأخطاء والثقافات القديمة المفجعة القبح والأوهام الموروثة من أكثر عصور العالم إيغالاً في الموت التي تنشب أصابعها في أعناقنا بشراسة تدعو إلى الدهشة.[3]

➢ الإصلاح الديني :

إن الإصلاح الديني في الدرجة الأولى هو المشكلة الفكرية الرئيسية في بلدنا. والمرء لا يستطيع أن يتصور أن الأصوات المتحمسة ـــ التي تصرخ

1- كلمات الحق القوية ص 164 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا
2- فرسان بلا معركة ، تالة للطباعة والنشر ، ط 2 طرابلس 2001 م ص 8
3- فرسان بلا معركة ، تالة للطباعة والنشر ، ط 2 طرابلس 2001 م ص 66

فوق جميع صحفنا المحلية مطالبة ببناء المدارس ــ تجهل هذه الحقيقة المسطحة، ولكن المرء أيضاً لا يسمع صوتاً واحداً يشير إلى أن «الحقائق المسطحة» تستحق قليلاً من الحماس.

إن أحداً لا يرفع صوته مطالباً بإصلاح الفكر الديني في الوقت الذي يزعم فيه خطيب الجامع أن الإنسان صنم من الطين. بل إن معظم «الصارخين» في بلدنا مستعدون لقتلك بمخالبهم إذا سمعوا أنك لا تصدق خطيب الجامع. وبعد ذلك ــ أعني أيضاً في الوقت نفسه ــ يطالبون بمزيد من المدارس لنشر «العلم».

هذه خرافة الحماس البلهاء.

خرافة «الأمية العلمية» التي تخنق مسيرتنا في بلدنا بالذات، وفي معظم البلدان المتخلفة مثلنا. قطيع من الذئاب الصارخة التي لا تحسن شيئاً في العالم سوى أن تصرخ من أجل أي كارثة تخطر ببالها. من أجل محو إسرائيل من أجل محو الأمية من أجل الجنة من أجل القرآن من أجل أي شيء مقابل لا شيء، وعندما تتعب من الصراخ تصرخ أيضاً لإبداء التعب.

وفي ذيل القائمة تبقى الحقيقة القبيحة المثيرة للعار والألم. إن صوتاً واحداً يرتفع بشجاعة لفضح مغالطات «الأمية المقنعة» في ميدان السياسة والدين والأخلاق يستطيع أن يخدم بلدنا بصورة أفضل مما تفعل ألف مدرسة يعمرها ألف «أمي قارئ».

ومع ذلك فالصوت الشجاع لا يرتفع قط، بل يظل ينتظرك لكي يأكل جثتك على مأدبة العشاء عندما يذبحك فقي الحارة العالم باسم الله. ثم يلعق مخالبه ويدخل الجولة التالية في المطالبة بمحو الأمية.

هكذا الحلقة مفرغة في عالم الكتاب الأميين أكلة الحشيش والجثث.[1]

➢ **شارع الصحافة :**

إذا حملتك قدماك إلى شارع قديم مليء بالشحاذين والحواة وجرادل القمامة التي يلقيها السكان من البلكونة على رؤوس المارة فلا تدع الدهشة تعقد لسانك.. إنك تقف ــ دون أن تدري بالطبع ــ في .. شارع الصحافة.

وأنت هنا، في هذا الشارع المدهش، مجرد بقرة بلا ذيل..

إنك لا تستطيع أن تعتمد على حماية الشرطة، لأن القانون نفسه يقف عادة إلى جانب شارع الصحافة، ولا تستطيع أيضاً أن تعتمد على قبضتك أو تفعل شيئاً في العالم ضد حزم الجرائد التي تسقط فوق رأسك من كل البلكونات. إن كل ما في وسعك أن تفعله هو أن تواصل المشي في شارع الصحافة الممتد من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر سابقاً، وتقرأ الصحف العربية الصادرة في المنطقة وتأكل خطباً حتى تصل الثقافة إلى أذنيك.

ولا بد أن يصلك أول جردل بقلم رئيس التحرير نفسه.

١- فرسان بلا معركة ، تالة للطباعة والنشر ، ط ٢ طرابلس ٢٠٠١ م ص ٧٢.

ولا بد أن يثبت لك ذلك الرجل الطيب القلب أنه قد أنفق ليلة البارحة ساهراً بجانب آلة الطباعة لكي يعد لك افتتاحية الصباح ويجعل صباحك لبناً مخلوطاً بقليل من الثقافة. وأنت معرض بالطبع إلى أن تموت من الإعجاب بمهارة السيد رئيس التحرير في خلط اللبن، ولكن لا تدع ذلك يشغلك عن مهارته في إعداد بقية الوجبة.

إنه سيحدثك عن أي شيء.

ذلك يعني عن أي شيء حقاً من إبادة إسرائيل إلى إبادة دودة القطن وسوف يفعل ذلك دائماً في حدود المصلحة العامة ويضربه الملعقة مع إضافة قليل من الأشعار والملح ويخلطه بخبطة نهائية تخص أي مخلوق يضعه سوء الحظ في طريق السيد رئيس التحرير.. وعندما تنضج الوجبة في نهاية المطاف يرش فوقها بعض النصائح الموجهة إلى الشحاذين في الخارج ويدلقها فوق رؤوسهم من البلكونة.

ذلك يحدث في البلاد العربية لخدمة المصلحة العامة.

وحكاية مكاسب الشعب أيضاً وتحقيق وحدة الأمة وبعض الخدمات الجانبية الأخرى.. ورغم أن الافتتاحية تستطيع أحياناً أن تتناول موضوعاً معقداً لا علاقة له بالشعب التائه تحت البلكونة مثل الهبوط على سطح القمر، فإن السيد رئيس التحرير يمكنه دائماً أن يجد حيلة ما لربط القمر بالمصلحة العامة. إنه ــ عادة ــ يبدأ تلك المغامرة الشعرية بطلب فنجان

من القهوة بدون سكر، ثم يشعل لفافة تبغ ويشتم الأميركيين الذين وضعوه في هذا المأزق ويكتب الافتتاحيات الفظيعة رغم أنفها.. وعندما ينظر من البلكونة ويكتشف فجأة أن الشعب المشار إليه ما يزال يعتقد أن الأرض تدرو على قرن ثور، يكتب له في الافتتاحية أن المستر أرمسترونغ قد رفع عينيه بدون تعمد فوق سطح القمر ورأى الثور معلقاً في الهواء..

ذلك يحدث في الصحف العربية لأن رؤساء التحرير ــ الغالب ــ يفرطون في شرب القهوة بدون سكرة، ولأن أحداً منهم لا يهمه أن يرفع الشيطان نفسه رأسه الجهنمي لكي يرى الثور معلقاً في الهواء، ما دام ذلك يساعده على ربط القمر بالمصلحة العامة.

فالمهم أن يحتفظ الشعب بثوره، ويحتفظ السيد رئيس التحرير بوظيفته، ويعيش كل امرئ هادئ البال بغض النظر عن رائحة الكون المتوقعة إذا كان حقاً مجرد اسطبل للثيران.

إن الكون لا يخص السيد رئيس التحرير. ولا يخصه الشعب التائه تحت البلكونة أو الثيران التي تتسكع بين النجوم أو أضرحة الأولياء وشعوذة الفقي المحلي وتجارة الفكر الحافلة بالغش وعرض النفاق السياسي في نوافذ السوق الرئيسي والقهر العقلي الذي يحصد المنطقة مثل وباء الطاعون.

الافتتاحية فقط تخص السيد رئيس التحرير لكي يعرض فيها عواطفه النبي صلى الله عليه وسلم له، ويدق فيها طبلته للسياسين ويهتف وراءهم

بإبادة إسرائيل مرة وبالحل السلمي مرة وبالوقوف على الرأس وقت الحاجة والتمسك بأهداب الفضيلة وتنقية مياه البحر وإنشاء محطة للأتوبيس وإقامة ملجأ للشحاذين السعداء.

ذلك لا بد أن يقوله السيد رئيس التحرير كل يوم.

ولا بد أن يجعل الافتتاحية تبدو مملّة إلى حد لا يطاق، ويتورط في ارتكاب بعض الحماقات التي تتسبب أحياناً في إصابة المرء بالدوار لكي يثبت لمواطنيه أن الصحف العربية لا تريد شيئاً في العالم سوى أن تراهم يموتون من السعادة.

أما أن تراهم يعيشون مثل بقية البشر؟

أما أن تقف للدفاع عن حقهم مثل غيرهم بالضبط؟

وتعمل عل حمايتهم من الحواة السياسيين وباعة الأفكار والأحذية القديمة والمتشردين الشيوعيين والفقهاء الميتين بالعقم وأضرحة الأولياء وعمليات التقديس والقهر الفكري؟ أما أن يضع السيد رئيس التحرير رأسه في هذه المقصلة، فذلك في الواقع مجرد إغراء نجس من جانب الشيطان بالذات.

فالمواجهة الفكرية لا يستطيع المرء أن يدلقها من البلكون.

إنه لا بد أن يحملها بين يديه بحذر متناهٍ، ولا بد أن يمنحها كل وقته، ويضع كل ما لديه جانباً لكي يتفرغ لتحقيق أبعادها المعقدة. والمرء لا يأتي إلى شارع الصحافة لكي يفعل هذه الخارقة، ويتورط في محاربة طواحين

الهواء ويتلقى الشتائم على الأرصفة ويفقد راتبه أيضاً. إنه يأتي ـــ عادة لأنه يعتقد أن أحداً ما لا بد أن يشد بمشروع الجمعيات التعاونية أو مشروع تنقية مياه البحر أو أية كارثة أخرى وأنه بالذات يحسن القيام بهذا العمل نظراً لاستعداده الفطري في كتابة مواضيع الإنشاء.

هكذا يصل السيد رئيس التحرير في معظم البلاد العربية إلى مكتبه.

إنه لا يحتاج إلى أن يضع رأسه داخل أية مقصلة، ولا يحتاج إلى إثبات تفوقه الفكري أو قدرته على تحديد الاتجاه أو الرؤية الواضحة أو العمل الجاد الذي يمكن الوثوق بنتائجه. إنه فقط يحمل استعداده الفكري في كتابة الإنشاء فوق كتفه ويذهب إلى مكتبه ويقود الأمة العربية إلى النصر والسعادة معتمداً على الصدفة وحدها.

وفي العادة تسقط الأمة العربية في حفرة ما، ويحدث أي شيء لتغيير وجهة القافلة ويستدير السيد رئيس التحرير وينطلق مرة أخرى في الاتجاه الجديد مزوداً بالطبع باستعداده الفطري في كتابة الإنشاء.

إنه يذهب في كل اتجاه مزوداً دائماً باستعداده الفطري في كتابة الإنشاء.

ويلبس لكل حالة لبوسها، ويتشقلب على الحبل بالمجان رغم أن أحداً من المواطنين أو من أصحاب الحكومة الجديدة لا يملك من الوقت ما يضيعه في مشاهدته.. ولكن السيد رئيس التحرير لا بد أن يقوم بواجبه على أي حال، ولا بد أن يدلق جردله الصباحي على رؤوس المارة.

وفيما تبدو صحف العالم بمثابة منصة يومية لمنجزات الفكر الخلّاقة، وفيما تضاء كل الطرق بمزيد من الرجال الشجعان والأوفياء وفيما تنطلق الشعوب العظيمة في مسيرتها الآمنة وراء صحافتها، يظل رئيس التحرير في البلاد العربية يتشقلب في البلكون بالمجان ويستبدل الأقنعة السياسية كل يوم ويكتب الإنشاء المريع في فوائد الحاكم الجديد ويدلق الجرادل فوق رؤوس مواطنيه مقابل راتبه وحده.

ولدينا في المنطقة ـــ من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر سابقاً ـــ أكثر من ألف رئيس تحرير.

ولدينا شارع الصحافة الذي يمتد على طول الأمة العربية مزوداً بكل الاستعدادات الفطرية في كتابة الإنشاء. ولدينا أيضاً ألف موضوع إنشاء كل يوم.. ومع ذلك فإن المرء لا يستطيع أن يجد سبباً واحداً لموت الشعوب العربية ـــ الذي يراه العالم بأسره ـــ سوى أنها ـــ بطريقة ما قد ماتت من السعادة.

فالصحف العربية لا تذكر سبباً آخر..

إنها ـــ في الواقع ـــ لا تذكر شيئاً على الإطلاق سوى أن الحاكم الجديد قد وصل هذه المرة حاملاً مفتاح الجنة وأنه وجد ذلك المفتاح صدفة فإذا حدث تغيير آخر فإن الصحف العربية تسارع إلى القول بأن المفتاح السابق كان مزيّفاً، وأن الجنة سوف تفتح أبوابها هذه المرة حقاً. أما نقاش

الفكرة نفسها والوقوف في مقدمة القافلة بدل الاكتفاء بوصف مهارات الحاكم الجديد، وتحديد الاتجاه بوضوح مقام على المنطق والفكر معاً، فإن ذلك كله يضيع عبثاً في صياغة الإنشاء.

الشعوب العربية في المنطقة تعيش داخل دوامة فكرية مميتة وتلهث بلا انقطاع لملاحقة كل الأفكار المريضة والمستوردة، ويقودها المتشردون الشيوعيون والإمبرياليون والقوميون وقطعان الفقهاء الجهلة وعساكر البندر وباعة القيم الجاهزة الصنع. والسيد رئيس التحرير يتربص بها في البلكونة ويدلق جردله الصباحي فوق رأسها دون أن يخطر بباله أنه يستطيع ــ من باب الرحمة على الأقل ــ أن يترك الأمة العربية وشأنها. فالمرء لا بد أن يكتب شيئاً في الجريدة. إن ذلك قضاء لا بد منه على أي حال، ولا بد أن يتشقلب قليلاً على الحبل ويشيد بأحد ما في هذا العالم، ويشتم رجلاً آخر، ويحشر أنفه في بوق الدعاية البلهاء. والمرء لا يستطيع أن يقبض راتبه إذا خرجت الجريدة غير ملوثة بالحبر. إنه لا بد أن يكتب شيئاً هناك. أعني أي شيء يجده صدفة على رصيف شارع الصحافة.

والسيد رئيس التحرير في البلاد العربية يجد حقاً ذلك الكنز على رصيف شارع الصحافة.

إنه لا يحتاج إلى الذهاب للبحث عنه في أي مكان. ولا يحتاج إلى التورط في مشقة العمل الفكري الجامح الذي يقع عادة على بعد بضعة أميال من قشرة الأرض. إنه يولد كاتباً بالسليقة، أعني هكذا مثل الحوتة

التي تولد لكي تسبح في كل المياه ويولد حاملاً مشعله المضيء ويدفع القابلة المدهوشة جانباً وينطلق على الفور لكي ينير الطريق أمام مواطنيه.

لا أحد يستطيع أن يعوقه عن أداء ذلك الواجب.لا أحد، فلا تدع الدهشة تعقد لسانك إذا رأيت ذات يوم طفلاً حديث الولادة ينطلق حاملاً مشعله، وفي أعقابه تلهث العجوز القابلة، إنه مجرد واحد منهم.. أعني من سكان شارع الصحافة..[1]

➢ العادات الرديئة :

الله ليس قسماً في لغتنا العامية، إنه مجرد كلمة ترد ـــ عفواً ـــ داخل جملة تقريباً وترد دائماً بحكم العادة الرديئة التي يتبناها المواطن خلال تجربته في تعلم الكلام، ولكنها ـــ فيما يبدو ـــ العادة الوحيدة في العالم بأسره التي لا تكتفي بإفساد «حياة» المواطن فقط بل بإفساد «موته» أيضاً. إنها تقوده من ليبيا إلى الجحيم مباشرة دون ثمة داع على الإطلاق، بالإضافة إلى أنها ستبقى إلى الأبد عادة عديمة الجدوى.

فالمواطن الليبي لا يصدقك على أي حال إذا أقسمت له «بالله» لقد تعلم الخدعة بدوره وعرف أيضاً أن الله وحده لا يكفي، وأنه لا يحمل عصاه في يده لكي يكسر لك ظهرك، وأنه مجرد كلمة تقال عفواً في كل مكان من دكان الجزار صاحب السن الذهبية إلى دار الإذاعة.

1- فرسان بلا معركة ، تالة للطباعة والنشر ، ط 2 طرابلس 2001 م ص 145

لذا، فإن المواطن عندنا لا يصدقك إلاّ إذا أقسمت له بالطلاق، أعني ما دام الأمر ليس مهماً حقاً بالنسبة له. أما إذا أثرت شكوكه في ذلك اليمين فإنه سيجرك بالتأكيد لكي تقسم له على ضريح المرابط المجاور بعد أن تخطو ثلاث خطوات وتلمس الصندوق بيدك. وأنت تستطيع أن تتوقع إذ ذاك عصا المرابط ترتفع فجأة من دار الآخرة وتسقط فوق رأسك وأحياناً، أعني في الحالات ذات الأهمية يقصفك المرابط بمدفعه الهاون. إن الموتى عندنا أكثر كفاءة من الله نفسه.

والأمر يدعو إلى الحزن مرتين.

مرة لأن الله ليس لعبة في فم أحد، ومرة لأن مواطننا الطيب القلب الذي جعل اسم الله مجرد كلمة تقال لم يعد لديه ثمة ما يدعوه إلى الثقة في أحد سوى أن يسمعه يقسم له برأس امرأته أو يدق أمامه فوق صندوق رجل ميت. ذلك القسم الذي لا يبدو مجرد اعتراف باليأس.

فتعلموا أن تقلبوا هذه اللعبة رأساً على عقب.

دعوا الله جانباً، واسألوا عن الساعة هكذا «كم الساعة» أو «من الساعة بجاه سيدي عبد السلام» إن ذلك على الأقل سينقذكم من الصيام على بعد شبر واحد من الحوريات.[1]

1- فرسان بلا معركة ، تالة للطباعة والنشر ، ط 2 طرابلس 2001 مص 171

➢ العبث بالدين :

العبث بالدين والخصام فيه، قد وقعا بين الفقهاء، الذين دخلوا في أحلاف سياسية مع الأسر المتصارعة على السلطة منذ عصر الأمويين، مما أدى إلى تشتيت المسلمين بين عشرات المذاهب والفرق، وعمل على تطويع الإسلام لخدمة أهواء الطغاة ببدع مميتة منها: الفتوى بشرعية الحكم الوراثي. واعتماد نظرية الخلاف في قريش، وإهدار دم المعارضين السياسيين. وإطلاق حرية التسري بالجواري. وفرض الحجاب على المرأة. وإباحة قتل المسلم لأسباب عقائدية على غرار ما حدث لأبي منصور الحلاج. وهي جرائم في حق التشريع الإسلامي، ما كان لها أن تقع، لو كان الناس ـــ وليس الفقهاء ـــ هم المسؤولون عن صياغة القوانين.

إن القول بوصاية رجال الدين على التشريع، مبدأ اختلقه أحبار اليهود، ونقله عنهم رجال الكنيسة الكاثوليكية. أما الإسلام فإنه لا يعترف برجال الدين أصلاً، ولا يعفي الناس من مسؤوليتهم الشخصية عما يحدث لهم، وعما يحدث من حولهم، في آيات صريحة منها قوله تعالى في سورة الشورى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} وليس بما كسبت أيدي فقهائكم. وإذا كان الإسلام قد خسر هذا المبدأ الديموقراطي مبكراً. وعاد إلى شرائع اليهود والكاثوليك القائمة على وصاية رجال الدين، فذلك إنجاز تم على يد أصدقائك الفقهاء بالذات.[1]

1- إسلام ضد الإسلام –شريعة من ورق – رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص102

➢ الوصاية الفقهية :

الدعوة إلى تحرير الإسلام من وصاية الفقه، ليست فقهاً جديداً، بل دعوة إلى اكتشاف قاعدة الديمقراطية التي ولدت في شريعتنا منذ أربعة عشر قرناً، وما تزال حية فيها، تنتظر البعث من مقبرة الفقه حتى الآن.

هذه القاعدة اسمها (الجامع). وهو تنظيم سياسي معد لضمان حق المواطنين في الإشراف على سير الإدارة وإصدار القوانين، بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والدينية. ومن دون هذه القاعدة، لا يتحقق الإسلام شرعاً، ولا يصبح المرء مسؤولاً عما كسبت يداه، ولا تكون الدعوة إلى «تطبيق الشريعة» سوى حيلة سافرة لإقامة دولة دينية في خدمة الفقه والإقطاع.

إننا لا نملك نظاماً شرعياً، يجمع أمتنا سوى هذا الجامع الذي سرقه الإقطاع منذ زمن طويل، ومسخ هويته الإدارية، بأن أحاله إلى مجرد (معبد) يحرسه الفقهاء والوعاظ بأسلحة عملية جداً، منها الرشاشات والقنابل، باسم المحافظة على الشريعة بالذات. وإذا نجحنا في اختراق هذه الجبهة، واستعدنا نظام (الجامع) من أسر (المسجد)، فإننا نستطيع أن نمنح مواطننا صوتاً دستورياً في الإشراف على أداة الحكم، ونضمن له حق الحوار في برلمان دائم الانعقاد، محرر من سلطة الدولة يفتح أبوابه لكل مواطن وكل مواطنة، ويجمع أمتنا على اختلاف طوائفها تحت سقف بيت واحد، وشريعة سياسية واحدة، ويرتكز إليه أي إداري نختاره، من دون أن يتحول هذا النظام إلى سلام موجه ضدنا، في خدمة رأس المال أو الإقطاع أو العسكر.

العائق الرئيسي أمام تحقيق هذا الأمل، ليس هو أنظمة الحكم، بل هو مواطننا المسلم شخصياً الذي فقد قدرته على التفكير الحر بفعل عمليات غسل المخ، وبات يعتقد فعلاً أن الإسلام هو أداء الشعائر على مذاهب الفقه، وأن غاية الشريعة هي أن تضمن له الجنة بعد الموت، وأن الدين «علم» لا يعرف أسراره سوى رجل الدين.

هذا المواطن يتعمد أن ينسى، أن الله لم يأمر بالعدل، حتى أمر — أولاً — بسلطة الأغلبية، وأن الشريعة التي لا تضمن حق النسا في الحياة، لا تستطيع أن تضمن حقهم بعد الموت، ولا يمكن أن تكون شريعة ربانية، وليس بوسعها أن تحقق شيئاً سوى أن تخدم أطماع أهل الأرض على حساب أهل السماء بالذات.

هذا المواطن هو الذي تقرأ ردوده هنا، وتلمس مدى معارضته لفكرة إحياء الجامع، في شهادة معلنة، على مدى نجاح الفقه في تسخير الإنسان ضد مصلحة الإنسان. فطوال أربعة عشر قرناً، تعلم المواطن المسلم أن يكره حريته، ويرفض حقه الشرعي في المسؤولية، مفضلاً أن يسلم نفسه وعياله رهينة لنظم إقطاعية مروعة، لم تعد تجد لها مكاناً، إلاّ في وطننا الغائب عن وعيه وراء سديم الأدعية والنجوم.[1]

1- إسلام ضد الإسلام –شريعة من ورق – رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م.ص243

➢ صحافة دون رأسمال :

مشكلة الصحافة ـــ من دون رأس المال ـــ أنها حرفة غير دستورية، ليس لديها مهمة إعلانية، وليس لديها مهمة حزبية، ولا يضمن لها الناس حرية النشر، في مجتمع محروم من حرية القضاء نفسه، إنها ليست ((ملكة)) متوجة، بل سيدة، لها لقب آخر، تمارس حرفة غير شرعية، لتحقيق مكسب غير مشروع.

وهي حرفة شائعة في كل مجتمع فقير، يستعمل وسائل رأس المال، من دون ضمانة رأس المال نفسه.

المنفذ المتاح من هذا المأزق، يكمن في نظام الإدارة الجماعية، لأنه نظام يمنح الصحافة كل الضمانات التي أتاحها لها رأس المال، من دون أن يسخرها لخدمة رأس المال، من دون أن يسخرها لخدمة رأس المال وحده.

إنه يضمن لها مظلة دستورية قادرة على حماية حقها في القول، ويطلق لسانها في قول الحق، ويحررها من سلطة الفرد والطبقة، ويجعلها حرفة مقدسة ـــ ونافعة ـــ أكثر من حرفة الملكات.

وفي نظام جماعي من هذا النوع، تولد صحافة جديدة، لا تشبه صحافة الغرب، لكنها فعالة مثلها.

فالشرع الجماعي، إدارة تقوم أساساً على حرية النشر، مما يضع الصحافة قبل غيرها، تحت مظلة الدستور، ويجعلها حرفة دستورية، لديها وظيفة تؤديها، بموجب الدستور نفسه.

إنها تصبح صاحبة رسالة شرعية، وتصبح وسيلة اتصال بين الناس، وتكون صوتاً مفهوماً بينهم، يتحدث عن واقعهم المعيش، وينقل حديثهم عنه، ويملك أرضاً صلبة في واقع الإدارة.

ـــ تكون صوتاً لا يتعمد أن ينتشر، بل ينتشر تلقائياً، لأنه صوت الناس أنفسهم، كما يتردد في بيوتهم وشوارعهم .

ـــ تكون صوتاً لا يقول، إن رأس الدولة اسمه فلان، بل يقول كم يكلف هذا الرأس، وكم يتقاضى كل حارس يحرسه، وكم مليوناً من الدولارات، تبلغ نفقاته في الدقيقة الواحدة.

ـــ تكون صوتاً، لا يتيه في البرية، بل يطرق أسماع أجهزة دقيقة، لها نيابة قضائية، وأمن دولة ومحققون، لا تلبث أن تظهر على مسرح الأحداث، لكي تلتقط رأس الخيط من الصحافة، وتقدم للعدالة حكام دول، تبلغ تكاليف حراسة نظمهم، ملايين الدولارات يومياً، ووزراء ينهبون وزاراتهم علناً، و((وجهاء)) يجمعون الإخوة من الناس، تحت اسم ((عمولة)).

إن كل ما تفعله صحافة الأوروبيين الأغنياء، تحت مظلة رأس المال، تستطيع صحافة الفقراء أن تفعله، تحت مظلة الشرع الجماعي.

لأن حرية النشر، في الواقع، ليست فكرة رأسمالية، بل مبدأ في دستور الشرع الجماعي، الذي يقوم أساساً على تبادل الآراء والمعلومات، بموجب دستور يكفل حرية الرأي، وحرية إعلان الرأي، وحرية العقيدة، وحرية التحقيق والقضاء.

وإذا كان ظهور هذه الحريات، قد ارتبط في ثقافتنا المعاصرة، بظهور الرأسمالية الحديثة، فذلك مرده إلى أن لغة الشرع الجماعي، كانت قد اختفت من واقعنا، قبل ظهور الرأسمالية بألف سنة على الأقل، وأن الشرع الجماعي نفسه، كان طوال هذا الوقت، مجرد شرع ساكت بين الأغلبية الساكتة.

أما في أرض الواقع، فإن هذه الحريات، لا يكفلها بالفعل، سوى شرع جماعي، موجة إلى تحرير الناس من سيطرة الإقطاع والرأسمالية معاً، مثل الإدارة الجماعية في الإسلام.

إننا نصادف فروقاً كبيرة جداً، تحت سطح اللغة ــ بين مفهوم هذه الحريات في الشرع الرأسمالي، وبين مفهومها في شرع محرر من سيطرة رأس المال.

فمثلاً: حرية الفكر، تعني في دستورها الرأسمالي حرية الأفكار لكنها تعني في شرع الإسلام، تحرير الفكر، فالعنصرية فكرة حرة، رغم أنها ليست محررة من مركبات النقص.

وكذلك التعصب الديني، والاستعراضية، والبذخ، والمتاجرة بمشاكل المراهقين، وتدبير الانقلابات في بلدان العالم الثالث، والعبث بأسواق المواد الخام.

هذه كلها أفكار رأسمالية حرة، لكنها ليست محررة من سيطرة رأس المال، والتخلف العقلي، والعقد النفسية.

إن تحرير الفكر مبدأ إسلامي، مختلف، من شأنه أن يعري أفكاراً رأسمالية ((حرة)) كثيرة، منها فكرة الربا التي تقوم عليها شريعة رأس المال من أساسها.

حرية الرأي، تعني في وطنها الرأسمالي، حق إعلان الرأي، في الشارع، لكنها تعني في الإسلام، حق إعلان الرأي، في مؤتمر مسؤول، معد خصيصاً لسماع الآراء.

وهما تعريفان يختلفان عملياً، في كل التفاصيل، فالرأي في الإدارة الرأسمالية، لا علاقة له باتخاذ القرار الإداري.

أما في الإدارة الجماعية، فإنه قرار إداري نافذ باسم الأغلبية نفسها.

ومثلاً: حرية النشر، تعني في موطنها الرأسمالي، حرية الانتشار بكل وسيلة ممكنة، بما في ترويج الشائعات، والتحايل الإعلاني، وتغذية النعرات الطائفية، ومعاداة قضايا الفقراء، ونشر عناوين العاهرات، والصور العارية، مما يفتح مجال النشر، أمام تجار شذاذ، لا يجوز لهم الحصول على مثل هذا السلاح الجماعي الخطر، ويجعل النشر حرفة مشروعة، لكسب غير مشروع، على حساب مصلحة الناس.

وهو وضع من شأنه، أن يزيد مادة المنشورات إلى ما لانهاية من دون أن يزيد من قيمة المنشورات نفسها.

في نظام الشرع الجماعي، تصبح حرية النشر، هي ((تحريره)) من هذه الفوضى بالذات.

فالصحف التي تصدر تحت إشراف الناس، لا ينال رخصتها تاجر، ولا تنافسها صحف، يملكها تاجر آخر، ولا تكون سلاحاً في يد فرد أو أسرة، ولا تعيش على إعلانات ضارة، ولا تغري عيال الناس بالشذوذ، ولا تحتاج أصلاً إلى دخول مثل هذه المنطقة الحرجة، لأنها صحف، تملك كل ما تحتاج إليه، من حق المنافسة الشريفة على السوق، إلى حق الحماية الدستورية من كل منافس غير شريف.

وهو مجال واسع، بما يكفي، لخلق صحافة مزدهرة، لكنه ضيق بما يكفي، لمنع تسلل ذبابة واحدة إلى بلاط صاحبة الجلالة.

من دون الشرع الجماعي ــ ومن هنا إلى الأبد ــ ليس بوسع الصحافة، أن تكون شيئاً في عالم الفقراء، سوى حرفة غير مشروعة، يمارسها صحفيون لا حرية لهم، أمام مواطنين لا سلطة لهم، بموجب قانون كامن في حرفة الكتابة نفسها.

فقد بدأت هذه الحرفة، في حضارة سومر، منذ خمسة آلاف سنة تقريباً، باستعمال ألواح الطين المجفف، في تسجيل رسائل الملك الإله، وإحصاء عبيده وخيوله، وحساب الجبالة السنوية في خزائنه، وتبرير سلطته بنصوص أدبية وفقهية عن أصله الإلهي في السماء.

ومن ذلك الوقت، وحتى ظهور الإسلام، لم تضف حرفة الكتابة إلى هذه المهام، سوى مهمة تزوير الكتب السماوية المقدسة، التي ابتكرها اليهود خلال الألف الثانية قبل الميلاد.

إن حرفة الكتابة، لم تكن أبداً، سوى سلاح إداري في يد الإقطاع والمؤسسة الدينية، حتى استردها شرع الإدارة الجماعية في الإسلام، الذي وضع نهاية لتزوير النصوص السماوية المقدسة، ووضع نهاية لنظرية الحق الإلهي المقدس في الحكم، وسخر النص المكتوب لخدمة شرع الناس، ودعوتهم إلى تحرير أنفسهم من سلطة الإقطاع والمؤسسة الدينية معاً.

وقد كان أول قرار معلن في التاريخ، يصدر بشأن تحرير الكتابة من هاتين السلطتين، هو أيضاً أول آية من القرآن، في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[العلق/١].

في غياب الشرع الجماعي، تعود الكتابة إلى مكانها القديم، في خدمة سيدها الذي تربت على يديه منذ عصر سومر، وتصبح وسيلة الاستعمال ألواح الطين المجففة — وأحياناً — أوراق الصحف والمجلات — في تسجيل ما ترى الإدارة أنه يستحق التسجيل، وتزوير ما ترى المؤسسة الدينية أنه يستحق التزوير.

وهو موقع من شأنه، أن يترك قضايا الواقع، تتكلم في الشارع، إلى ما لا نهاية، ويسخر الكتابة لنشر قضايا خيالية أخرى، ربما لا تنقصها الإثارة أو حسن الصياغة، لكن ينقصها صوت الناس.[١]

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص186 ومابعدها



((لغة السحرة)) مصطلح يشير إلى لغة مفرداتها مستمدة من لغة الناس، لكن معانيها ليست مستمدة من واقعهم. فالجماعة تلتقي للصلاة في المسجد، لكنها لا تتحدث خلال هذا اللقاء عن مشاكلها الحياتية.

والجماعة تصوم لتجربة الجوع في رمضان، لكنها لا تضمن القوت للجائعين. والجماعة توحد الله، لكن إدارتها في يد رجل وحيد. والجماعة تتلو كتاب الله، لكنها لا تتحدث عن شرعه الجماعي.

كل شيء حسن في اللغة، وكل شيء ليس حسناً في الواقع، فهذا هو الهدف الأساسي للساحر، الذي يحتاج بداهة إلى واقع غريب عن عالم الناس، من دون أن يكون غريباً عن لغتهم[1].

الصادق النيهوم

مفردات من القاموس الإسلامي .

معانٍ ترسخ قيم الإسلام ومقاصد شريعته أشبه بالشفرة المفقودة في الخطاب الإسلامي العاصر، وقد أرهق الصادق من بعده في تأملها.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص 74



➢ المألوفات اللفظية:

معظم شعوب العالم تضع في لغاتها كلمات إضافية لا تعني شيئاً محدداً على وجه الضبط، ولكنها تدخل في كل جملة تقريباً بحكم العادة وحدها.[1].

➢ اللغة ذاكرة الناس

اللغة ليست وسيلة للتخاطب فقط، بل هي أيضاً ذاكرة الناس.

ومن دون اللغة، يتوه الإنسان عن موقعه في الماضي والحاضر، كما يتوه المريض فاقد الذاكرة، عن اسمه وعنوانه، وقد نجم عن ارتباط اللغة العربية بنص القرآن، أن أصبح القرآن هو ذاكرة العرب نفسها، مما جعل استبعاد لغته، من شؤون الحكم والإدارة، بالنسبة للعرب، لطمة مميتة أضاعت صوابهم إلى حد فقدان الوعي [2]

➢ إثم تبديل المصطلحات

تختلف اللغة العربية عن كل لغة سواها، في الشرق والغرب، وفي جميع العصور، لأنها ليست وسيلة للتعبير فقط، بل وسيلة للتفاهم أولاً، على معنى كل مواطن، ونوع نظام الحكم، وطريقة سير الإدارة، في مصطلحات محددة، محررة من أهواء المؤسسات، مألوفة على ألسنة الناس، حية، شرعية، متفق عليها بالإجماع.

1- فرسان بلا معركة ، تالة للطباعة والنشر، ط 2 طرابلس 2001 م ص 165

2- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر، ط 3 ،بيروت 2000م.32

والنتيجة الأولى، لاستبدال هذه المصطلحات، بمصطلحات رأسمالية أو ماركسية، هي أن يصبح العرب فجأة، شعباً من الأمين، حتى يعاد تعليمهم من جديد، فمخاطبة الناس بمصطلحات لا يعرفون لها شريعة في واقعهم، مثل مخاطبتهم بلغة أجنبية، فكرة تحتاج إلى إعادة تأهيلهم من الصفر.

والنتيجة الثانية، إن يتعلم العرب، جميع المصطلحات الأجنبية، لكنهم يبقون عرباً، عند نقطة الصفر.

فلغتهم نفسها مقيدة عضوياً إلى لغة القرآن، وليس بوسعهم إن يفصلوا هذه اللغة عن الإدارة، كما فعلت بقية شعوب العالم، ويجتمعوا في نظام تشريعي قائم على وحدة الأرض أو اللون أو الحزب.

إنهم ـــ إذ ذاك ـــ يتورطون تلقائياً، في حالة مميتة من حالات انعدام الوزن.

بين إدارة من دون شريعة، وبين شريعة من دون إدارة.

فمثلاً:

كلمة ديمقراطية التي تعني حكم الشعب كلمة تقدمية براقة، بالنسبة لكل مواطن في العالم، ما عدا مواطننا العربي الذي لا يعترف شرعاً، بغير حكم الله ولا يستطيع إن يتنازل عن هذا المصطلح بالذات، أو يقبل استبداله، أو ينساه.

ومثلاً: كلمة وطن تعني في لغة السياسة أرض الميعاد.

ولهذا السبب، يقول السياسيون أن ((الوطن مقدس)).

وتتفق الشرائع السياسية، على إباحة التضحية بالناس، دفاعاً عن تراب الوطن.

ورغم أن أحداً، في وطننا العربي، لا يعارض علناً في أقرار هذه الصياغة، فإن العرب في لغتهم الشرعية، لا يعترفون بقدسية الوطن، ولا يموتون طائعين في سبيله، بل يموتون في سبيل الله.

وهي فكرة مختلفة جداً، لأنها قد تعني أن يرفع المواطن سلاحه باسم الشرع، في وجه ما يدعى بوطنه المقدس.

ومثلاً: كلمة الحرية تعني في دستورها الرأسمالي، حرية البيع والشراء، وهي كلمة عصرية، خلبت لب الشعراء في كل اللغات، بما في ذلك لغتنا العربية.

لكن مواطننا العربي شخصياً، لا يزال اسمه عبد الله وأحياناً عبيد الله وعادة عبد المعين.

ومثلاً: كلمة اشتراكية تعني في لغة التطبيق، عدم دستورية الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، وهو تشريع عمالي، يستحيل إقراره سلمياً في مجتمع لا يحكمه العمال، ويتوقف إصداره على إشعال حرب طبقية، تتولى القضاء على الملكيات الصغيرة والكبيرة، مما جعل الدعوة إلى الاشتراكية، ترتبط بالدعوة إلى الثورة المسلحة في جميع اللغات، ومنها اللغة العربية.

رغم أن مواطننا العربي شخصياً ـــ من دون ثورة مسلحة ـــ يردد في دستوره منذ أربعة شعر قرناً، أن الملك لله وحده، لا شريك له وإن ذلك يشمل شرعاً ملكية وسائل الإنتاج.

مثلاً: كلمة دولة تعني أن تكون للدولة حدود، وتكون لها هوية ونشيد قومي، وعلم مرفوع فوق سارية، وقائد يبايعه الناس على القيادة، وهي شروط تتوافر لكل دولة في العالم، ما عدا الدول العربية بالذات، التي ترتفع فيها أصوات المؤذنين، خمس مرات كل يوم، من أعلى مواقع في المدن والقرى، معلنة ولاءها لدولة خفية، لا تعترف بحدود، أو نشيد قومي، أو علم، أو قيادة.

الله أكبر الله أكبر.

وهذه صيحة الجهاد، لكي يسمع من يريد أن يسمع، والحاضر يعلم الغائب، بأن دولة المسلمين ليس فيها أرباب أو أنصاف أرباب.

أشهد أن لا إله إلا الله.

وكل شهادة غيرها، تعتبر مزورة، مهما قيل في نشرات الأخبار، وتعليق الإذاعة، فالمواطن المسلم لا يدين بالولاء لمواطن مثله، أو لحكومة، أو لحزب، أو لطائفة.

إنه لا يعترف شرعاً، بغير حكم الجماعة.

حي على الصلاة.

في وقت لاحق، سوف يضاف إلى نص الأذان، مقطع يقول أشهد أن محمداً رسول الله.

ويضيف إليه الشيعة قولهم (وأن علياً ولي الله).

لكن ذلك سوف يحدث في وقت لاحق، بعد أن ينهار نظام الإدارة الجماعية، في الإسلام، وينتهي عصر الخلفاء الراشدين، وينجح معاوية في الاستيلاء على الحكم.

أما في عصر الرسول ﷺ نفسه.. فإن الأذان ـــ الذي يعني الإعلام ـــ كان دعوة إلى لقاء كل الأديان والملل في يوم الجمعة بالذات.

ولهذا السبب قال المالكية (إن الأذان ((واجب كفاية)) في كل بلد تقام به الجمعة).

وإذا ترك أهله الأذان، قوتلوا على ذلك، (لأنهم يكونون قد أغفلوا الغرض من الاجتماع، وهو حضور الناس).

أما الحنفية والإمامية فقد اشترطوا حضور المسؤول السياسي أو نائبه، معلنين عدم جدوى اللقاء من دون هذا الشرط، في إشارة واضحة إلى أن اجتماع يوم الجمعة، لقاء سياسي أداري وليس دينياً.

أكثر من ذلك، فإن جميع مذاهب الفقه ـــ ما عدا المالكية ـــ قد اتفقت على أن صلاة الجمعة، لا تقام بالضرورة في المساجد، بل في أي مكان يلتقي فيه الناس، لأنه لقاء لا يخص المسلمين فقط بل (المؤمنين) عامة، بموجب نص الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الجمعة/9].

حي على الفلاح.

ثم يبدأ الاجتماع الإداري بعد الصلاة، ويلتقي الناسي على مصلحة الناس، في مؤتمر جماعي محرر من سلطة المؤسسات الدينية والاقتصادية والعسكرية، محرر من مظاهر التحايل السياسي الموجه لا فساد جدية النقاش، من الغمز واللمز والغيبة والنميمة، إلى الصراخ بصوت عال، والتنابز بالألقاب.

الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله.

في أول النداء و آخره.

فهذه دعوة إلى اجتماع لا يعترف بسلطة حزب، أو كنيسة، أو إمام، ولا يساوم في بند واحد من دستوره الجماعي، ولا يدخر جهداً في الإعلان عن هويته جهازاً، من أعلى بقعة في المدينة، كل يوم من أيام السنة، منذ الفجر إلى العشاء.

إن أجراس الكنائس، تدعو الناس إلى الصلاة، لكن أصوات المؤذنين، تدعوهم إلى الصلاة، وتغيير نظام الحكم.

وإذا كانت أجهزة الرقابة السياسية في وطننا، لم تصادر المآذن حتى الآن، فذلك أمر مرده إلى أنها ــ أولاً ــ لا تعرف لغة الإسلام الإدارية، ولأنها ــ ثانياً ــ أقصر قامة من أقصر مئذنة.

فمشكلة الإدارة العربية ــ من دون غيرها من الإدارات في الشرق والغرب، وفي جميع العصور ــ إنها ملزمة بالتعايش مع نص القرآن.

وهي مشكلة تشبه إن يضطر لص سيء الحظ إلى أن يسرق ناقوساً.

فلغة القرآن، لغة لإدارة إسلامية ضائعة، سرقتها الإدارة السياسية منذ عصر معاوية، لكنها لم تعرف أبداً أين تخفيها، لأنها تعيش حية في لغة الناس.

وعند هذا الزقاق المسدود، في حالة مروعة من حالات انعدام الوزن، وقفت الإدارة العربية، والمواطن العربي معاً، مشلولين عن الحراك منذ إنهاء نظام الإدارة الجماعية على أيدي من دون شريعة مثل (حكم الشعب — وانتخابات — واشتراكية — وبرلمان — وحرية الصحافية — والجيش العامل — وبنك الدولة..) والأخرى لغة إسلامية، تتحدث عن شريعة من دون جهاز إداري مثل (الحكم لله — وبيت مال المسلمين — وكتب عليكم القتال — وهذا ما كسبت أيديكم — وكلكم راع — وكلكم مسؤول عن رعيته — والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...).

كل لغة منهما، تقول شيئاً مختلفاً، وتتحدث عن نظام إداري مختلف، لكنهما تعيشان معاً، في سلام مفتعل، جنباً إلى جنب، في كل بيت، وفي كل شارع، على امتداد وطننا العربي، خلال مباراة أبدية لشد الحبل، بين إدارة لا تعترف بالناس، وبين ناس لا يعترفون بالإدارة.[1]

وما أنا من المشركين :

أرجو أن تلاحظ أن قوله (وما أنا من المشركين)، يعني بالتالي، أن

1- إسلام ضد إسلام - شيعة م ورق- رياض الريس للكتب والنشر ط3 بيروت 2003 ص19وما بعدها

المشرك حقاً هو غير الحنيف الذي ربط نفسه بمؤسسة عقائدية. وتعمد أن يخلط الدين بالفقه، ويفرق عباد الله بين المذاهب والنحل. وهي حقيقة ربما لا يلاحظها مسلم مثلك، حتى يتذكر ما يفعله فقهاء الأديان الأخرى.[1]

➢ تلازم التعبير اللغوي بالمصطلح الإسلامي :

ـــ ترتبط لغتنا العربية بمصطلحات الشرع الإسلامي، ارتباطاً يجعلها غير صالحة للتعبير عن شرع سواه.

فكلمة عسكري مثلاً، تعني في لغتنا، رجلاً يحمل بندقية، لكن كلمة مجاهد هي التي تحدد شرعاً، أين يوجه هذا السيد سلاحه.

وكلمة بنك تعني ـــ فقط ـــ مكان النقد، لكن كلمة بيت مال المسلمين تعني أن النقود ملك للناس، وان أحداً لا ينفق منها فلساً، إلا بإذن شرعي من جميع الناس.

وكلمة رئيس تعني أن الإدارة، لها رأس واحدة، لكن كلمة أولي الأمر تعني أن الإدارة لها مجالس مكلفة بها، تضم كثيراً من الرؤوس.

وكلمة مواطن لا تقول شيئاً عن دستور الوطن، لكن كلمة مسلم تقول أن الوطن دستوره الشورى بين جميع المسلمين.

والفرق الظاهر، بين كل كلمة وأخرى، إن إحداهما ترجمة لمصطلح إداري، ليست له شريعة في واقع العرب.

1- إسلام ضد إسلام - شيعة م ورق- رياض الريس للكتب والنشر ط3 بيروت 2003 ص99وما بعدها

والأخرى هي المصطلح الإداري نفسه، كما يعرفه العرب، في صياغته الشرعية.

فإذا عمد المرء، إلى استبدال كلمة بكلمة، بحجة أن روح التجديد، تحتم استعمال مصطلحات جديدة، فإن ذلك لا يضيف شيئاً إلى لغتنا العربية، لا يجعلها لغة معاصرة، بل يفرغها من محتواها، ويجعلها لغة عمياء من دون شريعة، كما كانت ذات مرة، في عصر أبي جهل.

إن استبدال مصطلحات الإدارة الإسلامية بمصطلحات مترجمة عن نظم إدارية أخرى، هو اقصر الطرق، وأقلها مشقة، لإنهاء الحل الإسلامي من أساسه، وإعادة العرب، أربعة عشر قرناً إلى الوراء، بحيلة كلامية، سهلة، ممكنة، سلمية، عصرية، مميتة، واحدة.

لكن ثمة ملاك حارس على عتبة هذا الباب.

فاللغة العربية، منذ نزول القرآن، لغة محررة شرعاً من أهواء السياسيين، وأصحاب الرأي.

إنها لم تعد عكازاً لأحد، و لم يعد من الممكن استخدامها للتعبير في نظام إداري آخر، سوى نظام الإدارة الجماعية في الإسلام.

وإذا خطر لأحد ما، أن يتجاهل هذا الخندق، ويسخر اللغة العربية لاحتواء شرائع سياسية من الشرق أو الغرب، فإن العرب — من جانبهم — لا يتخلون عن مصطلحاتهم القرآنية، ولا ينسونها بمرور الزمن، ولا يستبدلون منها كلمة، ولا يضيفون إليها كلمة، مقابل أية مكافأة، أو تحت أي تهديد.

وقد مر حتى الآن، أربعة عشر قرناً على نزول القرآن، تفرق العرب خلالها بين الشرائع السياسية إلى شيعة وسنة وخوارج وشعوبيين ورأسماليين وشيوعيين، واختار كل حزب لنفسه هوية.

لكن النسخة الأولى من بطاقة الهوية الأصلية، لا تزال حية، في صياغتها الصحيحة، على شفاههم جميعاً، ولا تزال حية، في صياغتها الصحيحة، على شفاههم جميعاً، ولا تزال قادرة على جمعهم من جديد تحت إدارة واحدة، باسم صحيح واحد، في أي وقت يختارونه، وفي وجه أي مقاومة، أن البطاقة، لا تزال محفوظة، بمصطلحاتها الأصلية، داخل صدور العرب، في سورة الفاتحة.. وهي سورة القرآن[1].

➢ معان ودلالات :

الفرق بين العبد والرقيق :

الفرق بين كلمة عبد وبين كلمة رقيق أن علاقة الرقيق بسيده علاقة استعباد، والعبد علاقة عبادة.

فالرقيق ليس حراً في اختيار سيده، لأنه لا يملك حق الحرية نفسه.

أما العبادة فإن شرطها الأساسي أن تتم بالقبول وحرية الاختيار.

لهذا السبب، لا يستعمل القرآن كلمة عبد بمعنى رقيق، بل بمعنى، مخلوق كما في قوله (عبيد الله) أي مخلوقاته، وهو المعنى الأصلي لكلمة(عبد) في اللغات السامية.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص19- 21

أما استعمال كلمة عبد بمعنى (رقيق)، فهو استعمال جاهلي مترسب في لغتنا العربية منذ أن كانت لغة قبائل من الوثنيين الأميين في الجاهلية، وقد تعمد القرآن أن يصححه، بتحرير كلمة (العبد) من العبودية، وقصرها على معنى العبادة، في مصطلحات مثل (عباد الله. وعبد الله ورسوله).

﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾[فصلت/٤٦].

لأن العبد الذي لا يظلم، ليس مستعبداً أصلاً.

إن اسم عبد الله لا يعجب الشعراء المحبين للحرية، رمز من أقوى رموز المعارضة في الإسلام لنظام الإقطاع وحكم الفرد .

فالمواطن الذي اسمه عبد الله لايستعبده مواطن مثله . وإذا شاءت ظروف الإدارة أن تسمح بوقوع هذه الكارثة ، فإن اسم عبد الله ، يصبح منشوراً سياسياً معارضاً ، يوزع يومياً على جميع البيوت [1].

➢ المناسبات الإسلامية :

العيد الإسلامي

ليس احتفالاً بتعاقب الفصول، مثل بقية الأعياد.إنه لا يطابق الأشهر الشمسية، ولا يتزامن مع الحصاد والحرث، بل يدور مع القمر، لكي يقع في كل الفصول، لأنه عيد لا علاقة له بالزمن، بل بالناس الذين يجمعهم دورياً، لكي يحصوا مكاسبهم في شرع الجماعة.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص32

ويتذكروا أعداءهم الحقيقيين، ويتذكروا الجوع والحاجة، ويتعلموا درس التضحية النافع، ويلتقوا في الحج مجردين من فوارق اللون والطبقة، لبناء مجتمع الإنسان الواحد، تحت سماء ربه الواحدة.

عيد الأضحى

احتفال بشرعية التضحية، فالمواطن المسلم المسؤول عن إقرار الشرع الجماعي، مسؤول أيضاً عن حمايته، في أي وقت، مما يجعله جندياً مستديماً، معرضاً للموت في كل يوم من أيام السنة.

إن ذبح الأضحية، ليس احتفالاً بنجاة إسماعيل بن إبراهيم وحده، بل بنجاة كل مواطن مسلم على حدة، لأنهم جميعاً عرضة للموت في سبيل الله.

هذه الأضحية، يذبحها المواطن المسلم في موسم الحج.

وهو مؤتمر عالمي على مستوى الدول يختلف عن مؤتمرات المم المتحدة في نقطتين:

الأولى: إن الدول المشاركة فيه، لا يمثلها مندوبون عنها، بل يمثلها كل مواطن يرغب في حضور المؤتمر.

وهو تشريع، لو أخذت به الأمم المتحدة، لا صبحت جلسات الجمعية العمومية، فرصة لكي يعرف السياسيون، ما يجري في دولهم على الأقل.

النقطة الثانية: إن جنود الأمم المتحدة، الذين ترسلهم بين حين وآخر لحفظ السلام، جنود لا يتلقون أوامرهم من الأمم المتحدة، بل من دولهم التي تسارع إلى سحبهم، في أي وقت تشاء، أما المؤتمر العالمي في مكة، فإن جنوده يتلقون أوامرهم منه مباشرة، وهم ـــ بعد ذلك ـــ ليسوا حفنة من الجنود، بل ملايين من الفدائيين المحصنين ضد الموت نفسه، بشريعة تقول لهم نصاً: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران/169]

إن سيل الحجاج الذي يرتاد مكة سنوياً، ليس سيلاً من الحجاج فقط.

بل مواطنون، يجتمعون تحت راية دولة خفية، تدعوهم إلى اللقاء في مؤتمر عالمي ـــ مرة في السنة، فيبادرون إلى حضور الاجتماع من دون أن تجرؤ دولة أخرى على منعهم من حضوره.

فاتحة هذا الاجتماع ـــ دعاء جماعي يقول:

لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

وهو دعاء، له صيغة إدارية واحدة فقط، لا غير، هي صيغة الشرع الجماعي.

فالمسلم يلبي نداء الله، لأنه مواطن محرر من سلطة كل اله غيره، تحت مظلة الجماعة.

والمسلم يتوجه بالحمد على النعمة إلى الله، لأنه يعيش في نظام جماعي محرر من سلطة أولياء النعمة الآخرين.

والمسلم يعلن أن الملك له وحده، لأن دولته الجماعية لا تعترف بشرعية الإقطاع.

ورغم أن المسلمين خسروا هذه الدولة مبكراً، فقد اجتمعوا في مكة 1350 مرة منذ ذلك الوقت، دون أن يغيبوا سنة واحدة عن هذا الاجتماع.

عيد الهجرة:

احتفال بتأسيس دولة الشرع الجماعي في الإسلام.

وقد اختار الخليفة عمر بن الخطاب، أن يبدأ تاريخ المسلمين بالهجرة — وليس بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم أو وفاته — لأن الشرع الجماعي لا يرتبط بشخص بل برسالة، ولأن الرسالة بدأ تطبيقها عملياً بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم عليه السلام.

أن المسلم لا يحتفل برأس العام.

في مطلع السنة الهجرية، بل يحتفل بذكرى قيام دولته الشرعية، التي يعرفها في تراثه ولغته، ويعرف أنها قامت على الشورى بين الجماعة، وحفظت حق الضعيف والقوي، وجمعت بين الأديان والأجناس، وأنشأت بيت مال المسلمين، وضمنت حرية الفكر، وحق السعي، وألغت مراكز القوى، وحطمت جميع الأصنام الحية والميتة.

عيد عاشوراء:

ليس عيداً إسلامياً، بل ذكرى جماعية لموقعة كربلاء.

وهي معركة جانبية صغيرة لا شيء يدعو إلى حفظها في ذاكرة الأجيال، سوى أنها أخر معركة خاضتها جماعة من المسلمين، للدفاع عن شرع الجماعة في الإسلام.

فقد فضل الحسين بن علي، أن يموت في كربلاء، على أن يعترف بشرعية الدولة الأموية، واختار أن يقاتل في معركة ميئوس منها، تاركاً لأجيال المسلمين، أمراً مستديماً بالقتال دفاعاً عن حق الجماعة، مكتوباً بدماء حفيد رسول الله نفسه.

ولهذا السبب، لا يأكل المسلم كعكاً في عيد عاشوراء، ولا يلبس ثياباً جديدة، بل يعتريه الوجوم، حزناً على مافقده، فيما يتصاعد هذا الحزن بين المسلمين الشيعة، إلى مأتم علني، يجلد فيه المواطن ظهره بالسياط ندماً على ما فاته، في ذكرى مؤلمة، تتعمد أن تعيد طعم الألم نفسه، إلى ذاكرة الأجيال سنة بعد سنة.

عيد ميلاد الرسول محمد:

ليس عيداً إسلامياً، و لم يحتفل به الرسول ﷺ، ولا الخلفاء الراشدون، لكنه عيد قبلته الجماعة الإسلامية، لأن الرسول ﷺ عليه السلام، هو نفسه

رسول الشرع الجماعي، ولأن الاحتفال بمولده، يعني الاحتفال بمولد القائد الشرعي الوحيد، للأمة الإسلامية، في جميع الدول، وفي جميع العصور.

ورغم أن الاحتفال بالعيد النبوي، لم يمنع قيام احتفالات أخرى، بمولد قادة آخرين، فإنه أصبح شهادة جماعية، تعلن سنوياً، عدم شرعية القادة بالذات.

هذه الأعياد الخمسة، تعيش الآن جنباً إلى جنب، في كل دولة إسلامية على حدة، مع عشرات الأعياد الوطنية، من ذكرى الاستقلال لكل دولة، إلى ذكرى اعتلاء العرش، وتوقيع اتفاقية الجلاء، وبقدر ما تفرق الأعياد الوطنية بين العرب في وطنهم الواحد، فإن أعيادهم الإسلامية لا تزال تجمعهم، في مواعيد محددة سلفاً، تحت شرع واحد، وعقيدة جماعية واحدة، لكي يعلنوا هويتهم الحقيقية سنوياً، خلال لقاءات جماعية، لا يغيب عنها أحد من العرب، ولا يحب أحد أن يغيب.[1]

➢ **المجاهد:**

كلمة مجاهد تعيش في ذاكرة المواطن العربي بمعنى جندي الله الذي يتطوع للدفاع عن شرع الجماعة، بقلبه ولسانه ويده وماله.

وقد نجم عن استبدال هذا المصطلح بكلمة عسكري منذ عصر معاوية،

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر، ط 3 ،بيروت 2000م. ص200 ومابعدها

أن فقد الجندي العربي ذاكرته، ونسي مهمته في الدفاع عن شرع الجماعة، وسخر سلاحه لخدمة الإقطاع، وأحل لنفسه أن يستأثر بالسلطة، على غرار ما فعل الجندي الروماني، الذي لم يسمع أصلاً بكلمة مجاهد.[1]

➢ الحكم :

كلمة الحكم لله ترتبط في ذاكرة المواطن العربي، بمعنى الحكم الوحيد العادل.

وهو حكم له شريعة وقوانين، منها أن الناس مسؤولون شخصياً عما كسبت أيديهم، وأنهم مسؤولون دائماً، وفي جميع الأوقات.

وقد نجم عن استبدال هذا المصطلح بكلمة حكم الشعب، أن فقد المواطن العربي ذاكرته، ونسي مسؤوليته الشخصية، ونسي أنه يحصد ما زرعته يداه، وصار بوسعه أن يقرأ آيات قرآنية، مثل قوله تعالى:﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت/46]، ويهز رأسه خشوعاً، من دون أن يكتشف، أنه شخصياً، مظلوم ومستعبد.في شهادة واضحة، على مدى ما يعانيه هذا المواطن من فقدان الوعي[2].

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص32

2- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م.ص 32

➢ الجامع :

كلمة الجامع تعيش في ذاكرة المواطن العربي بمعنى بيت الله.

وهو بيت له، حرمة وقوانين، منها المجادلة بالحسنى، والتأدب في الخطاب، وخفض الصوت، وتجنب سوء الظن، والغيبة، والنميمة والتنابز بالألقاب.

أما كلمة مؤتمر فإنها لا تعني في ذاكرة المواطن العربي شيئاً له حرمة أو قانون، ولا يعرف سبباً شرعياً، يدعوه إلى حضور المؤتمر، ولا يعرف دستوره، ولا يعترف بشعاراته، وليس بوسعه أن يعتبره بديلاً من الجامع، من دون أن يلاحظ فداحة هذه الخطيئة بالذات[1].

➢ إسلام :

كلمة إسلام في لغة القرآن، لا تشير إلى دين واحد، بل إلى جميع الأديان منذ مولدها في فجر الحضارة.

فالنبي صلى الله عليه وسلم نوح ــ وهو أول نبي يرد اسمه في كتاب العهد القديم ــ يقول﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس/٧٢].

والنبي صلى الله عليه وسلم إبراهيم ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرَانِيّاً ولَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً ومَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران/٦٧] .

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص32

ويعقوب يقول لبنيه موصياً ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة ١٣٢].

وموسى يقول: ﴿وقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس/٨٤].

والحواريون يقولون للسيد المسيح ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ واشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران/٥٢].

واليهود والنصارى يشهدون على أنفسهم حين سمعوا القرآن قالوا ﴿آمَنَّا بِهِ إنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّنَا إنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص/٥٣].

والمجتمع الإسلامي في لغة القرآن، لا يحتوي طائفة واحدة، بل يحتوي طوائف كثيرة منها ﴿إنَّ الَذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والنَّصَارَى والصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً﴾[البقرة/٦٢].

وهي قضية حسمت بنص قرآني، عندما بدأ الجدل بين الطوائف في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه عليه السلام.

قال ابن كثير في تفسيره، عن ابن عباس: (... فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء.

وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام.

وكتابنا نسخ كل كتاب.

ونبينا خاتم النبين صلى الله عليه وعليهم وسلم.

وأمركم وأمرنا، أن نؤمن بكتابكم، ونعمل بكتابنا.

فقضى الله بينهم، ونزلت الآية ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ولا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وليّاً ولانَصِيراً﴾[النساء/ ١٢٣].

فالإسلام ليس ديناً إضافياً بل نظام إداري موجة لاحتواء الأديان في دولة غير دينية، تقوم على استفتاء المواطنين بشأن جميع القوانين والقرارات الهامة، لكي تضمن حق الأغلبية في الإشراف على أداة الحكم.

وقد اتفقت جميع نظريات الحكم في الإسلام على أن (الأمة) هي مصدر السلطات، وأن مراقبة جهاز الإدارة فرض عين — وليس فرض كفاية — بمعنى أنه واجب يلتزم بأدائه كل مواطن شخصياً.

الخلل الذي طرأ على هذا النظام الديمقراطي، أن كلمة (الأمة) تعرضت لتغيير جوهري في زمن مبكراً جداً.

ففي عصر معاوية، تم إلغاء نظام الشورى في الجوامع، بعد أن اعتمد الخليفة مبدأ الحكم الو راثي.

وبذلك فقدت الأمة وظيفتها في تسيير الإدارة، وتفرقت إلى طوائف لا تجمعها سوى إدارة الخليفة، وخسر الإسلام رسالته العالمية، وأصبح مجرد هوية خاصة لدولة الأمويين.

تحت هذه الظروف الصعبة، ظهر الفقه الإسلامي، واضطر الفقهاء إلى تمرير متطلبات الواقع السياسي تحت قناع الدين.

فعمدوا إلى تغييب حوار يوم الجمعة وراء خطب الوعظ.

وعملوا على التفرقة بين الأديان بتشريعات منها اعتبار بقية الطوائف من المشركين، وتحريم زواج المسلمة منهم، وحرمانهم من ميراث المسلم، وتحديد كلمة ((مسلم)) بمعنى ((محمدي)) في مخالفة صريحة لنص القرآن نفسه.

كما أفتى الفقهاء ــ ما عدا الأحناف ــ بعدم جواز قتل المسلم بالذمي.

أكثر من ذلك، ابتكر الفقه ما يدعى بعلم السنة، واعتبر الحديث مصدراً للتشريع، مما نجم عنه أن ارتباط الإسلام ببيئة القرن السابع في الجزيرة العربية، فلم يعد تشريعاً جماعياً حياً قابلاً للتطبيق في كل زمان ومكان، بل أصبح مجرد عقيدة محلية أخرى، تضاف إلى بقية العقائد، وتقوم على خمس قواعد شكلية ــ خاصة بالفرد وليس بالأمة ــ هي الشهادة والصلاة والصوم والزكاة والحج في انقلاب فقهي مدير ضد قاعدة الشورى بالذات.[1]

➢ **الدين :**

ــ الدين اسمه دين ــ وليس سياسة ــ لأنه ملتزم بقضية صعبة، ومعقدة، وغير سياسية، وغير خالية من الأخطار، وهي قضية الدفاع عن

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م.ص 44

(حقوق المستضعفين). من دون هذا الالتزام، لا يتغير شيء في قانون الغابة القائل بأن البقاء للأقوى، ولا يعرف أحد، ماذا يفعل بالدين، سوى أن يسخره لخدمة ملوك الغابة نفسها[1].

➢ الدفاع عن المستضعفين :

ـــ إن الدفاع عن المستضعفين في لغة الإسلام، ليس دفاعاً عن العمال والفلاحين، بل عن الأسرة الإنسانية نفسها، التي لا تتكون من أصحاب رأس المال والعمال فقط، بل تتكون من أطفال ومراهقين ونساء وعجائز، يعيشون على كوكب صغير، يجب حمايته من التلوث.

في صحبة حيوانات، يجب حمايتها من الانقراض.

إنه ليس هجوماً مسلحاً بالسيوف، بل هو نظام إداري قائم على تحدي منطق القوة، بالقلب واللسان واليد ـــ لتحرير جنة الناس من قانون الغابة[2].

➢ الفقه :

علم، موقعه من الشريعة، مثل موقع النحو من اللغة، يستطيع أن يصحح الكلام، لكنه لا يستطيع أن يتكلم نيابة عن الناس أنفسهم، أو يختار لهم نائباً يتكلم بدلاً منهم.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص61

2- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص62

ومنذ أن ارتكب الفقهاء هذه الغلطة، وسمحوا لأنفسهم أن يبرروا إقصاء الجماعة عن الإدارة، بموجب نظرية فقهية عن الخلافة في قريش، كان الفقه الإسلامي، يتكلم نيابة عن المسلمين، وكان المسلمون أنفسهم، قد خسروا كل قدرة على النطق.

لهذا السبب، لم تلتزم الإدارة الإسلامية، بتطبيق مبادىء الإسلام، ولم تنجح في احتواء الطوائف، أو إنهاء عصر الاسترقاق، أو منع تشغيل الأطفال، أو اكتشاف الضمان الاجتماعي، وحق العمل والتعليم.

لقد كان على المسلمين أن ينتظروا ساكتين، من عصر معاوية، إلى عصر المماليك، لكي يسمعوا عن هذه الحقوق.

وعندما سمعوا عنها أخيراً، كان المماليك، يركضون هاربين أمام نابليون، وكان المسلمون أنفسهم يلجأون إلى الفقهاء العزل في المساجد طلباً للنجاة من سيوف الفرنسيين.

أنها كارثة تحل بالناس تلقائياً، عندما يفقدون القدرة على النطق، ويكتفون في ما بينهم بلغة خرساء[1].

➢ **السلام :**

أداة إشارة إلى واقع ملموس في أرض الواقع.

إنها ليست ستة حروف، بل عمال وأطفال ونساء ومراهقون وعجائز، ينعمون بالسلام في مجتمع محرر من الفقر والخوف والمرض.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص67

وإذا اختار الناس، أن يستبدلوا الحروف بمعناها، ويكتفوا بترديد كلمة السلام عليكم للتحية في ما بينهم، فإن ذلك عقابه طبعاً، أن تزداد التحيات كلمة، ويخسر الناس نعمة السلام.

➢ المسلم:

أداة إشارة إلى مواطن مسلم في أرض الواقع، صفته الأولى أنه لا يعيش في غابة، بل في جنة، لأنه مواطن في مجتمع محرر من سلطة الأقوياء.

وإذا اكتشف أحد ما، تعريفاً آخر للإسلام، وتعلم المواطن أن يعيش مسلماً خاشعاً في غابة، فإن اللغة تكسب تعريفاً فقهياً، لكن الناس يخسرون الجنة.

➢ الرحمة:

أداة إشارة إلى قوانين رحيمة في واقع الناس، لا تهضم حق العامل أو الطفل أو المراهق أو المرأة والعجوز.

وإذا اختار الناس، أن يقبلوا الكلمة بديلاً من معناها، تذهب الرحمة إلى الموتى، ولا أحد يرحم الأحياء.

ومثلاً: كلمة القرآن أداة إشارة إلى شرع جماعي، مسؤولة أمامه كل الجماعة.

إنه ليس كتاباً للمطالعة، بل دستور للتطبيق العملي في جهاز الإدارة.

وإذا اختار الناس، أن يصبح القرآن، هو كلمات القرآن، وليس شرعه الجماعي، يزداد عدد الكتب المقدسة واحداً.

ويتاجر المشعوذون بآيات الله في التعاويذ لشفاء المرضى، من دون أن يشفى ــ بعون الله ــ مريض واحد.

➢ الديمقراطية:

أداة إشارة إلى نظام رأسمالي، يحفظ توازنه، بتوزيع السلطة بين العمال، وأصحاب رأس المال.

إنها ليست كلمة أوروبية، بل شركات أوروبية، ورؤوس أموال عاملة في الخارج، واتحادات عمالية منظمة، وإذا اكتشفت السياسة في وطن فقير مثل الوطن العربي، ديمقراطية أخرى، من دون عمال ولا رأس مال، وذهب العرب طائعين وراء هذه الخدعة، فإن الديمقراطية لا تتحقق في أرض الواقع، لكن العرب يتورطون في كلمة أجنبية، صعبة النطق.

➢ وطن :

أداة إشارة إلى أرض آمنة، محررة من الخوف والحاجة، إنها ليست تراب الوطن، بل دستوره الشرعي، وإذا شاءت وسائل الإعلام، أن تغيب هذه الحقيقة عن واقع الناس، فإن ذلك يخلق إعلاميا وطنياً عالي الصوت، لكنه لا يخلق الوطن نفسه.

إن الكلمة التي تصبح بديلاً من معناها، تصبح مجرد فكرة تائهة في الفراغ، وتدخل تلقائياً في باب التيه، المدعو باسم الايدولوجية.

فهذا المصطلح المغترب في لغتنا، جاء للتعبير عن واقع غريب حقاً:

إنه لا يعني العقيدة، لأنه لا يشترط التطبيق العملي، بل يشترط أداء

الطقوس، ويقوم على افتراض مؤداه، أن الكلمة هي الفعل نفسه، وأن الأفكار تعيش في اللغة، وليس في واقع الناس.

فاليهود هم شعب الله المختار، لأن لغتهم العبرية، تقول أنهم كذلك، وليس لأن سلوكهم اليومي، له علاقة بحب الله.

وبهذه المغالطة المميتة، تستطيع الإيديولوجية أن تعيش في لغة الجماعة، من دون أن تلمس واقعها، وأن تكون أفكاراً مضيئة، في وطن مظلم، وبديلاً من الأمان، في وطن خائف، وبديلاً من العدل في وطن مقهور، أن الإيديولوجية تستطيع أن تتكلم، بينما جميع الناس ساكتون.

وذلك للأسف، ما حدث للإسلام في غياب شرعه الجماعي.

لم يسكت صوت القرآن.

و لم يكف الناس عن الصلاة والصوم والحج وإيتاء الزكاة.

لم تغب شعائر الإسلام، لكن الإسلام نفسه، أصبح إيديولوجية، تعيش في لغة الناس، ليس في واقعهم وهي محنة ثقافية قاسية، علامتها أن يتورط المواطن في لغة بديلة من لغة الواقع، كما يبدو العكاز بديلاً من القمر.

إن مصطلحات الشرع الإسلامي، تعايش هذه المحنة، منذ عصر معاوية.

فقد تسبب غياب الإدارة الجماعية، بعزل الدين عن الدنيا وأطلق يد السياسيين في تبرير هذه المخالفة، تبريراً فقهياً مؤداه، أن الدنيا نفسها،

ليست نهاية المطاف، وأن المسلم الذي يخسر حقه في هذه الدنيا ((يعوضه)) الله منه في حياة ثانية أخرى، وهو تفسير يريد أن يبدو إسلاميا، لكنه في الواقع، ليس إسلامياً جداً.

➢ الحياة والممات في الإسلام:

الإسلام لا ((يعوض)) الناس من خسائرهم، بل يحاسبهم بقدر ما قدمت أيديهم، إنه لا يضمن الجنة لاتباعه، بل يضمن لهم أن يحصدوا ما زرعوه، وهو طرح جديد، وطارىء على تاريخ الأديان، مثل دستور الحكم الجماعي نفسه.

فحتى القرن السابع، كانت فكرة الحياة بعد الموت، سلاحاً في يد المؤسسات الدينية، تسخره للدفاع عن نصيبها في الإدارة،باعتبارها سلطة ((غير دنيوية)).

وقد عمد اليهود الفرنسيون إلى استغلال هذا السلاح في تكفير خصومهم السديوسيين، وحرمانهم من البعث في حياة أخرى، فيما طوره قداسة البابا في وقت لا حق، وانشغل ببيع صكوك الغفران لمن يشتري مكاناً في الجنة.

كانت الحياة الأخرى، فكرة تضمن للمؤسسة الدينية، سلطة دستورية في هذه الحياة الدنيا، وكانت كل الطرق إليها، تمر رسمياً من خلال المؤسسة.

وطوال الفترة الواقعة بين عصر سومر، في الألف الثالثة قبل الميلاد، وبين ظهور الإسلام، كان رجال الدين قد طوروا فكرة الحياة بعد الموت، إلى صناعة كهنوتية على درجة عالية من التخصص والتعقيد، وكانت لغة السحرة، قد ألغت لغة الدين، ونجحت في إقرار حلول سحرية بحتة، للمشاكل المميتة في واقع، الناس، من علاج المرضى بالتعاويذ، إلى استغلال شقاء المواطنين، بحضهم على ضمان تعويضهم بعد الموت، عن طريق القرابين، وأداء الطقوس، والاعتراف للكاهن.

لم يكن المواطن مسؤولاً عن مصيره، في هذه الحياة، أو في الحياة الأخرى، بل كان مصيره، يتقرر تلقائياً في يوم مولده، فالإقطاعيون يولدون في الأسر الإقطاعية، والفقراء يولدون في الأسر الفقيرة. والمختارون يولدون في شعب الله المختار.

والموعودون بالجنة، يولدون في كنيسة مخصصة لغفران الذنوب.

وإذا كان البروتستانت، قد عادوا فأصلحوا هذا الانحراف، في جهاز الكنيسة، فإن ذلك تم في وقت متأخر حقاً، بعد أحقاب طويلة قضاها الأوروبيون في تلقي المغفرة من القسس، أملاً في الصعود إلى مملكة في السماء، تعويضهم من ضياع مملكتهم على الأرض.

وهي أحقاب امتدت في ظلام العصور الوسطى، منذ إنشاء الكنيسة خلال القرن السادس، إلى عصر مارتن لوثر في القرن السادس عشر.

إن الإسلام، أصلح هذا الانحراف، قبل أن يولد مارتن لوثر بزمن قدره ٧٩٣ سنة فقط.

لم يقبل الإسلام نظرية الشفاعة.

لم يخول المؤسسة الدينية سلطة غفران الذنوب.

لم يعترف أساساً ـــ بما يدعى رجال الدين.

لقد جعل الحياة الأخرى، مثل هذه الحياة الدنيا، مسؤولية في أيدي الناس أنفسهم، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾ [الزلزلة/ ٧و٨].

سواء في حياته أو بعد مماته.

بغض النظر عن لونه وعقيدته وبغض النظر عما يقوله رجال الدين.

إن الإسلام يطرح قضية الحياة بعد الموت، من منظور يختلف عن منظور المؤسسة الدينية، في ثلاث قواعد جديدة على تاريخ الدين:

الأولى: إن الحياة بعد الموت، ليست تعويضاً مما خسره الناس في هذه الحياة.

لأن الجنة ليست للفقراء، بل للصالحين.

والثانية: إن عمل الإنسان ـــ وليس ما يقوله أو يقرأه ـــ هو الذي يقرر، أين يريد الإنسان أن يذهب، سواء في هذه الحياة، أو في الحياة الأخرى.

والثالثة: إن عالم ما بعد الموت، اسمه في الإسلام عالم الغيب، الذي لا يعرفه أحد.

ولا يجوز لأحد أ يدعي معرفته، سواء باسم العلم، أو باسم الدين[1].

➢ **ثقافة معاصرة :**

ظهرت في لغتنا، ثقافة جديدة، تسمي نفسها رسمياً ثقافة معاصرة.

وهي تسمية تورطت مقدماً في غلطتين، تدلان على نقص مميت في الثقافة:

الغلطة الأولى: إن مصطلح الثقافة العصرية culture modern يشير إلى عصر جديد فعلاً في الغرب، لأنه تميز، بإنهاء عصر الإقطاع، وسلطة المؤسسة الدينية معاً.

وهو عصر لم يدخله الوطن العربي حتى الآن.

الغلطة الثانية: إن الثقافة العصرية في الغرب، ولدت من العدم، لأنها لم تكن تملك جذوراً للديمقراطية الرأسمالية في لغاتها اللاتينية والجرمانية.

أما في اللغة العربية، التي تربط عضوياً بنص القرآن، فإن مصطلح الثقافة العصرية، لا يفصل ثقافتنا بين عصرين، بل بين جبهتين، تتقاتلان في عصر واحد، بلغة واحدة.

باسم هذه الثقافة العربية المعاصرة، كان علينا أن نسلم مقدماً، بأننا أمة من الأميين، تحتاج إلى إعادة تأهيلها بمناهج أوروبية حديثة، وهي مغالطة، قاسية، وغير ضرورية، وباهظة التكاليف.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م.ص 81

فالمسلم ــ صاحب الكتاب ــ ليس مواطناً أمياً حقاً، كما اعتقد نابليون.

إنه يختلف عن المواطن الأوروبي الذي لم يمتلك وسيلة لقراءة الإنجيل، حتى نهاية القرن الرابع عشر على الأقل، وبعد أن امتلك نسخة مترجمة من الإنجيل، لم يجد فيه ثمة ما يتعلمه سوى الوصايا العشر، وكثير من الأساطير.

المواطن المسلم، في الجانب الآخر، مواطن يعرف القراءة، حتى إذا كان لا يعرفها، لأنه ملزم بالصلاة التي يتلو خلالها آيات القرآن، خمس مرات في اليوم، كل يوم في الأسبوع.

إنه يتلقى دروساً لا تنقطع، في شتى مجالات المعرفة، ويتلقاها مطمئناً، وقلبه مفتوح للعلم.

والواقع أن نزول القرآن نفسه، كان قد وضع نهاية (للجاهلية) منذ القرن السابع، وختم عصر العرب الأميين، بعرب يقرأون الكتاب يومياً، ويعرفون كل ما اكتشفه الأوروبيون في وقت لاحق، من مراعاة نظافة الجسد واللسان، إلى وجوب القتال المسلح، لإنهاء سلطة الإقطاع.

لم يكن المسلم مواطنا أمياً، كما افترضت ثقافتنا المعاصرة، ولم يكن من الثقافة في شيء، أن يزاح هذا المواطن جانباً، باعتباره رجلاً متخلفاً لا يمثل هوية العصر، وأن يورط ((المثقفون))أنفسهم في البحث عن هوية من العدم.

لقد كان ذلك، خطأ جسمياً، عقابه الجسيم، أن يمتلك العرب فجأة، ثقافتين بدلاً من واحدة:

الأولى: ثقافة المواطن المسلم نفسه، الذي يستمد هويته من القرآن، ويرفض مقدماً كل هوية مختلفة أخرى.

والثانية: ثقافة المثقف المسلم، الذي تعلم في مدارس أوروبية، أن يترك الدين لرجال الدين، ويصبح ((مفكراً)) أوروبياً معرباً، يقف خارج تاريخية وواقعة، عمداً، ومع سبق الإصرار.

هذا المثقف ((المعاصر))، كان يتكلم في الواقع لغة عمرها أربعة عشر قرناً، وكان معلمه الأوروبي يتكلم لغة عمرها أربعة قرون فقط، لكنه اختار أن يقلب الأدوار، ويتنكر في زي تلميذ، يحضر درس التاريخ، لأول مرة في التاريخ.

فعصر النهضة في ثقافتنا العربية المعاصرة، ليس هو عصر الإدارة الجماعية الذي أنهاه معاوية في القرن السابع، بل هو عصر الغارة الأوروبية على قارات المحيط الذي بدأ في القرن الخامس عشر.

والعصور المظلمة في ثقافتنا العربية المعاصرة ليست هي العصور القاسية التي عاشها المواطن المسلم منذ إبطال الشرع الجماعي على يد معاوية حتى الآن، بل هي العصور الوسطى التي عاشها المواطن الأوروبي بين سقوط الإمبراطورية الرومانية، وبين الغارة الناجحة على قارات المحيط.

والمذهب الإنساني في ثقافتنا العربية المعاصرة، ليس هو مذهب الجماعة

في الإسلام، بل هو فلسفة رجل أوروبي اسمه اسبينوزا، تطورت على يد رجل أوروبي آخر اسمه كارل ماركس، إلى تفسير (جديد) للتاريخ.

والمساواة بين الأديان في ثقافتنا العربية المعاصرة، ليست هي ثورة الإسلام، على رجال الدين في القرن السابع، بل هي ثورة راهب أوغسطيني اسمه مارتن لوثر في القرن السادس عشر، ضد سلطة رجل إيطالي اسمه البابا ليون العاشر.

وإنكار الشفاعة والنيابة وغفران الذنوب في ثقافتنا العربية المعاصرة، ليست بنوداً أساسية في شرع الإسلام منذ القرن السابع، بل أفكار بروتستانتية معاصرة، نبعت من حاجة الأوروبيين إلى وضع نهاية لفساد البابا، الذي استغل مبدأ الشفاعة، وشرع يبيع صكوك الغفران للقتلة وقطاع الطرق.

والتاريخ المعاصر في ثقافتنا العربية المعاصرة، ليس هو تاريخ الإدارة الجماعية، الذي لم يدخله العرب حتى الآن، بل هو التاريخ الذي دخله الأوروبيون من أوسع أبوابه، باستيطان أربع قارات، واحتلال جميع الجزر، وممرات التجارة الدولية.

إن ثقافتنا المعربة، تتكلم لغة عمرها أربعة عشر قرناً، لكن التاريخ لا يبدأ بالنسبة لها، إلا منذ أربعة قرون فقط.

وفي ثقافة تنكر واقعها إلى هذا الحد، يولد مثقف معرب، مهمته الصعبة أن يتجاهل واقعه إلى الأبد:

مثقف مسلم، لكنه لا يعرف شرع الإسلام الجماعي، ولا يعرف نظاماً إدارياً له علاقة بالدين.

مثقف تقدمي، لكنه لا يضيق بسلطة الإقطاع، في مجتمع يحكمه طاغية من طراز فرعون.

إنه رجل واقعي دائماً، مثل معلمه جان جاك روسو، الذي كان يعد كتابه عن (العقد الاجتماعي) في النهار، ويقضي السهرة في صالون امرأة إقطاعية من طراز ماري تيريز جو فران.

مثقف إنساني المذهب، لكن مذهبه مفصل سلفاً على مقاس معلمه الرأسمالي، إنه لا يدين الرأسمالية المسؤولة عن إبادة سكان ثلاث قارات، وتهديد الباقي بالإبادة في أي وقت.

بل يدين الشيوعية عدوة الشعوب والإسلام، من دون أن يتذكر أن ((الشيوعية)) بالذات، مجرد ستار حديدي خانق، ضربته ملايين الفقراء حول نفسها، تحت وطأة التهديد بالإبادة.

وقد التقى الرأي، في ثقافتنا العربية المعاصرة، على اعتبار الشيوعية (إخطبوطاً).

أما الإقطاع الذي يلف أذرعه حول عنق ثقافتنا المعاصرة، فإنه لا يزال حتى الآن وحشاً مميتاً من دون اسم.

مثقف عالمي الهوية، لكن عالميته لا تعلمه أن يحترم تراثه، بل أن يقضي

عليه، كما فعل مصطفى أتاتورك، الذي نقل تركيا إلى العصر الحديث، بمنع الأتراك من لبس العمامة.

إنه رجل أوروبي معرب، يفترض سلفاً أن (التقدم) هو أن يصبح واقع العرب نسخة عن واقع الأوروبيين، وليس أن يكون للعرب، نسخة عربية تخصهم.

إن مفكراً تقدمياً، مثل طه حسين، ((ينبذ الجبة والعمامة)) وينطلق قاصداً باريس ((التي فتنته حتى فتن بها)).ويعود مفتوناً بالفعل فيورط نفسه في دراسة ((علمية)) مؤداها أن نص القرآن نفسه، قد يكون نصاً مشكوكاً في أصالته، من دون أن يفسر هذا ((المثقف)) المسلم سبب حاجته إلى تمرير مثل هذه الفكرة المستوردة التي لا طائل من ورائها سوى هدم الجسر الوحيد القادر على ربط المسلمين بمبدأ الشرع الجماعي.

وبعد ذلك، يتصدى له الرافعي.

وهو مثقف آخر، لكنه يمثل ثقافة قديمة، تعيش حية في العصر نفسه.

ويتهم طه حسين بالتجني على الإسلام، ويلعنه، ويتهمه بالكفر، من دون أن يتذكر ـــ ولو لمرة واحدة ليس غير ـــ أن الإسلام جنى عليه غياب لإدارة الجماعية، وأن الملك فؤاد، الذي يستعد الإنكليز لتنصيبه خليفة للمسلمين، هو الجاني الوحيد المميت، بين فقهاء عزل، يتبادلون الاتهامات في الشارع.

إن ثقافتنا تنقسم على نفسها بين جبهتين:

جبهة يقاتل عليها، مثقف عربي مفتون بما حققه رأس المال في غرب أوروبا، ولا يهمه بعد ذلك، أن العرب أنفسهم، لا يقعون في غرب أوروبا، ولم يرتادوا المحيط، ولم يشاركوا في استعمار قاراته، وليس لديهم ما يكفي من رأس المال، لردع نظم الإقطاع البدائي الذي يشكو منه.

وجبهة أخرى، يقاتل عليها، مثقف عربي، يعيش في عصر الصليبيين، ويعتبر كل ما يصدر عن الأوروبيين، عدواناً صليبياً على الإسلام.

ولا يهمه بعد ذلك، أن المسلمين أنفسهم، ليسوا مسلمين جداً، وأن غياب الشرع الجماعي من دستور الإسلام، يضطرهم إلى النقل حرفياً من شرع الصليبيين.

إننا نملك ثقافتين بدلاً من واحدة، لكن ذلك لا يجعلنا في صفوف المثقفين.

فالفكر العصري الحر، الذي نترجمه عن الغرب، لا يصبح عصرياً ولا حراً، في وطننا الذي يعيش تحت إدارة إقطاعية، عمرها أقدم من عمر الأهرام.

إنه لا يسمى ثقافة، بل بديلاً وهمياً من الثقافة.

والفكر الحر، الذي نتعلمه من القرآن، لا تحترم الإدارة الإقطاعية قدسيته، ولا تخضع لشرعه الجماعي إنه بدوره ليس (ثقافة إسلامية) بل (بديل فقهي من الإسلام).

وبين هاتين الجبهتين، يعيش الآن مواطن مسلم معاصر، علامته الفارقة،

أنه دائماً يملك كلمتين للتعبير عن فكرة واحدة، لكن ذلك لا يجعله مواطناً فصيحاً على أي حال.

فمثلاً: نظام الشرع الجماعي، له مصطلحان رسميان، في ثقافتنا المعاصرة، أحدهما الديمقراطية والثاني الشورى.

لكننا لا نملك الشرع الجماعي نفسه، ولا نعرف طريقاً جماعياً إليه.

ومثلاً: المواطن المسلم، له تعريفان في ثقافتنا الحالية، كلاهما يعني أنه حر ومسؤول، الأول عبد الله والثاني حضرة الناخب، لكن المواطن المسلم شخصياً، ليس حراً، وليس مسؤولاً، إلا بقدر ما تطول عصاه.

ومثلاً: إقرار العدل، له تعريفان في ثقافتنا المعاصرة.

الأول تطبيق الشريعة والثاني تطبيق القانون لكن العدل نفسه غائب عن واقعنا غياباً ظاهراً لا عزاء فيه.

ومثلاً: الضمان الاجتماعي، له مصدران في ثقافتنا العربية المعاصرة، أحدهما فريضة الجهاد التي تشمل الجهاد باليد واللسان.

والثاني حق الاختيار الذي يقوم عليه نظام الانتخابات، لكن حرية الرأي نفسها، لا يكلفها قانون واحد، في وطننا بأسره.

ومثلاً: حرية التنقل، لها ضمانتان في ثقافتنا المعاصرة، أحداهما حق السعي في أرض الله والثانية حق الكسب الحر الذي تضمنه حرية رأس المال، لكن مواطننا لا يتحرك من مكان إلى آخر، إلا بجواز سفر، وكثير من التأشيرات.

ومثلاً: حق المواطن في حمل السلاح، له مصدران في ثقافتنا المعاصرة.

أحدهما فريضة الجهاد في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

والثاني حق حماية الملكية الخاصة.

لكن مواطننا لم يحمل سلاحاً في يده للدفاع عن حق واحد من حقوقه منذ عصر معاوية.

إن ثقافة لها لسانان، لا تساوي في الواقع ثقافة لها لسان واحد، ولا تقول شيئاً محدداً يستحق القول، ولا تعيش واقع الناس، ولا تستطيع أن تغيره، ولا تتكلم حقاً، ولا تكف عن الكلام.

وهو الواقع الذي يخاطب العرب يومياً، في صحفهم العربية بالذات[1].

➢ التفريق بين الديمقراطية والشورى :

إذا اجتمع خمسة محتالين في المحطة، واقترح أحدهم أن يبيعوا القطار للعمدة، وتم قبول الاقتراح، بعد مناقشته، بأغلبية الأصوات، وقبل العمدة طائعاً أن يشتري لنفسه قطاراً، فإن ذلك اسمه ديمقراطية، لكنه ليس اسمه شورى، لأن المصطلح الأوروبي مستمد من دستور رأسمالي لا يحمي المغفلين. قبل سواهم.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء -، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م.ص 172

فماذا يحدث عندما تخلط ثقافة ما بين هذين المصطلحين، كما فعلت ـــ مثلاً ـــ ثقافتنا العربية المعاصرة؟

في بلد رأسمالي، لا يحدث ما يثير الفزع، لأن رأس المال، قوة قادرة في حد ذاتها، على ضمان بعض العدل، بتحرير الإدارة من سلطة الإقطاع، وتوزيع السلطة بين المؤسسات، مما يضمن بالتالي، حرية القضاء، وحرية النشر والإعلان.

وهو دستور، ربما لا يستطيع أن يحمي جميع المواطنين، لكنه ـــ على الأقل ـــ يستطيع أن يحمي بعضهم[1].

➢ ـــ الجهل :

مشكلة (الجهل)، أنه في الواقع نوع من (العلم)، يستند دائماً إلى نوع من العقل، ويقوم أيضاً على نوع من (المنطق).

إنه ليس ظاهرة بريئة، تنجم عن نقص في حجم المعلومات، بل ظاهرة مسؤولة، تنطلق من معرفة يقينية، وتتميز بالقدرة على تسخير جميع أنواع الأسلحة، لفرض حلولها بنجاح في معركة لها هدف صاعق واحد، هو أن ينتصر الباطل على الحق بأي وسيلة، وبأي ثمن.

لهذا السبب يلزم التمييز الواضح، بين معنى الجهل ومعنى الأمية.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م.ص 145

فالرجل الجاهل ليس رجلاً محايداً، تنقصه المعلومات المطلوبة، بسبب عجزه عن القراءة.

بل هو في الأساس رجل ((متعلم))، واسع الاطلاع، منحاز إلى ((الحق)) واثق من أقواله، صفته الظاهرة، أنه يملك إجابة نهائية عن كل سؤال، لأن معلوماته مستمدة ـــ في رأيه ـــ من مصدر علوي غير قابل للخطأ.

العلامة الأولى في منهج هذا الرجل، أنه بشر له لسان إله، فهو لا يقول شيئاً من عنده، ولا يتكلم بلغة الناس، بل يردد ـــ فقط ـــ ما سمعه من الرب ((العليم)) شخصياً.

وفي العادة، يكون الرب مجرد بوق أجوف لصوت الرجل الجاهل نفسه، لكنه أحياناً، يكون معلماً ذائع الصيت، له لقب يبعث على الرهبة مثل الأستاذ الدكتور، أو حضرة الإمام، أو آية الله بشحمها ولحمها.

في مواجهة رجل رباني من هذا النوع، يفقد المنطق هدفه ومعناه، ويدخل الحوار في باب الجزيمة، وتمتلك الأفكار سلطة بوليسية، حتى تصبح كل فكرة على حدة، مجرد شرطي في بذلة الشغل، يجوب الشوارع حاملاً عصاه، حفظ الأمن والعلم معاً.

إن ثقافتنا العربية، تعايش هذه الظاهرة الصعبة، من دون أمل في رحمة الله.[1]

1- الإسلام في الأسر ، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م.ص164

➢ كلمات متقاطعة :

- حزن: موزعة.

ـــ اسم راعٍ عربي معاصر، قطيعه مكون من تيس واحد، والباقي حريم: كلمة تقال لمن يملك رقبة من دون رأس. فإذا أضفت إليها حرفاً، تحصل على كلمة (زجاجة)، وإذا أنقصت منها حرفاً، تحصل على حكاية مؤداها، أن الحاج الزروق، سمع بأن الملكة تستحم بالحليب، فقال لمن حوله مبدياً شكوكه: (كيف تدخل صاحبه الجلالة في الزجاجة؟).

ـــ مواهب: صداع في الرجل. كلمة تقال لمن يتكلم كل اللغات. فإذا قرأها صحيحة تحصل على كلمة (صدى). وإذا قرأها مقلوبة، تحصل على حكاية مؤداها أن الحاج الزروق جاء لاستخراج شهادة ميلاد، فطلب منه الموظف بطاقته الشخصية، وعنوانه، وبصماته، وشهادة خلو من السوابق، وبضع شهادات أخرى. فأحضرها جميعاً، ومعها زجاجة، قائلاً للموظف: (لعلكم ترغبون في فحص البول).

ـــ روتين: حكومة في محل نصب.

- فعل مبني للمجهول، إذا دخلت عليه لا الناهية يصبح حكمة واحدة، أخيرة، نهائية، حاسمة: محزنة مؤداها، (لا يكون القانون نافذ المفعول، حتى يصبح المواطن فاعلاً). ليس مجرد ظل. ليس مجرد رقم.

ـــ كلمة تقال لمن يملك أسناناً لكنه لا يأكل. فإذا نظرت إليه جيداً،

تجد أنه مجرد مشط. وإذا أدرت له ظهرك، يعوضك الله خيراً، وتحصل على حكاية مؤداها أن الحاج الزروق رأى جنازة تخرج من بيت جاره، فزاره معزياً، وسأله في لهفة: (من الذي مات؟ أنت أم أخوك؟).

ــ سواء: كلنا إخوة: كلنا موتى في وطن واحد.

ــ عرب من دون عين. إذا قرأتها موزعة تحصل على كلمة (مساكين). وإذا قرأتها مقلوبة، تحصل على حكاية الحاج الزروق الذي وجد ولده يطالع قصة ((الفأر الفصيح))، فقال له ناصحاً: ((يا ولدي، الفئران لا تتكلم. وإذا قال لك فأر إنه يتكلم، فهو كذاب)).

ــ مطيع كالظل: ساكت.

ــ مواطن سيىء الحظ، إذا ابتلع ديناراً، يتقيأ فلساً.

ــ مواطن مريض من دون رجاء، قيل إنه سأل الطبيب: (هل تعتقد أنني سأعيش ياسيدي؟).

فقال له الطبيب: (نعم.لكني لا أنصحك بذلك).

ليس ثمة فائدة: ليس ثمة أمل.

ــ مثل تضربه لمن يتكاثر من دون أن يكثر. فإذا حذفت منه حرفاً، تحصل على جملة (الحمد لله)، وإذا حذفت حرفين، تحصل على حكاية الحاج الزروق، الذي قال ذات مرة، بعد تفكير طويل: (الحمد لله أنني لم أولد في فرنسا لأنني لا أعرف كلمة فرنسية واحدة).

ـ نعمة: حكمة مؤداها: (ما دمت لا تملك سوى لسان واحد، فلا تتركه يفلت أبداً).

ـ صديق مخلص تشتريه بنقودك، لكنه ليس (كلباً)، بل صاحب جورنال.

ـ فعل ماض ناقص من حرفين، أولهما ياء النداء، والثاني منادى، له أذن من طين، كما في قولك مثلاً (لم تسمع الجرة صرخة العطشان).

ـ لن يسمعنا أحد: لن يبالوا بنا.

ـ كلمة تقال لمن يأخذ بالنصيحة، قبل أن تدخل في حيز الإنذار.

فإذا قرأتها موزعة، يمنحك الله الصبر والسلوان. وإذا قرأتها صحيحة، تعرف ما عناه الحاج الزروق الذي قال ذات مرة من باب التأمل: (لسان الكلب هو ذيله، وذيل الملك هو لسانه).

ـ لا تنصت.

ـ لا تلتفت.

ـ لا تتردد.

ـ دعه يحكي. افعل كما فعل الحاج الزروق الذي جاء ضاحكاً إلى المقهى، وهو يقول: (استمعت كثيراً بخطاب الملك لأنني لم أسمعه).

ـ كلمة من دون حروف. إذا نظرت إليها مرة، تجد أنها مجرد (ابتسامة). وإذا نظرت إليها مرتين، ترى الباطن في بطن الظاهر، وتحصل على حكاية

مؤداها أن الحاج الزروق سأله أصدقاؤه عما إذا كان سنوي أن يرشح نفسه للبرلمان، فقال لهم حائراً دماغي يقول لا. وقلبي يقول نعم. وما زلت في انتظار ما يقوله...).

ــ انتظر: اعط نفسك وقتاً.

ــ شائعة مؤداها أن الملك فقد شعبيته حتى إن ظله رفض أن يتبعه.

ــ شائعة أخرى: كلمة تقال لمن يقرن القول بالفعل، ويرى الصحو الربيعي في عيون الشتاء. فإذا أضفت إليها لا الناهية، تحصل على حكمة مؤداها (لا تهيج البحر، إلا إذا كنت قادراً على إنقاذ السفينة).

وإذا حذفت النهي والأمر، تنزل عليك الملائكة، وتحصل على حكاية مؤداها أن الحرس البلدي، طلبوا من الحاج الزروق أن يعلق صورة الملك في دكانه، فقال لهم محتجاً: (هذا العجل لا تعلق صورته سوى بقرة).

ــ غضب.

ــ سؤال مؤداه (هل من حق الفأر أن يتشاءم، إذا رأى قطة سوداء؟).

ــ سؤال آخر.

ــ هل أنت تفاحة حتى تطعم اليد التي تعضك؟

ــ هل أنت برغوث حتى تعيش على ظهر كلب؟

\ سؤال أخير:

ـــ هل سمعت أن إدارة الملجأ طلبت تبرعاً من الملك، فبادر صاحب الجلالة، وبعث إليهم مليون يتيم.

ـــ مواطن من دون وطن.

ـــ رجل يموت ببطء لأنه ليس مستعجلاً.

ـــ شائعة مؤداها أن الملك خطب في الشعب قائلاً: (الميزانية لم تعد تكفي. أحدنا لا بد أن يكف عن الأكل).

ـــ وطن جميل تنعم بالحياة فيه إذا كنت بعوضة.

ـــ مثل تضربه لمن لا يشبع من الضرب، إذا قرأته مقلوباً تحصل على حكمة مؤداها (لكي تحقق أحلامك، عليك أولاً أن تستيقظ).

وإذا قرأته صحيحاً، يتساوى لديك الحق مع الباطل، وتعرف أن الشمال من اليمين، هو اليمين من الشمال، وتحصل على قصة مؤداها أن الحاج الزروق، سأله ابنه كيف تنهجي كلمة (اقحوان)، فقال له: (يا ولدي، اكتب: أشجار).

ـــ مغلوبون.

ـــ ليس بأيدينا.

ـــ ليس بوسعنا.

ـــ مثل تضربه لمن يضرب بالعصا ، فإذا أضفت حرفاً، لو أضفت حرفاً، أو أضفت حرفاً، تحصل على كلمتين، احداهما بمعنى (يا ويلنا).

والأخرى، اسم حاكم عربي متدين، اشتهر بحب أعدائه ــ كما أوصاه السيد المسيح ــ خاصة الويسكي والتبغ والنساء.

ــ نفط مقلوبة.

ــ نفط موزعه بعدالة.

ــ كلمة تقال في وقت الضيق، الحرف الأول منها (لو كان الأمر بيد رأس البصل، لتساوت جميع الرؤوس).

ــ مغلوبون.

ــ صرخة من حرفين، الأول بمعنى (خسارة)، والثاني بمعنى (خسارة)، والثاني بمعنى (أف)، كما في قولك مثلاً: (أقامت الفئران عرساً، لكن القط أكل العروس).

ــ أكلها.

ــ استباح عرضنا باسم العرض.

ــ استباح أرضنا باسم الأرض.

ــ وجل يسرق حق الناس في عصر، ويقبضون عليه في عصر آخر.

فإذا نظرن إليه جيداً، ترى أنه مجرد (دجال). وإذا نظرت إليه مرتين، يرزقك الله بنفاذ البصيرة، وتعرف ما عناه الحاج الزروق عندما قال مباهياً بحكمته: (إن الحياة مليئة بالمخاطر، فلا يخرج منها حياً سوى القليل).

ـــ من حقك:

ـــ أن تبحث عن الأمل في باب الصبر.

ـــ أن تغالب الخيبة بالرجاء.

واليأس ببعض الغضب.

ـــ من حقنا عليك:

ـــ أن لا تكن مغلوباً.

ـــ أن لا تيأس منا ـــ أن لا تشك فينا.

ـــ فالحق في الناس، والخير في الناس، والكمال للناس. والدنيا كما قال الحاج الزروق لعبة طريفة مثل الكلمات المتقاطعة، إذا أحسنت جمع حروفها تحصل على كلمتين، الأولى بمعنى (بارك الله فيك)، والثانية حكاية مؤداها أن الملا جحا قرصته ذبابة في مجلس تيمورلنك، فقال لها مؤنباً: ((أنا بشر مثلك، لولا أنني أخرس))[1].

➢ الأمي :

عندما تقول إن جارك مواطن «أمي» لا تعني في الواقع أن دماغه لا يختزن أية معارف من أي نوع وأن سلوكه الخاص يصدر من لا مكان، بل تعني بالتأكيد أن معارفه قديمة وغير صحيحة ومضحكة أيضاً بالنسبة لمعارف العصر لأنه استقاها بالسماع وأنت تعتقد أن ذلك يضعه تحت

1- الإسلام في الأسر رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص

خانة «الأمين» ولكنك تنسى أن جارك لم يكن في وسعه أن «يسمع» معارفه المضحكة لولا أن أحداً ما قد قرأها أمامه وأن ذلك «القارئ» أيضاً يختزن المعرفة نفسها.

فالمشكلة لا تخص «القدرة على القراءة أو عدم القدرة»، بل تخص «نوع المعرفة المطلوبة» ونحن نرتكب خطأ لا يمكن غفرانه عندما نفرق بين الأمية وبين القدرة على القراءة باعتبار الشكل الخارجي وحده. فالواقع أن الفرق طفيف للغاية داخل ذلك النطاق، والمرء لا يستطيع أن ينفذ من فخ الأمية بمجرد أن يمتلك وسيلة المعرفة التي تدعى عندنا بالقراءة. إنه يصبح فقط «أمياً مقنعاً». وإذ ذاك يصير مريضاً اجتماعياً أشد خطورة من سواه، لأن إلمامه بالقراءة يجعله يتصور أنه خرج من منطقة الخطر ودخل في عداد العارفين ثم يجعله يتصور أنه بات يملك الحق في «النقاش وإيجاد الحلول» أيضاً.. وعندما يبدأ في ارتكاب هذا الخطأ يضع نفسه ومجتمعه وجميع أجياله القادمة تحت رحمة الجهل المقنع والمقام على قاعدة النرجسية وحدها، ويصير اسم المشكلة «الأمية العلمية» بدل الأمية فقط.[1]

➢ **الأمية :**

العجز الفكري عن إيجاد الحق بالنسبة لمركز الإنسان في الكون، هذا هو التعريف الوحيد الذي يستطيع المرء أن يتقبله بالنسبة لتفسير الظاهرة بأسرها، وإذا قرأ لي أحداً ما في كتابه أن الرب خلق آدم مثل دمية طينية

1- فرسان بلا معركة ، تالة للطباعة والنشر ، ط 2 طرابلس 2001 م ص 65 .

وطلقه لكي يركض فوق الأرض تحت حراسة شبه دائمة من مخلوق ناري اسمه الشيطان، فأنا أدعوه بكلمة واحدة (رجل أمي)، لأن الحق ـــ أو العالم الحقيقي ـــ يستطيع أن يثبت بوضوح غير قابل للشك أن خلق الإنسان لم يتم على هذا النحو، ولأن صناعة الدمى الطينية ليت في الواقع الصورة الحقيقية التي تليق بفكرة الإنسان عن قدرات خالقه، فإذا قرّر ذلك (الأمي القارئ) أن يفرد فكرته بطريق أو بآخر، فإن وسيلته الوحيدة أن يلبس ثوب (العالم) ويقطع لساني بتهمة (الجهل) دون ثمة دليل من أي نوع سوى أن يفهم ويفسر ما جاء في كتاب الله.[1]

رجل «أمي» يلقب نفسه باسم «العالم» لمجرد أنه تعلم القراءة المتحذلقة، ويستطيع أن يقف وحده ضد جميع العلماء والأدلة العلمية المقاطعة لكي يفرض فكرته دون ثمة دليل من جانبه سوى «أوهامه النرجسية»، وينفي كل شيء آخر في علبة القمامة، ثم يجعلك بعد ذلك تقبل يده أيضاً.

وأنا هنا لا أختار هذا المثال بالذات إلاّ لأنه أكثر وضوحاً من سواه «فالعلم باسم الله» ما يزال في بلدنا أكبر مظاهر الأمية المقنعة على الإطلاق ولكنه بالتأكيد ليس وحده فارس الميدان. «فالعلم باسم مصلحة الشعب»، والعلم باسم «التقاليد الحميدة الأصيلة» يلعبان أيضاً دورهما المثير في أمية الشعب الليبي التي تصرخ منها على كل الجبهات إن مشكلتنا لم تكن قط عدد «القادرين على القراءة»، ولكنها كانت دائماً نوع الثقافة المقروءة وحدها.

1- كلمات الحق القوية ، تالة للطباعة والنشر ، ط 2 طرابلس 2005 م. ص164

➢ الثقافة الدينية والسياسية والاجتماعية.

الثقافة المثقلة بالمغالطات القديمة وازدراء وسائل العلم الحديث وعدم وضوح الرؤية والتسليم بالبديهيات غير الحقيقية والاعتماد على الإثارة العاطفية الخالية من العمق. ونشر التعليم لا يستطيع أن يغير وجهة هذا الطوفان من الأخطاء، بل إنه في الواقع سوف يزيدها ثباتاً وشمولاً إلاّ إذا بدأ بإيجاد «المنهج» المطلوب لابعاد الفكر نفسه.. أي يبدأ بإيجاد «الحق».

وأنا أستعمل كلمة الحق هنا بالنسبة لاتجاهين مرتبطين معاً..

الاتجاه الأول: علاقة الإنسان بخالقه، تلك العلاقة التي لا يمكن قط أن تقوم على أساس حقيقي من المعرفة الحقيقية ما دامت تبدأ بفكرة غير علمية ـــ وغير دينية بالتالي ـــ مؤداها أن الإنسان دمية طينية. إن هذه الانطلاقة لا يسندها شيء في الواقع سوى التفسيرات المعوجة للقرآن والإنجيل على حد سواء ولكنها ذات تأثير مفجع في شكل مجتمعنا الإنساني بأسره. وإذا أتيحت لإنساننا المعاصر فكرة أكثر اكتمالاً عن طبيعة القانون العظيم الذي أحضره إلى هذا العالم، فإنه بالتأكيد سوف يكون أكثر قرباً من الله وأكثر إدراكاً للشكل المتناهي الإثارة الكامن وراء دمية الطين. سواء كان يعرف القراءة أو لا يعرفها.

الاتجاه الثاني: علاقة الإنسان بالإنسان. فالطبقية التي نعيشها الآن في تفكيرنا الاجتماعي والسياسي مجرد انعكاس مؤقت لفكرتنا الخاطئة عن

العالم نفسه. فالكون ــ بالنسبة لنا ــ مسرح هائل لأسوأ أنواع الطبقية يقف الله فوق قمته وتحته طبقة الملائكة ثم طبقة الأنبياء وتحت طبقة الأنبياء طبقة أخرى إلى آخر القائمة الرأسية التي يبدو أن أول أخطائها الوثنية أنها تضع «الله في نقطة محددة» وهو خطأ نعتقد جميعاً أننا نتجنبه ــ ببساطة ــ لمجرد أننا نعتنق الإسلام.

من هذين الاتجاهين يبدأ كل شيء في المجتمع الإنساني.

من هذين الاتجاهين تبدأ الأديان والأخلاق والأفكار السياسية أيضاً. وما داما معاً ينطلقان من نقطة خاطئة تحت حراسة مشددة من «الأمية العلمية»، فإننا في الواقع لا نملك فرصة واحدة لإصلاح الاعوجاج الواضح في مسيرتنا الفكرية. إن ذلك يحتاج إلى عنصر الزمن.

وهذا ما يحتاج المرء إلى أن يعرفه جيداً قبل أن يتورط في الصراخ مطالباً «بمحو الأمية» لأن هذه الصرخة من جهة لا تعني شيئاً في الواقع سوى تعليم الناس القراءة لكي يقرأوا الأخطاء بأنفسهم بدل أن يكتفوا بسماعها، ولأن «الجهل» لا يستطيع المرء أن يمحوه بإيجاد «قرائه».

إننا نفتقر إلى صوت يطالب بتغيير مناهجنا الفكرية.

صوت لا تخدعه «الأمية المقنعة» التي تستطيع أن تنتصب فوق المنصة وتدلق على العالم خطبة فصيحة. وتستطيع أيضاً أن تطبع له جريدة مزينة بالآيات القرآنية والحكم القديمة لكي تقنعه بأنه صنم طيني مصنوع خاصة

لكي يأكل تفاح الجنة. إن تعميم القدرة على القراءة عمل حسن ولكنه ليس دائماً عملاً مفيداً. وإذا كان ثمة من يخامره الشك في هذه الحقيقة المفاجئة، فإنه يستطيع أن ينال أكثر من مثال مقنع داخل البلدان التي رفعت نسبة المتعلمين فيها إلى الحد النهائي. إن أكبر المستفيدين من هذه الظاهرة هم باعة المجلات الجنسية.

ولكن المرء لا يجوز أن يفسر هذا القول بأنني أدعوا إلى إبقاء الشعب الليبي محروماً من نعمة القراءة. لأن ذلك في الواقع تفسير مقلوب. إن ما أريد أن أقوله هنا بوضوح كافٍ أن تعليم القراءة عمل حسن ولكنه — بالتأكيد — لا يقود قط إلى محوِ الأمية إلاّ إذا ظللنا على اعتقادنا الخاطئ بأن الأمية «هي العجز عن القراءة».

أما إذا كنا نملك من الشجاعة ما يكفي لرفض هذه البديهية غير المعقولة، فإننا نستطيع أن نرى بوضوح أننا لن نحتاج إلى المدارس وحدها لمحو أمية شعبنا، بل إننا أيضاً نحتاج أكثر مرتين إلى مناهج علمية لمحو أميتنا قبل أي شيء آخر.

فنشر المعرفة — إذا لم تكن معرفة حقيقية — مجرد خدمة تؤدى لصالح الجهل وحده.

ونحن في بلدنا الصغير المتواضع الإمكانيات نملك الآن أكثر مما يكفي من الأصوات المتحمسة التي تنسى هذه الحقيقة البسيطة في غمرة حماسها البدائي، وتنسى أيضاً أنها بدورها تحتاج إلى محو أميتها.

إن القراءة مجرد وسيلة لنشر «المعرفة».

وإذا كان من المرغوب فيه أن يمتلك المرء هذه الوسيلة تحت تصرفه، فإنه من المرغوب فيه أكثر ألا يضعه ذلك تحت رحمة «الأمية العلمية» لكي تصب في دماغه جميع معارفها المدهشة. والأصوات التي تطالب بشن حملة شعواء ضد الأمية مطالبة بدورها أن تؤدي نصيبها في الحملة الحقيقية الأخرى ضد «الأمية الدينية والأمية السياسية أيضاً». فالمشكلة ليست مجرد مسرح للصراخ من أجل المدارس وحدها كأن كل شيء آخر معد في بلدنا على ما يرام[1].

➢ الإنسان :

إن الإنسان – بالنسبة لله – ليس جثة تزن سبعين رطلاً من اللحم والشحم. إنه (معنى) سماوي يدخل جثة فيمنحها قداسة خاصة أو لا يدخلها ويجعلها مجرد كتلة من اللحم لا تختلف في شيء عن جثة النعجة والحمار. الإنسان – بالنسبة لله – هو المعنى داخل الكلمة. إذا وجد المعنى

أصبحت الكلمة نافعة وما دمت لا تستطيع أن تأكل المعنى أو تواريه في التراب فإن الله لم يرَ ثمة حاجة إلى أن يحرم عليك أكل موتاك أو يأمرك بدفنهم .

الخنزير – بالنسبة لله – مجرد جثة لذلك منعك من أكل جثة الخنزير، أما الإنسان فإنه لا يؤكل أصلاً حتى إذا أكلت جثته إلاّ إذا كان جثة حقيقية

1- فرسان بلا معركة ، تالة للطباعة والنشر ، ط 2 طرابلس 2001 م ص 71

بلا معنى، وإذ ذاك يصير في الواقع خنزيراً عادياً وليس إنساناً من أي نوع. إنك تستطيع أن تأكل جثة جارك بالهناء وتمص مخه إلى آخر قطرة إذا كنت تعتقد حقاً أنه مجرد خنزير كما تدعوه في شتائمك. لكني أعرف أنك لن تأكله .

أعني أفهم موقفك، وأفهم بالذات أنك لا تحب جارك الثقيل الظل وأنك تعتبره مجرد بغل جاهل ويستحق الموت لكنك لا تستطيع أن تأكله عندما يموت حقاً. إن ثمة شيئاً ما يمنعك من تحقيق هذه الرغبة البسيطة ويجعلك ترمي تسعين رطلاً من اللحم الحسن المذاق في مقبرة سيدي أعبيد.

فلماذا؟

أعني لماذا لا تصفي نيتك وتتفضل بأكل هذا البغل الجاهل؟ الدين لا يمنعك كما قلت لك. إنه في الواقع لا يهمه ما تريد أن تفعله بجثة جارك المخلص. القانون أيضاً لا يمنعك، فالجمهورية الليبية مثل بقية بلاد العالم لا تملك نصاً قانونياً بتحريم أكل الجيران. فما الذي يعوقك عن أن تملأ بطنك بقطعة الفخذ من جثة عدوك؟ ما الذي يعوقك؟

الإجابة المؤلمة — وأنت لن تعترف بها قط — أن الذي يعوقك في الواقع وهم زائف في دماغك مؤداه أن الإنسان هو جثته وأسوأ ما في وهمك الزائف أنك تعتبره فضيلة دينية.

أنت – على عكس الله – تعتبر الإنسان جثة تزن سبعين رطلاً من اللحم والشحم. أنت – على عكس الله – لا يهمك شيء وراء الجثة ولا تتردد لحظة واحدة في أن تلصق بالإنسان أسوأ ما تعرفه من النعوت. أنت – على عكس الله - تحكم بالظواهر وتقاتل من أجل الظواهر وتعتبر جارك مجرد خنزير، لكنه – عندما يموت – تتراجع خطوتين وترفض أن تأكل جثته الطاهرة. أنت في الواقع فكر متناقض إلى حد يدعو إلى الدهشة، والمضحك حقاً أن تضع هذا الفكر في عداد الفضائل السماوية تنسبه بالذات إلى الله.

فلماذا؟ أنا أسألك.. لماذا تأكل جثة النعجة وترفض أن تأكل جثة امرأتك التي تدعوها كل يوم باسم النعجة. لماذا تنعم بقطعة الفخذ من العنزة وترمي فخذ جارك في سيدي أعبيد ما دام هذا الجار بالنسبة لك مجرد عنزة ذكر. لماذا تدق ظهور أطفالك بالعصي، ثم تزعل كثيراً إذا أكلتهم كلاب المقبرة وتسارع بالشكوى من البلدية، أعني لماذا لا تزعل أيضاً عندما ترى الكلاب تأكل جثة حجش عادي من جحوش الله؟

هل تعرف إجابة أكثر جدوى من القول بأن العادة جرت هكذا، وأننا لا نأكل موتانا لأننا تعودنا على أن لا نأكلهم؟ وأن اللعبة بأسرها مجرد روتين في حياتنا..

أنت بالطبع لا تعرف إجابة أكثر جدوى. هذه أيضاً عادة أخرى بالنسبة لكل الناس الذين يعيشون بالعادة. إن أحداً منهم لا يملك مبرراً معقولاً لمعظم تفاصيل سلوكه اليومي لكن ذلك لا يمنعه – عادة- من أن يغمض عينيه ويزعم لنفسه أن الأمر يفهمه الله وحده. هذه بقية المغالطة.

أن نخدع أنفسنا، ثم ندعو كافراً بالله. أعني هذه مغالطة حقاً ليس ضد الإنسان فقط بل ضد الله أيضاً ولكنها تبدو فضيلة عادية في مخزننا الإنساني العامر بالفضائل.

فدعني أقل لك رأياً: إنني أعتبرك بربرياً إذا رأيتك تأكل جثة مواطن من بلدنا أو جثة أي مواطن آخر من أي بلد آخر لكني أيضاً اعتبرك بربرياً إذا رأيتك تواري جثث الناس في سيدي أعبيد دون أن تفهم من معنى(الناس) سوى أنهم جثث. ذلك يعني بالطبع أنك سوف تظل رجلاً بربرياً في الحالتين، وأن الطريق الوحيد إلى الخارج هي أن ترى الناس كما يراهم الله معنى سماوياً مقدساً لا يقل قط عن معنى وجودك ذاته أن تصفي نيتك وتصبح بربرياً ذكياً وتملأ كرشك من اللحم بدل أن ترميه للدود. ليس ثمة حل آخر. حتى بالسبة لمواطن عبقري مثل مواطننا في ليبيا ليس ثمة حل آخر.

إنه إما أن يكف عن اعتبار امرأته نعجة وأطفاله جحوشاً ويكسر عصاه ويعاملهم دائماً معاملة الند للند أو يتركهم يموتون بالكحة ويأكل جثتهم

عن آخر عظم. ليس ثمة فائدة من اختلاق الحيل الجانبية. ليس ثمة فائدة من خلع الألقاب على الإنسان ومعاملته مرة باعتبار من ذوي القربى ومعاملته مرة باعتباره من الغرباء. ليس ثمة جدوى من علاج الإنسان أو نقله إلى المستشفى أو الدفاع عن حياته أو تزيين عنقه الذهب إذا كان كل ما يعنيه الإنسان بالنسبة لنا هو جثته. هذا الوهم المحزن لا فائدة من ورائه سوى أنه يجعلنا نخسر مئات الأرطال من اللحم كل يوم في تراب سيدي أعبيد بضمير مستريح. فحلّوا مشكلة الإنسان أو حلّوا مشكلة اللحم. إن الأمر واحد بالنسبة لله.

الإنسان لا يختلف عن نعجة العيد في شيء إلاّ في نقطة عميقة واحدة. إنه يملك معنى خاصاً، أعني يملك عقلاً. شيئاً سماوياً من روح الله لا نستطيع أن نأكله ولا نستطيع أن نضربه أو نحبسه تحت السدة، وإذا حاولنا ذلك فسوف نحاول عبثاً لكن المحاولة نفسها تعني بالطبع أننا كنا نأمل أن ننجح وأننا في الواقع قد ارتكبنا الجريمة بالنية على الأقل وأن ضياع اللحم — بعد هذا الفشل كله — يبدو خسارة لا تحتمل. إننا من باب المنطق وحده مطالبون إذ ذاك بأكل موتانا.

الحال الباقي أن نعترف بضآلتنا تجاه الله.

نعترف بحكمته وبعجزنا الكلي عن اختراق قوانينه الشاملة وعجزنا بالذات على أكل إنسانه الحقيقي أو حبسه في البيت أو دق ظهره بعصا

المكنسة. نعترف بأننا لا نستطيع أن نأكل الإنسان حتى إذا أردنا وأن الحل الوحيد الباقي أمامنا أن نكف عن معاملته مثل النعجة.

نكف عن ضربه مثل الحمار.

عن قهره بسلطة المجتمع. عن إرغامه على الجري وراءنا مثل الكلب. نكف عن معاملته باعتباره مجرد تسعين رطلاً من اللحم والشحم ونعطيه فرصته لكي يعيش بيننا بنصفه السماوي ونصفه الترابي معاً آمناً من سكينة الجزار ومن التقاليد غير الحميدة والعادات وشيخ المحلة وألسنة الجيران والأحكام الصادرة من طرف نعجة واحدة.

إنني لا أدعوكم إلى أكل موتاكم إلاّ لأنني أعتقد أنكم في الواقع تأكلون أحياءكم وأنه من الأفضل إذن أن نستفيد من أرطال اللحم الضائع ونقتسمها بيننا بدل أن نرميها للدود، فنحن – مهما قيل فينا – مازلنا على أي حال أفضل من الدود.[1]

➢ المبادئ الجوهرية للدين :

أربعة مبادئ جوهرية في مفهوم الدين منذ نشأته:

المبدأ الأول:

إن الدين سابق على قيام المؤسسة الفقهية ونزول الكتب المقدسة نفسها.

1- فرسان بلا معركة ، تالة للطباعة والنشر ، ط 2 طرابلس 2001 م ص 192

كما في قوله: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إبْرَاهِيمَ ومَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإنجيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِه﴾[آل عمران/٦٥] وفي سورة البقرة: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إنَّ إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾. وهو سؤال استنكاري مهمته أن يعلن أن الإنسان عرف الله، قبل أن يعرفه الفقهاء.

المبدأ الثاني:

إن الدين ليس فقهاً، بل شريعة تحرم الخلاف الفقهي من أساسه.

كما في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْكَ ومَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى/١٣] وإذا كانت التفرقة قد وقعت، فذلك أمر مرده إلى تغييب هذه الوصية بالذات.

المبدأ الثالث:

إن الهداية لا تتحقق بالانتماء إلى مؤسسة فقهية، بل تتحقق ـ فقط ـ برفض الانتماء.

كما في قوله: ﴿وقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ومَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾[البقرة/١٥٣]. وهو رد مهمته أن يقرر، أن وصاية الفقه على الدين، ليست من الدين في شيء.

المبدأ الرابع:

إن]الحنيف[أي]اللامنتمي[الذي يعتبره الفقهاء وثنياً، ويأملون أن يحترق في نار جهنم، هو بالذات، المؤمن الصالح صاحب الدين القيّم والصراط المستقيم.

كما في قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام/١٦٢]. وهي شهادة ربما لا تطابق مواصفات المؤمن عند أهل الفقه، لكنها تأتي من الذي بيده مفاتيح الجنة والنار معاً.

هذه العقيدة يدعوها القرآن باسم (صبغة الله وسنّة الله وفطرة الله) المشتقة من (فطر) بمعنى: بريء من الصنعة، وعذري لم تخالطه خميرة. وهو المفهوم الذي نتداوله في قاموسنا المعاصر تحت اسم (غريزة). فالدين ليس فقهاً يتلقاه المرء من معلم، بل استجابة لغريزة في طبيعة الإنسان نفسه. إنه دستور يقوم على الاعتراف بأن الإنسان الحي مفطور على حب الحياة، وأن الحياة لا يضمنها قيام مؤسسة فقهية، بل يضمنها قيام مجتمع ديموقراطي قادر على الدفاع عنها ضد الظلم والفقر والخوف. وإذا كانت هذه الفكرة الحية، قد لقيت حتفها على يد الفقه، وتحولت إلى جثة محنطة في متحف التاريخ، فذلك هو الدليل على أن الدين ليس شعائر دينية، بل دستور سياسي لا يستطيع أن يتعايش مع أي نظام سياسي مختلف.

إن الله لم يفطر الناس على الصلاة والصوم وتقبيل الصلبان وحجاب المرأة، بل فطرهم على حب الحياة الآمنة التي لا تستطيع أن تكون حياة، أو تكون آمنة، إلاّ في مجتمع إنساني قادر على ردع منطق القوة، بضمان حق الأغلبية في صياغة القوانين. وهي الرسالة التي عمل الأنبياء على تبليغها بالدعوة إلى إقامة العدل. وعمل الفقهاء على تغييبها بالدعوة إلى إقامة الشعائر، في معركة لا مبرر لها، سوى حاجة الفقه إلى تطويع الدين في خدمة الإقطاع.

فنقطة الضعف ـــ والقوة أيضاً ـــ في رسالة الدين، أنها دعوة سياسية تتوجه علناً لهدم كل نظام سياسي آخر، وتعمل بمثابة منشور مقدس، ينادي صراحة بإسقاط جميع أنواع الحكم التي لا تقوم على مسؤولية الإنسان عما كسبت يداه. وهي دعوة لا يستطيع الإقطاع أن يتعايش معها أو يبطلها أو يرفضها أو يهادنها، أو يحتويها. ولا يملك ثمة ما يفعله تجاهها، سوى أن يحيل لغتها إلى شيفرة سرية في قاموس سري، يتداوله رجال محاطون بالأسرار في مظهرهم وسلوكهم معاً. لهذا السبب ولد الفقه في أحضان الحكومة، وأصبح بديلاً حكومياً عن الدين.

إن (ملة إبراهيم) التي دعا إليها القرآن لتحرير المجتمع من هيمنة الإقطاع، تتحول على يد فقهاء الإسلام إلى مؤسسة فقهية، لها خمسة أركان، ليس بينها ركن واحد له علاقة بإبراهيم.

فقد عمد الفقه الإسلامي إلى تحديد أركان الدين في أداء خمس شعائر، لا يستقيم إسلام المرء من دونها هي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأداء الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وإيتاء عُشر المال في الزكاة، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا. لكن مشكلة هذا التحديد، أنه لا ينطبق على النبي صلى الله عليه وسلم إبراهيم المسلم الأول، ولا ينطبق أصلاً على أحد من الأنبياء الذين يسميهم القرآن (مسلمين) في نصوص صريحة غير قابلة للتأويل، منها قوله:

في شأن إبراهيم: ﴿مَا كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً ولا نَصْرَانِيّاً ولَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً﴾[آل عمران/٦٧]

وفي شأن ولديه إسماعيل وإسحاق:﴿ووَصَّى بِهَا إبْرَاهِيمُ بَنِيه ويَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.[١٣٢/ البقرة]

وفي شأن يعقوب: ﴿إذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إلَهَكَ وإلَهَ آبَائِكَ إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ إلَهاً واحِداً ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة/١٣٣].

وفي شأن يونس:﴿إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللَّهِ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ﴾[يونس/٧٢].

وفي شأن موسى:﴿إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس/٨٤].

وفي شأن عيسى:﴿ وإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾[المائدة/ ١١١].

وعلى لسان فرعون شخصياً: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ الَذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ﴾[يونس/ ٩٠].

فالإسلام في قاموس القرآن ليس كلمة طارئة تبحث عن مفسر، بل كلمة قديمة ذات أصل كلداني مصدرها (ش ل م) بمعنى (وافق وأصلح وآلف وأكمل وبلغ رشده وأصبح سليماً وبريئاً من العوج). إنه رسالة تقوم على الألفة بين جميع الرسالات، وتتوجه لاحتواء الشقاق الفقهي، بإعلان وحدة العقيدة وتقديم العمل على شكل الشعائر واعتماد مبدأ مسؤولية الناس عما كسبت أيديهم. وإذا كان الفقه قد أصرّ على القول، بأن الإسلام لا يستقيم إلاّ بأداء الشعائر الخمس، فلا بد أنه قد استمد هذا الحكم من قرآن لا يعرفه أحد.

إن الأمر مقلوب رأساً على عقب. فالواقع أن الفقه هو الذي لا يستقيم إلاّ بأداء الشعائر، لأنه مجرد وسيلة شكلية يسخرها الإقطاع لاحتواء الدعوة إلى الوفاق، وتغييب الأمل الإنساني في السلام والعدل، ورواء حلم مؤجل إلى يوم القيامة. أما (العبادات) التي يزعم الفقهاء أنها تعني (الشعائر)، فهي كلمة قديمة أخرى مشتقة من (ع ب د) بمعنى (عمل وخلق)، ومنها (ع ب و د ا) أي عامل وخالق، واسم مفعولها (ع ب ي د ا) التي يوردها القرآن بمعنى (عبيد الله) أي مخلوقاته.

فالعبادة في اللغة، ليست هي أداء الشعار التي يفتي بها الفقهاء، بل هي أداء العمل الذي تقرره نتائجه الفعلية في أرض الواقع. وإذا لم يتمثل هذا العمل في السعي إلى توطيد السلام والعدل، بضمان حق الأغلبية في الحكم، فإنه يصبح مجرد بديل شكلي عن السلام والعدل بالذات.[1]

➢ بين رسالة الفقه ورسالة الدين :

الفرق الخفي ــ والصاعق ــ بين رسالة الفقه، وبين رسالة الدين. وكنت أتوجه لتسليط الضوء من عدة زوايا على خمس نقاط محددة:

الأولى: إن الإسلام ليس فقهاً بل سياسة تهدف إلى بناء مجتمع قادر على احتواء الخلاف الفقهي، باعتماد مبدأ (مسؤولية المواطن عما كسبت يداه).

الثانية: إن هذا المبدأ، غير قابل للتطبيق إلاّ في مجتمع قائم على الاقتراع الحر الذي يضمن لكل مواطن حق المشاركة في اتخاذ القرار السياسي.

الثالثة: إن كلمة (مواطن) في الإسلام، لا تعني المسلم وحده، بل تعني النصراني واليهودي وكل (مؤمن) آخر مهما كانت عقيدته. فالخليفة لا يدعى (أمير المسلمين) بل (أمير المؤمنين).

1- إسلام ضد الإسلام –شريعة من ورق - رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م.ص 29

الرابعة: إن (المسجد) كلمة مشتقة من سجد، لأنه خلوة للصلاة. أما (الجامع) فهو من كلمة جمع، لأنه مؤتمر سياسي مهمته أن يضمن لكل مواطن حق المشاركة شخصياً في اتخاذ القرار السياسي. وإذا كانت ثقافتنا الإسلامية لا تميز الآن بين المسجد وبين الجامع؛ فذلك أمر مرده إلى أنها ثقافة فقهية مسخرة أساساً لتغييب نظام الجامع بالذات.

الخامسة: إن اللقاء الأُسبوعي في يوم الجمعة، لقاء سياسي مخصص للمساءلة والحوار، بحضور المسؤولين الإداريين، وإن تغييب هذا الحوار، وراء مواعظ الفقهاء في خطب الجمعة، مجرد دليل على أن الفقه هو البديل السياسي عن الدين.

الحصيلة الأولى لعرض هذه القضايا خلال السنوات الماضية، كانت مجرد ردة فعل عدائية جداً، وشبه متوقعة. فقد كان من الطبيعي أن يعلق الفقه عداءه لنظام الجامع، ما دام الفقه هو (دين الحكومة الإقطاعية) التي يتوجه الجامع لهدمها بمعول الله نفسه. ورغم أن الردود لم تصدر كلها من فقهاء محترفين، فإنها ظلت تعكس منهجهم في النقد، وتخلط علناً بين رسالة الدين وبين رسالة الفقه، متعمدة أن تتجاهل سبب المشكلة من أساسها.

إننا في حاجة لكشف هذه المغالطة المستمرة. فالإسلام الذي يبدأ بمثابة عودة إلى (ملة إبراهيم)، هو رسالة مشروطة شرعاً بالعودة إلى عصر ما قبل المؤسسات الفقهية. إنه دعوة لا تستقيم، إلا بإنهاء الخلاف الفقهي بين

العقائد والأجناس، وتقديم نوع العمل على نوع الشعائر، وتحرير الواقع من الخيال، والاعتراف ـــ دستورياً ـــ بمسؤولية الناس عما يحدث لهم، وعما يحدث من حولهم. وهي رسالة لا ترتبط بما يقوله هذا الفقيه، أو هذا الكاهن، بل بما يفعله هذا المواطن الذي فقد حقه في القول والفعل معاً.[1]

1- إسلام ضد الإسلام –شريعة من ورق – رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م.ص 31

في غياب صيغة الجامع، يغيب مبدأ المسؤولية الشخصية الذي يقوم عليه الشراع الإسلامي بأكمله، ويبطل بالتالي دستور الإدارة الجماعية، ويتفرق العرب في أرض الواقع، لكي يجتمعوا في واقع آخر.

ويصيروا أمة موحدة شفهياً، تملك دستوراً واحداً، بلغة واحدة، من دون جهاز إداري قادر على ترجمة وحدتها إدارياً.

في حضور صيغة الجامع، يعاد الأمر إلى نصابه، وتظهر أمتنا العربية في ضوء النهار، بمثابة أمة كاملة التجهيز والعدة، لا تنادي بتحقيق آمال الإنسانية في العدل فحسب، بل تمتلك الجهاز الإداري القادر على تحقيق العدل بالفعل.

الصادق النيهوم

في التفسير اللغوي الشرعي الإداري

صيغ إدارية فقدت وجودها فأفسدت الماء وضيعت الهواء في ثقافتنا فباتت الثقافة بلا وجهة لإن نظامها الإداري مشلولاً ومقصياً .

➢ شرع الإسلام الإداري :

الرمال الناعمة في الوطن الإسلامي بالذات، مجهزة خاصة لاحتواء الخلاف بين الأديان، لأن شرع الإسلام الإداري، هو نفسه شرع التوراة الحقيقية، وقد احتوى اليهود ذات مرة، وسوف يحتويهم مرة أخرى، بمجرد أن يستعيد نظامه الإداري.

فالفرق الحاسم ـــ والغائب عن حسابات الرأسماليين ـــ بين العرب، وبين الهنود الحمر، أن شرائع الهنود الحمر، كانت أكثر قدماً، وبدائية، من شرائع الأوروبيين.

أما العرب، فإنهم أصحاب شرع جماعي متطور، يعيش حياً في لغتهم، ويضمن لهم وطناً محرراً من سلطة المؤسسات.

وهو فرق يعني، أن الأوروبيين البيض، يستطيعون إقامة مستوطنة مسلحة في فلسطين، بمعونة من مراكز رأس المال، لكنهم لا يستطيعون أن يقيموا دولة يهودية في فلسطين، من دون أن يحتويها شرع الإسلام الجماعي، الذي احتوى اليهود، منذ ظهور الإسلام.

ولعل الرؤية لا تزال الآن غائمة بعض الشيء.

لكن الرأسماليين البيض المعروفين ببعد النظر، عليهم أن ينظروا بإمعان أكثر، لكي يروا بأنفسهم، أن الذي يبحث عن وطن في الشرق الأوسط، ليس هم اليهود، بل هو الشرع الجماعي، وأن هذا الشرع قد أعطى اليهود

وطناً من دون أسلحة أمريكية، قبل أربعة عشر قرناً، وأن إقرار السلام في المنطقة، رهن باستعادة الشرع الجماعي، وليس بإقامة المستوطنات في أراضي أمة، ملزمة بموجب شريعتها نفسها، أن تقاتل حتى الموت ضد شريعة المستوطنات.

إن الدول الرأسمالية الغربية، تستطيع أن توفر على نفسها ـــ وعلى العرب واليهود ـــ أحقاباً من الخراب والدمار، إذا شاءت ذات مرة، أن تراجع مفهومها الصليبي للإسلام، وتتعرف بنظامه الإداري المتطور، وتتكلم لغته في البحث عن حلول، بدل لغة المستوطنات القائمة على (الحدود الآمنة، والحزام الأمني، والتوازن العسكري..).

فالإسلام بالذات شريعة لا تفهم لغة المستوطنات، ولا تقر قيام دولة على أساس اللون أو الدين، ولا تعترف بمثل هذه الشرائع البدائية.

ولا يعني الإصرار على إقامة مستوطنة في أراضي الإسلام، سوى تحديه لإثبات قدرته الخارقة على ضرب هذه المستوطنة، بموجة بعد موجة من الشهداء في معركة قد تستمر، طوال ألف سنة من الآن[1].

➢ فقدان الصيغة الإدارية :

إن الفرقة بيننا، مصدرها نظامنا الإداري الذي قام أساساً على شل وحدتنا بالذات.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء -، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص124

فنقطة الضعف المميتة في بناء أمتنا العربية، أنها أمة لا تجمعها سوى صيغة إدارية واحدة، فقط، لا غير.

هي صيغة الإدارة الجماعية التي تمثلت في دستور الشرع الجماعي، عن طريق المؤتمرات الدورية في الجوامع.

في غياب صيغة الجامع، يغيب مبدأ المسؤولية الشخصية الذي يقوم عليه الشراع الإسلامي بأكمله، ويبطل بالتالي دستور الإدارة الجماعية، ويتفرق العرب في أرض الواقع، لكي يجتمعوا في واقع آخر.

ويصيروا أمة موحدة شفهياً، تملك دستوراً واحداً، بلغة واحدة، من دون جهاز إداري قادر على ترجمة وحدتها إدارياً.

في حضور صيغة الجامع، يعاد الأمر إلى نصابه، وتظهر أمتنا العربية في ضوء النهار، بمثابة أمة كاملة التجهيز والعدة، لا تنادي بتحقيق آمال الإنسانية في العدل فحسب، بل تمتلك الجهاز الإداري القادر على تحقيق العدل بالفعل.

إن كل كلمة في تراثنا، تفسر نفسها إدارياً في نظام الجامع:

التوحيد :

أن يجتمع الناس المتفرقون بين الطوائف، تحت سقف بيت جامع واحد.

المسؤولية الشخصية :

المواطن لا يمثله مواطن آخر، ولا ينوب عنه حزب أو إمام أو طائفة.

مبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

الناس مسؤولون جماعياً عن صياغة القوانين.

يوم الجمعة :

الاجتماع دوري وله موعد رسمي محدد.

الدعوة إلى المجادلة بالحسنى:

أن يجمعنا النقاش، بدل أن يفرقنا.

تحية السلام عليكم:

جماعة لا ترفع غير شعار الجماعة.

الأمر بخفض الصوت واستنكار صوت الحمير:

يعني أننا أمة، تعرف شروط النقاش.

نداء المؤذن ((الله أكبر. الله أكبر)):

يعني أن مجتمعنا ليس فيه مواطن صغير.

كل كلمة في لغة العرب، تنطق حية في نظام الجامع، كل تعاليم الإسلام العالمية تفسر نفسها إدارياً، في نظام دقيق، موجه ضد سيطرة المؤسسات، يلتقي فيه المواطن شخصياً مع المواطن شخصياً، لتبادل وجهات النظر في كل قضية على حده، وعرضها للنقاش العلني، في مجتمع مسؤول، محرر شرعاً من أهواء كل سلطة أخرى غير سلطة الجماعة.

في هذه الصيغة، تلتقي شريعة العرب مع دستورهم، وتصبح وحدتهم واقعاً إدارياً.

وأكثر من كل شيء آخر، تختفي الخلافات القائمة الآن بين الشيعة والسنة، والأكراد، والدروز، والأمازيغ، والنصارى، واليهود.

فالخلاف بين هذه الطوائف، سببه إلغاء صيغة الجامع، وتعطيل الجهاز الإداري الذي جمعها في الأساس، تحت سقف بيت إداري واحد.

وهو إجراء طارئ، وغير شرعي أصلاً، لأنه خروج صارخ على النسخة الأصل.

فالأمة الإسلامية، اكتمل نموها شرعاً، في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم ، وليس بعد وفاته.

هذه حقيقة غيبها الزمن الآن وراء ستار كثيف من الخلافات الفقهية، لكنها حقيقية في جوهر الشرع نفسه، اختار الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤكدها شخصياً في خطبة الوداع، واعتمدها القرآن، باختتام الوحي في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة/ ٣].

كل خلاف وقع بين طوائف أمتنا بعد هذه النقطة، هو خلاف حول الإدارة، وليس حول العقيدة، فالشيعة والخوارج، لم ينفصلوا عن السنة، بل عن الإدارة الأموية.

والأمازيغ لم يقاتلوا ضد العرب، بل قاتلوا إلى جانبهم، ضد أسرة عربية واحدة، اغتصبت لنفسها حق العرب والأمازيغ معاً.

واليهود والنصارى، لم يفرزوا أنفسهم في طوائف، بل فرزهم محاسب الخليفة الأموي لكي يجمع منهم إتاوة أهل الذمة.

إن كل انقسام وقع بيننا، وقع بعد غياب صيغة الجامع، لأن أمتنا العربية قابلة للقسمة ـــ فقط ـــ في غياب هذه الصيغة بالذات.

فمن دون نظام الجامع، تنفصل لغة العرب عن شريعتهم، ويتورط العرب أنفسهم، في مواجهة ثلاث مشاكل إدارية، موجعة جداً، وغير قابلة للحل.

المشكلة الأولى: أن الطوائف غير الإسلامية، وغير العربية، التي احتواها دستور الحكم الجماعي، لا يمكن احتواؤها سلمياً في أي صيغة بديلة أخرى.

ومن المحتم أن تنفصل، أو تصبح مصدراً للعنف.

المشكلة الثانية: إن العرب أنفسهم، الذين جمعهم نظام الجامع، لا يملكون شيئاً آخر يجتمعون عليه.

فلا هم من أصحاب رأس المال، لكي يلتقوا على حرية الربح، ولا هم ماركسيون، لكي يلتقوا في حزب لينيني، وليس لديهم ثمة مكان شرعي واحد، يستطيع أن يجمعهم على جبهة مشتركة.

المشكلة الثالثة: إن نظام الإدارة الجماعية في الإسلام، نظام قام على إلغاء صيغة الجيش المحترف، والأخذ بصيغة الجهاد الجماعي.

وهو إجراء دستوري، مستمد من مبدأ المسؤولية الشخصية، لكن نقطة الضعف فيه، أن الجماعة المسلحة، إذا خسرت سلاحها مرة، لا تسترده مرة أخرى حتى تقاتل بالحجارة.

في مواجهة هذه المشاكل الثلاث، وقفت أمتنا العربية مكتوفة الأيدي، منذ أربعة عشر قرناً حتى الآن، وقد تظل واقفة هكذا إلى الأبد.

فلا شيء، في ثقافة العرب، أو في واقعهم، من شأنه أن يمنع صراع الأقليات، أو يجمع الأغلبية على طريق واحد، أو يتصدى لمنطق القوة الغاشمة، بقوة شرعية أكبر، سوى صيغة نظام الجامع، فقط، لا غير.

وهي صيغة لم يخسرها العرب في واقعهم الإداري فحسب، بل خسروها في تفسيرهم للإسلام نفسه، وتورطوا في قبول تفسيرات منحرفة، تكلمهم عن كل صيغة ممكنة، ما عدا الصيغة الصحيحة في نظام الجامع.

فالذين يطالبون بتطبيق الشريعة الإسلامية، يخلطون مقدماً، بين وظيفة المسجد، ووظيفة الجامع، ويتخلون بذلك عن الجهاز الإداري الوحيد القادر فعلاً على تطبيق الشريعة.

والذين يدعون إلى نظام الأحزاب، يبدأون في الأساس بتجاهل صيغة الجامع، وإخراجها نهائياً من قائمة الحلول المطروحة.

وهو موقف نجم عنه، ظهور أحزاب بين العرب والمسلمين، تدعو نفسها بكل الأسماء، وتمثل كل الطبقات، من دون أن يظهر بينها حزب واحد، يتوجه إلى صيغة الجامع، أو يتبنى نظام الإدارة الجماعية.

رغم أن مثل هذا الحزب، قد يكون هو التنظيم السياسي الوحيد الذي تسنده قوة شرعية فعلية في واقعنا وتراثنا معاً.

كل الأطراف متفقة على تجاهل صيغة الجامع.

فالرأسماليون والماركسيون والأخوان المسلمون، يلتقون جميعاً على هذا الهدف.

وهو لقاء مميت حقاً، لأمتنا العربية بالذات، لأنها أمة قابلة للانقسام إلى ما لا نهاية، من دون نظامها الإداري، الذي جمعها أول مرة تحت سقف بيت واحد.

في ضوء هذا الواقع، ازدادت صيغة الجامع غياباً عن ثقافتنا السياسية المعاصرة، حتى أصبح مجرد طرحها للنقاش، فكرة ((لا تليق)) بروح العصر.

فليس ثمة فرصة حقيقة الآن في ثقافة العرب أو في واقعهم، لاستعادة هذه الصيغة، أو طرحها بين الحلول المقترحة، أو الدفاع عنها ضد أصحاب المصلحة في تدميرها.

إلا بجهد إداري مركز، قادر على اختراق جدار الصمت، والصمود في معركة طويلة معقدة، لإيصال صوت الناس إلى الناس، ومواجهة فكرنا السياسي المعاصر، بإبعاد الكارثة الدستورية والإدارية التي حلت بأمتنا في غياب نظام الجامع.

وهي معركة قاسية حقاً، لكنها مضمونة النتائج، بموجب أربعة بنود أساسية، في منطق المعركة نفسها:

البند الأول: إن أمتنا لا تملك بديلاً شرعياً من صيغة الجامع.

فلا نظام الأحزاب، ولا نظرية الحزب اللينيني، قادر على احتواء مبدأ المسؤولية الشخصية الذي يقوم عليه الشراع الإسلامي.

البند الثاني: إن الدعوة إلى تطبيق الشريعة، لا تتم شرعاً، إلا بتطبيق نظام الإدارة الجماعية القادرة على احتواء كل الجماعة.

ورغم أن المؤسسة الإسلامية، قد تكفلت حتى الآن، بتجاهل هذه الفريضة بالذات، وراء ستار من ادعاء الغيرة على أداء بقية الفرائض، فإن أمتنا لا تزال تملك النسخة الأولى من دستورها الشرعي الذي بايعت عليه الرسول صلى الله عليه وسلم شخصياً، ولا يزال بوسعها أن تقرأ هذه النسخة بلغتها الأصلية، وتكتشف موضع التزوير، بمجرد أن تشير إليه إصبع.

البند الثالث: إن اللغة العربية نفسها، لا تصلح للتعبير عن شرع آخر سوى شرع الإسلام، فهي لغة مرتبطة بحرفية النص القرآني، والقرآن هو دستور الإدارة الجماعية.

وكل محاولة للفصل بين الإدارة وشرع الإسلام، تتورط فوراً في فصل اللغة نفسها عن واقع الناس.

البند الرابع: إن صيغة الإدارة الجماعية في الإسلام، صيغة موجهة شرعاً، لإنهاء نظام الجيش المحترف، وإحياء نظام الجهاد الجماعي، وهو

تشريع لم يلفت انتباه ((الإخوان المسلمين))، بسبب منهجهم القائم على تجاهل دستور الإدارة الجماعية، لكنه سلاح شرعي حقيقي في يد أمتنا العربية، لا بد أن تدعوها الحاجة إلى اكتشافه، للخلاص من ورطتها في نظام الجيش المحترف الذي لا تملك سبيلاً آخر للخلاص منه على أي حال[1].

➢ العدل وسلطة الغالبية :

كيف يأمر الله بالعدل، من دون أن يأمر بسلطة الأغلبية ؟

كيف تصبح الدعوة إلى (حكم الله) فريضة، ما دام الحكم نفسه في يد شخص أو عائلة أو طائفة أو حزب ؟

كيف يكلف الله الإنسان بأن يكون (مسؤولاً عما كسبت يداه)، من دون أن يوفر له الوسيلة الشرعية لحمل هذه المسؤولية؟

كيف يكون الله عادلاً، إذا لم يضمن الناس شرعاً وعملياً؟

الإجابة الأولى، إن الأمر لا يحتاج أصلاً إلى إجابة، لأن الله لا يبالي بأهل الدنيا، ولا يهمه منهم سوى أن يؤدوا له الفرائض شاكرين وساجدين وصائمين وساكتين إلى أن يموتوا ويدخلوا الجنة. وخلال هذه الرحلة الطويلة إلى العالم الآخر. لا يملك المواطن ثمة ما يفعله لضمان مصيره ومصير عياله،

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء -، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م.ص 207 ومابعدها

سوى أن يظل تحت رحمة (أهل الحل والعقد) من محترفي السياسة ورجال الدين ورؤساء القبائل. فإذا نجح هؤلاء السادة في إقرار بعض العدل، يضمن المواطن لنفسه كسرة الخبز وجرعة الماء. وإذا قادتهم الظروف إلى كارثة محققة، يدفع المواطن ثمن فشلهم من كسرة الخبز وجرعة الماء. غير ذلك ليس ثمة خيار. غير ذلك ليس ثمة شريعة.

مشكلة هذه الإجابة، أنها مجرد محاولة قاسية لتبرير واقع أكثر قسوة. فمنذ قيام نظام الدولة، كان الحكم في يد (أهل الحل والعقد). ومنذ قيام نظام الدولة، كان المواطن مجرد بيدق على رقعة الشطرنج، يعيش ويموت بإرادة اللاعبين، ويشيّعه الكهنة إلى العالم السفلي، داعين له بحسن الختام. ولو كان هذا الواقع هو الشريعة، لما كان ثمة حاجة إلى شريعة أصلاً. فقانون الغابة وحده كفيل بحفظ أي نظام قائم على منطق القوة، من دون معونة من الآلهة.

الإجابة الثانية ــ والصحيحة ــ أن الدين نفسه قد جاء أساساً لفك الحصار المفروض على صوت المواطن، وضرب نظرية (أهل الحل والعقد) بالذات. فمبدأ مسؤولية الإنسان عما كسبت يداه، لا يمكن إقراره إلاّ في مجتمع قائم على الاقتراع الحر، يملك فيه كل مواطن ــ وكل مواطنة ــ صوتاً شرعياً ومسموعاً في شؤون الإدارة وصياغة القوانين. ومن دون هذا المبدأ، لا أحد يحتاج إلى (شريعة من السماء)، لأن كل قضايا أهل الأرض الأخرى، قابلة للحل على الأرض.

إن الدين الذي لا يضمن العدل للأغلبية في نظام إداري محدد ببنود الدستور، لا يستحق اسم الدين، ولا يستطيع أن يجمع الناس حوله إلاَّ بوسائل الوعد والوعيد وغسيل المخ التي يتولى الفقهاء تطويرها لحساب الإقطاع في حلف شيطاني، ينتحل لنفسه صفة القداسة بالذات. وهي المشكلة التي عانى منها الإسلام منذ الانقلاب الأموي على الأقل.

فالإسلام ــ من دون سلطة الأغلبية ــ ليس ديناً، بل جثة دين. إنه مجرد توليفة من الوصايا التي تدعو إلى العدل والخير والصلاح. لكنها وصايا من ورق ــ مدفونة بين الورق ــ لا تملك قوة القانون، ولا تستطيع أن تفرض نفسها إلا بقدر ما يسخرها الحاكم في خدمة أغراضه الخاصة. وقد أفرط الحكام المسلمون في استغلال هذه الظاهرة إعلامياً، من تأسيس جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذين يتولون إجبار المار على أداء الصلاة، إلى قطع أيدي صغار اللصوص في الميادين العامة من باب الحرص على تطبيق الشريعة. لكن أحداً من هؤلاء الحكام لم يؤسس أبداً جماعة لمراقبة بنود الميزانية، أو ضمان حرية الصحافة، أو رفع الحصار عن صوت المواطن شبه الأخرس، في شهادة واضحة على أن الدين الذي لا يكفل العدل للأغلبية، يصبح وسيلة لقهر الأغلبية بالذات.

فأين تذهب من هنا؟

الثابت هنا أن القرآن نفسه لا يتردد في القول بأن ركن الإسلام الأول، ليس هو الصلاة والزكاة وأداء الشعائر ــ كما تزعم نظرية القواعد

الخمس ـــ بل هو مبدأ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الذي لا يمكن تطبيقه إلاّ في مجتمع قائم على سلطة الأغلبية. فقد جاء في سورة التوبة: ﴿والْمُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ويُطِيعُونَ اللّهَ ورَسُولَهُ﴾[التوبة/٧١]. وتقديم الأمر بالمعروف على بقية الالتزامات، لا يستقيم تبريره لغوياً، إلاّ باعتباره تقديماً للمرتبة والأهمية في القيام بشؤون الولاية.

أكثر من ذلك، جاء في سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ واسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصِيراً﴾[النساء/٩٧]. وهو تقرير صريح بأن الخوف والضعف وقلة الحيلة، لا تعفي المواطن من مسؤوليته عما يقع عليه من الظلم، ولا تعفيه من واجبه في تأمين حقه ـــ وحق عياله على الأقل ـــ في حياة عادلة كريمة، ولو اضطر إلى الهرب على وجهه في أرض الله الواسعة.

ويلفت النظر في الخطاب القرآني، أنه ليس موجهاً إلى شخص الحاكم أو أعضاء مجلس الشورى أو نواب الأمة أو أهل الحل والعقد، بل إلى جميع المواطنين من دون استثناء، بغض النظر عن موقع المواطن أو لونه أو طائفته. فالشورى في شرح الإسلام، ليست «فرض كفاءة» فقط، بمعنى أن يتولاها النواب كفاية عن بقية الأمة، بل هي «فرض عين»، أي فريضة يلتزم بأدائها كل مواطن شخصياً. أو كما قال ابن تيمية: (إذا كان جماع الدين

هو أمر ونهي. فالأمر الذي بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف. والنهي الذي بعثه به، هو النهي عن المنكر، وهذا نعت النبي ﷺ والمؤمنين. وهذا واجب على كل مسلم قادر).

فأين نذهب من هنا؟

ثمة طريقتان: الأولى، أن ننكر واقعنا الحرج، ونكتم صوت العقل، مصرّين على القول بأن الإسلام (هو ما وجدنا عليه آباءنا. وإنّا على آثارهم لمقتدون). وهي وصفة عملية جداً، من شأنها أن تغلق باب النقاش من أوله، وتضمن لنا أربعة عشر قرناً أخرى من تقليد السلف الصالح، نقضيها في حماية رعاتنا من الملوك والرؤساء والسلاطين الذين نجحوا حتى الآن في أن يكفلوا لنا موقع الصدارة بين أكثر شعوب العالم تخلفاً وفقراً. فنحن حالياً أمة تتسول لقمة عيشها اليومي من دول الشرق والغرب، وتعيش على الصدقات والهبات، وتعاني من مآسي الحروب الأهلية على طول المنطقة الممتدة من الصحراء الغربية إلى قرى الأكراد في العراق، وتتلقى الهزائم على جميع الجبهات الصغيرة والكبيرة، وترزح تحت أسوأ نظم الحكم التي عرفها التاريخ، وتبدو مضحكة ــ ومبكية أيضاً ــ مثل مهرج مات في منتصف العرض.

في ضوء هذا الواقع، يلزمنا أن نتذكر قول القرآن: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ واللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وفَضْلاً﴾[البقرة/٢٦٥]. فهذا

قول يعلن صراحة أن الإسلام الذي نعايشه الآن هو إسلام الفقر والفحشاء، وأننا متورطون في وعود الشيطان جهاراً، ومن دون أمل في رحمة الله.

الطريق الأخرى ـــ والأكثر مشقة ـــ هي أن ننظر إلى الواقع في عينه، وننصت ملياً إلى صوت الحق. فالإسلام الذي ورثناه عن أسلافنا، ليس هو الإسلام الذي بشّر به القرآن، بل نسخة ناقصة عنه، ومشوهة إلى ما لا نهاية. إنه مجرد بديل فقهي، صنعه الإقطاع على مقاسه، بأن سلبه قلبه وصوته معاً، وأحاله إلى صنم أجوف، قد يشبه الإسلام في شكله ولغته، لكنه يختلف عنه عملياً، بقدر ما يختلف الميت عن الحي. وإذا كنا حريصين على جوهر الدين حقاً، ويهمنا أن نلتزم بروح النص ومحتواه، فإن علينا أن نراعي أن جميع نصوص القرآن، وفتاوى أصحاب المذاهب[1] وخبراء التشريع الإسلامي، قد التقت على القول، بأن الإسلام لا يقوم من دون سلطة الأغلبية، وأن كل محاولة لتطبيق الشريعة من دون إشراف المواطن على سير الإدارة وإصدار القوانين، فكرة موجهة عمداً لضرب الإسلام باسم الإسلام.

من هذه النقطة، يبدو الهدف واضحاً وغير قابل للتمويه:

فما دام كل مواطن مسؤولاً شخصياً، عما يحدث له، وعما يحدث من حوله، بموجب مبدأ شرعي صريح، هو قوله تعالى:﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى/٣٠].

1- ذهب ابن تيمية في (الحسبة) إلى القول: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. وإن الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام.

وما دام الإسلام لا يقوم من دون مسؤولية الأغلبية عن سير الإدارة وضمان العدل، بموجب فريضة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

وما دام أداء الفرائض المقدسة، لا يتم في الشارع، بل يحتاج إلى اجتماع رسمي منظم ـــ ومعترف به شرعاً ـــ يضمن لكل مواطن على حدة، صوتاً مسموعاً في شؤون الإدارة والحكم.

وما دمنا ملتزمين بجدية الحوار، حول القضايا الجادة على الأقل، فلا بد أن نرى، أن الإسلام لا يملك وسيلة إدارية لأداء أهم فرائضه سوى لقاء يوم الجمعة وحده، فقط، لا غير.

هذا اللقاء سرقه الفقه لحساب الإقطاع، وأحاله من اجتماع إداري موجه للإشراف على أداة الحكم، إلى قداس للصلاة والوعظ، يجتمع فيه المواطنون لكي لا يتكلموا. وهو انقلاب متعمد ومعلن ومستمر، تسانده قوى منظمة جبارة، قد لا يستقيم لنا سبيل الخروج منه، إلاّ بجهد جماعي طويل النفس، له القدرة على تحقيق المعجزات.

الخطوة العملية لتحقيق هذا الجهد، لا بد أن تتمثل في تأسيس (حزب الجامع) الذي سيتوجه لتطوير لقاء يوم الجمعة من مناسبة للصلاة والوعظ، إلى مؤتمر للديمقراطية المباشرة على مستوى القاعدة، ويمتلك بذلك أوسع ـــ وأفضل ـــ برنامج سياسي عرفه العرب طوال تاريخهم بأسره.

الصفة الأولى لهذا الحزب، أن جميع خلاياه قد تأسست فعلاً، واكتمل تعدادها بالملايين في كل حارة وشارع على امتداد الوطن العربي. وهي خلايا حية، ومستعدة للعمل فوراً، ولا تحتاج إلى استدعاء، لأنها في حالة انعقاد دائم كل أسبوع من كل شهر من كل سنة.

الصفة الثانية، أنه حزب لا يحكم، بل يدعو إلى تحكيم الأمة. فهو لا يمثل مصالح العمال أو أصحاب رأس المال، ولا يهدف إلى أن يكون بديلاً من بقية الأحزاب، بل يهدف إلى حفظ التوازن بين جميع المصالح، بإخضاع القرار النهائي لمصلحة الأغلبية.

الصفة الثالثة، أنه حزب غير فقهي بل إسلامي. وهي فكرة قد تبدو متناقضة، لكنها في الواقع خالية من التناقض. فالإسلام شريعة لا تعترف بسلطة الكهنة أو الأحبار أو الفقهاء، ولا تميز بين عقيدة وأخرى، ولا تتقيد بحرفية النص بل بمصلحة الناس على اختلاف طوائفهم وألوانهم. وإذا كانت هذه الشريعة قد خسرت طابعها العالمي الآن، فذلك أمر مرده إلى تغييب صوت الناس وراء فتاوى الفقه بالذات.

إن (حزب الجامع) يستطيع أن يعيد الإسلام وجهه الجميل، وينقذه من عبودية التاريخ والفلسفة، ويكسب المعركة الصعبة ضد الإقطاع والأصولية، ويمنح أمتنا أول تنظيم سياسي قادر على ضمان صوت المواطن شرعاً وعملياً. وهي منجزات قد تبدو أشبه بالمعجزة في ضوء واقعنا الحرج، لكن الإسلام حقق هذه المعجزة ذات مرة بين قبائل من العرب المعزولين في عتمة القرن السابع، وليس ثمة ما يعوقه عن تحقيقها مرة أخرى بين شعوب عربية متطورة، تتخاطب عبر الأقمار الصناعية على عتبة القرن الواحد والعشرين.[1]

1- إسلام ضد الإسلام –شريعة من ورق – رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م. ص18

➢ الشورى :

الشورى مصطلح لا يفسر نفسه، في لغة الإدارات الرأسمالية والعمالية المعاصرة.

إنه لا يعني انتخابات مجلس النواب، لأن الإسلام لا يعترف بالنيابة.

ولا يعني انتخابات الجمعية المركزية للحزب، لأن الإسلام لا يعترف بسلطة الحزب أصلاً.

وليس هو ((التصويت)) على القرار، لأن المسلم مسؤول أيضاً عن سلامة التنفيذ.

إن الشورى مصطلح آخر، من إدارة مختلفة أخرى، لا تقوم على التمثيل النيابي، أو الحزبي، بل تقوم على المشاركة الشخصية للمواطن نفسه، في مؤتمر، له سلطة أعلى من سلطة الدولة، يرتاده المواطن في موعد محدد، لكي يضمن من خلاله، إشرافه المباشر على أداة الحكم.

إشراف المواطن شخصياً، لا ينوب عنه نائب، ولا يمثله حزب لأن غيابه يحرمه من حقه في التصويت على القرار، من دون أن يعفيه من عواقب القرار نفسه، بما في ذلك ــ عادة ــ أن يصادروا بيته، ويرسلوا عياله إلى خط النار.

إشراف المواطن المستمر.

دورياً، ومن دون انقطاع، فالقرار الإداري الذي يلزم إصلاحه، يلزم

إصلاحه فوراً، وليس في وقت لا حق، أو بعد إجراء الانتخابات، أو انتهاء فترة الرئاسة.

لأنه خلل على نطاق واسع، ثمنه أحياناً، أن يموت ماية ألف مواطن — كما يحدث لشعب الولايات المتحدة في فيتنام — قبل أن تبدأ الانتخابات،÷ وتنتهي فترة رئاسة جونسون.

إشراف المواطن المنظم.

دائماً، وبأقصى رغبة في التدقيق.

فالمؤتمر الجماعي ليس ندون، بل جلسة عمل، بموجب دستور، ولائحة إدارية، وجدول أعمال، ولجنة صياغة، وأجهزة متابعة.

إنه موقع إداري ملتزم بأداء مسؤوليات محددة، في زمن محدد.

ومن دون هذا الالتزام، لا تصبح الإدارة الجماعية، بديلاً جاداً من أي إدارة أخرى.

إن العلاقة الفارقة بين مصطلح الشورى، ومصطلح الديمقراطية، هي أن الشورى، لا تتم بلقاء ممثلين عن الناس، بل بلقاء الناس أنفسهم، مما يعني في لغة التطبيق، أن تخضع الإدارة مباشرة لسلطة الأغلبية، وتعاد صياغة القوانين بلغة الجماعة، فيظهر في بنودها للضعيف حق، وللمرأة حق، وللطفل حق، وللمراهق حق، وللعجوز حق، وتبدو الحياة الدنيا — حتى من دون أشجار — جنة على الأرض.

إن الخلط بين معنى الشورى، ومعنى الديمقراطية، خطأ موجة لحرمان الفقراء من هذه الجنة إلى الأبد.

فالمرأة والطفل والمراهق والعامل والعجوز، قد يظفرون ببعض الحماية في بلدان رأسمالية غنية، لديها ما يكفي لسد حاجة الناس في كل العمار.

أما في بلدان الفقراء، ف، غياب الشرع الجماعي، يضع القانون تلقائياً، في أيدي رجال أقوياء، عراض الأكتاف، قادرين على القتال بالبنادق، ويطرد الباقي خارج مظلة القانون، ويخلق واقعاً، تكون فيه المرأة والطفل والمراهق والعامل والعجوز، هم فقراء الفقراء، الذين يدفعون ثمن غياب الإدارة الجماعية نقداً، وكل يوم.

أما الرجال الأقوياء المسلحون، فإنهم يستطيعون دائماً، أن يلتقوا في مؤتمر ما، ويقتسموا الوطن بينهم ديمقراطياً، يسلبوا حقوق الأغلبية الصامتة، بحجة أن القانون لا يحمي الساكتين.

هذا ما يحدث عندما تخلط ثقافة ما، بين كلمة الشورى وكلمة الديمقراطية، كما فعلت مثلاً ثقافتنا العربية المعاصرة.

إنها تضيع حق الضعيف والفقير والمغفل، من دون أن تكفل للغني الحاذق ما يضمن حقه.

فالديمقراطية الغربية، تبدأ بمعركة انتخابية ضارية، يتصارع فيها عمالقة كبار جداً، من أصحاب رأس المال، والاتحادات العمالية.

وهي معركة شرعية في الغرب، لأنها تجري بين خصوم متكافئين، داخل مجتمع فاحش الثراء، تزداد ثرواته ضخامة كل يوم.

أما في مجتمع فقير — يزداد فقراً كل يوم — مثل مجتمعنا العربي.

فإن هذه المعركة ليست شرعية أصلاً، بسبب غياب الخصوم المتكافئين من جهة، وتدخل الاحتكارات الرأسمالية من جهة أخرى.

إن الانتخابات البرلمانية والحزبية من دون مظلة الشرع الجماعي لا تعني في واقعنا العربي المعاصر، سوى مسرحية أوروبية مترجمة، يحضرها جمهور محدود جداً من ((المثقفين)).

لكن ثقافتنا التي قامت على الخلط، بين الشورى والديمقراطية، لا تستطيع أن تقيس الفرق الهائل، بين مسرحية في وطن ما، وواقع في وطن سواه، ولا تملك حلاً لأزمتها الهائلة، سوى أن تورط نفسها في الدعوة إلى ديمقراطية كلامية، هدفها أن تتجاهل الواقع المر، بالكلام الحلو عن واقع سواه.

فمثلاً: قضية تحرير المرأة، قضية ساخنة في ثقافتنا العربية المعاصر، منذ أن سمعت ثقافتنا بهذه القضية في عصر نابليون.

إنها معركة كلامية يقاتل فيها محاربون تقدميون من طراز قاسم أمين، ضد محاربين رجعيين من كل طراز، في جبهة تقول إن الإسلام ينادي بتحرير المرأة، ضد جبهة تقول إنه لا ينادي، من دون أن يلاحظ أحد من أطراف النزاع، إن الإسلام في الواقع، ينادي بتحرير الإدارة أولاً، وقبل كل شيء.

وأن تأهيل المرأة للعمل تحت إدارة إقطاعية، فكرة لم يقلها نابليون نفسه، لأنها لا تحرر امرأة، ولا رجلاً، ولا تغير شيئاً من واقع المرأة الأبدي، باعتبارها جارية ــ أو موظفة ــ مسخرة لخدمة طاغية ما.

إن المرأة تستطيع أن تخرج من بيتها إلى ميدان العمل، لكن ذلك لا يضمن لها العمل نفسه، ولا يعني أن زوجها لا يجلس عاطلاً طوال عمره في البيت، وأن ولدها لا تعتقله المخابرات، وأن ابنتها لا تبيع جسدها للسياح، وأن أمها العجوز لا تموت من والوحدة والجوع.

ذلك كله، لا تضمنه المرأة الحرة، بل الإدارة الحرة.

وهي حقيقة تبدو بديهية جداً، لكن ثقافتنا الكلامية المعاصرة، أظهرت قدرة ملحوظة على تجاهل البديهيات .

ومثلاً: الدفاع عن حقوق الطفل، لا يشمل الدفاع عن حقوق المراهق في ثقافتنا العربية.

إن الطفل، لا يحتاج إلى من يشهد ببراءته، يظفر في ثقافتنا الكلامية، بمحامين متطوعين للمناداة برعايته من العقد النفسية.

أما المراهق، الذي يواجه عقداً نفسية بالفعل، فإن أحداً لا يقول في حقه كلمة، ولا يشهد ببراءته، في وجه التزمت الديني المفتعل، ولا يقول إن المراهقة مرحلة شرعية مثل مرحلة الطفولة.

إن قوانيننا تعادي الجسد الإنساني، وتعادي سنة الله في خلقه، وتعادي

الشباب والجمال، وتختفي وراء برقع خفيف من ادعاء الحياء، بحجج خيالية بحتة، وتجد في ذلك عذراً كافياً، لحشر ملايين المراهقين في الظلام، باسم العفة والطهارة، لأن مهمة ثقافتنا الكلامية، أن تخفي وجه الواقع القبيح، بالكلام الجميل عن واقع سواه.

ومثلاً: الدفاع عن الوطن، لا يشمل الدفاع عن المواطنين في ثقافتنا العربية المعاصرة، إن الوطن، الذي هو الأرض والماعز، يصبح وطناً مقدساً، له حرية مقدسة.

أما المواطن شخصياً، فلا أحد يقدس حريته، ولا أحد يعترف بهويته نفسها.

((فالشيوعي))، يريده أن يكون ((شيوعياً)).

والرأسمالي يريده أن يكون رأسمالياً.

والفقيه يريده أن يكون فقيهاً.

لكن أحداً لا يلاحظ، أن المواطن العربي المسلم، يعيش في وطن عربي مسلم فقط.

وأن تغيير التربة تحت قدميه، يجعله مجرد بيدق خشبي على رقعة من الأرض، قد يموت من أجلها، من دون أن يعيش فيها:

ومثلاً: الدعوة إلى إحياء الإسلام، لا تشمل الدعوة إلى إحياء الإسلام كله في ثقافتنا العربية.

إن المواطن المسلم يتلقى سيلاً لا ينقطع من المواعظ التي تدعوه إلى أن يلتزم بحدود الدين، وأن، يكون مواطناً أميناً وصادقاً وشجاعاً وزاهداً، لكن أحد لا يتذكر أن يشرح له، كيف يكون مواطناً أميناً في إدارة إقطاعية، وصادقاً في وطن يعادي حرية الرأي، وشجاعاً في مجتمع لا يحمي مواطنيه، وزاهداً في حضارة رأسمالية، لا تفرق بين الزاهد وبين الدرويش.

إن ثقافتنا العربية، تتكفل بإسداء النصح، وتبذل جهداً كلامياً هائلاً، للقول بأن الإسلام، يستطيع أن يغير واقع المسلمين.

أما كيف يحقق الإسلام هذه المعجزة، من دون نظامه الإداري، فذلك أمر لا يدخل في باب إسداء النصح.

في ظروف هذه الثقافة الكلامية، ولدت الدعوة إلى الوحدة العربية المعاصرة، في صيغة كلامية حقاً.

إنها لم تقصد أن يجتمع العرب تحت إدارة واحدة، بل أن تجتمع الدول العربية في جامعة واحدة.

وهي فكرة طائشة، كانت تشبه تجميع ملايين النحل، في خلية تحتلها عشر ملكات.

كل ما حصده العرب من ورائها، في نهاية المطاف، هو أن أصبحت وحدتهم، مجرد دعوة كلامية في إدارات قائمة على سياسة اللدغ.

وأصبحت هذه الدعوة بديلاً كلامياً من المنهج المطلوب.

وخسر وطننا شرعه الجماعي، وخسر الجامع وظيفته الإدارية، وفقد الناس كل أمل في الوحدة، وهم يتحدثون عن الوحدة بالذات.

إن نظام الجامع ـــ وليس جامعة الدول العربية ـــ هو الذي يوحد العرب، لأنه نظام يجمعهم بالفعل في مكان إداري واحد، تحت شريعة إدارية واحدة.

لكن ثقافتنا العربية المعاصرة، تشغل نفسها بإنشاء جامعة الدول العربية، لأنها أصلاً مجرد ثقافة كلامية ضارة نشأت في أحضان السلاطين مثل أي جارية، وسخرت نفسها لخدمة الحكام على حساب الأمة، و لم يعد بوسعها أن ترعى مصالح الناس، إلا إذا كان الناس نوعاً من النحل[1].

➢ تطبيق حدودالشرع :

تطبيق حدود الشرع فريضة تعني أن يكفل المسلم أولاً، نزاهة التحقيق، ونزاهة القضاء وهي كفالة لا يستطيع المسلم أن يتعهد بها جدياً، إلا في مؤتمر له ـــ على الأقل ـــ سلطة أعلى من سلطة البوليس[2] .

➢ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

معناه إدارياً أن يشارك المسلم في صياغة القوانين، لأن القوانين هي صاحبة الأمر والنهي، وهي وحدها مصدر المعروف والمنكر معاً[3].

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص149

2- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص35

3- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص36

> **الجامع ليس هو المسجد :**

فالجامع ليس هو المسجد، وليس مدرسة لتلقين علوم الدين، بل جهاز إداري مسؤول عن تسيير الإدارة جماعياً، بموجب مبدأين أساسيين في جوهر العقيدة الإسلامية نفسها:

المبدأ الأول: إن الإسلام لا يعترف بشرعية الوساطة، فلا أحد يشفع لأحد، ولا أحد ـــ بالتالي ـــ ينوب عن أحد، أو يتولى تمثيله في حزب أو مؤسسة.

وهو تشريع تفسيره في لغة الإدارة، أن يصبح كل مواطن مسؤولاً شخصياً عما تفعله أجهزة الإدارة .

المبدأ الثاني: إن الإسلام لا يبطل بقية الأديان، بل يحتويها، ويلتزم بالتعايش الإيجابي معها، مما يتطلب جهازاً إدارياً قادراً على جمع طوائف مختلفة ـــ وأجناس مختلفة ـــ تحت إدارة جماعية واحدة.

لقد ظهر الجامع، للإيفاء بحاجة هذا الشرع الجماعي، إلى مؤتمر إداري على مستوى القاعدة.

وكان ظهوره في بداية الأمر، فريداً، وصاعقاً مثل زلزال.

فلأول مرة في تاريخ الحضارة، تجتمع طوائف الناس المختلفة، تحت إدارة واحدة، محررة من أهواء المؤسسات الطائفية والعسكرية.

وهي فكرة لا تزال متطورة، حتى بمقاييس القرن العشرين.

أما بمقاييس القرن السابع، فقد كانت فكرة متطورة، وغريبة عن عالمنا، بقدر كل الغرابة فقي عالم المعجزة .

فحتى ذلك الوقت، لم يكن ثمة أحد قد سمع بكلمة الناس أصلاً، ولم تكن الإنسانية، قد تعلمت أن تنطق اسمها بعد، أو اكتشفت أنها تستطيع أن تلتقي تحت شرع واحد.

بل كانت الفكرة، أن يستمد الناس هويتهم من أسماء إداراتهم الإقطاعية، وينقسموا في ما بينهم إلى دوائر مغلقة، قابلة للقسمة إلى ما لا نهاية.

وطوال سبعة آلاف سنة من عمر الحضارة، كان الناس قد عرفوا أنفسهم تحت أسماء كثيرة، منها (شعب الله المختار، وأتباع السيد المسيح، وأتباع بوذا، والإغريق والرومان) لكنهم أبداً لم يكتشفوا اسمهم الأصلي الواحد، ولم يكن بوسعهم أن يلتقوا تحت إدارة عالمية واحدة، إلا بعد ظهور الشرع الجماعي في الإسلام، الذي أصلح الانحراف من أساسه، واستبدال الإدارة الإقطاعية، بإدارة خاضعة لإشراف الناس أنفسهم في نظام الجامع.

إذ ذاك — فقط — اكتشف الناس، أن لهم اسماً مشتركاً واحداً، وجلسوا للتفاهم باسم الناس.

هذا الاجتماع له موعد محدد في الإسلام، لا يزال يحمل اسمه حتى الآن، هو يوم الجمعة الذي ينعقد فيه مؤتمرات جماعية داخل العاصمة وخارجها، يحضرها المسؤولون عن الإدارة — ومنهم الخليفة شخصياً — وتخصص

لنقاش شؤون الحكم، من قرارات الحرب والسلام، إلى قوانين التجارة، وتوزيع السلع، والمخالفات الإدارية.

وإذا كان يوم الجمعة قد أصبح الآن يوماً مخصصاً للصلاة وحدها، فإن ذلك أمر مرده إلى أبطال الشرع الجماعي نفسه، وتغييب وظيفة الجامع وراء وظيفة المسجد، بموجب تفسيرات سياسية طارئة، تم تحريفها عمداً عما جاء في النسخة الأصل.

وهي تفسيرات، نقطة الضعف الأبدية فيها، إنها ملزمة بالتعايش مع النسخة الأصلية إلى الأبد.

ففي سورة الجمعة يحتفظ القرآن الكريم بهوية أخرى لهذا اليوم.

وهي هوية لا تبدو مختلفة فحسب، بل بعيدو جداً، عن هوية يوم الجمعة، كما نعرفه الآن، إن هذا اليوم موعد للقاء بين جميع الديانات، وليس بين أتباع دين معين واحد.

في مطلع سورة الجمعة، يعلن القرآن الكريم قيام أمة جديدة من العرب الأميين، الذين جمعهم الإسلام، تحت شرع واحد، فأصبحوا أمة حكيمة ومباركة وصاحبة كتاب.

وهي مقدمة لا تفاخر بالعرب، بل بالشرع الجماعي: ﴿هُوَ الَّذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ وإن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة/2].

فالعرب لم يصيروا علماء، بل صاروا أحرارا من سلطة الجهل والإقطاع.

وهي نعمة أبدية حقاً، لأنها انتصار لجميع الناس في جميع الأجيال ﴿وآخَرينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وهُوَ العَزيزُ الحَكِيمُ﴾ [الجمعة/3].

إن الشرع الجماعي ــ وليس العلم ــ هو كنز الناس وملاذهم الوحيد من الظلم والفقر، وطريقهم الوحيد إلى الرخاء العام ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ واللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم﴾[الحديد/21].

فالآيات الأربع الأولى في سورة الجمعة لا تتحدث عن الصلاة، بل عن الإرادة.

إنه لا تقول، إن صلاة المسلمين هي طريق الناس إلى الجنة، بل تقول إن شرعهم الجماعي، هو الطريق، وهو الحكمة، وهو العلم، وهو الشرع الذي لا شرع سواه.

ولهذا السبب تحولت الآيات إلى نقاش اليهود، الذين كانوا بدورهم، أصحاب كتاب سماوي غريب، يتبنى نظرية عنصرية قائمة على (عهد) خاص بين الرب وبين اليهود وحدهم، وموجهة ــ شرعاً ــ ضد مبدأ الشرع الجماعي بالذات.

﴿مَثَلُ الَذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْملُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَذينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمينَ﴾[الجمعة/5].

واليهود لم يكذبوا بالتوراة، بل كذبوا بأنها تساوي بينهم وبين الناس، وهي فكرة عاشت عليها المؤسسة الدينية اليهودية.

أما المواطن اليهودي نفسه، فلم ينله منها سوى أنه عاش مغترباً بين الناس، مثل بقرة مقدسة، بحجة أن التوراة تضمن له الجنة بعد الموت.

وهي خدعة غير حكيمة.

يكشفها رد حكيم واحد: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[الجمعة /6].

والآن التوراة لم تضمن لليهودي جنة على الأرض، فإن اليهودي الورع، لا يعول جدياً على جنة في السماء.

﴿ولا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ واللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[الجمعة/ 7].

فاليهودي يعرف أكثر من سواه، أن الوصايا العشر، من دون شرع جماعي، مجرد نصائح مميتة في مجتمع أقطاعي قائم على خرق هذه الوصايا بالذات.

إن سورة الجمعة، لا تذكر لقاء الجمعة، حتى تفرغ من موضوع اليهود.

لأن شريعة اليهود بالذات، هي الدعوة الانعزالية الوحيدة التي تستند إلى كتاب سماوي.

وهو تزوير سافر، عملت الآيات على فضحه، لإزالة العقبة المصطنعة أمام اجتماع عالمي، يضم كل الأديان.

إذ ذاك ـــ فقط ـــ صدر الأمر بالاجتماع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[الجمعة/9].

والذين آمنوا في لغة القرآن مصطلح يضم المسلمين، واليهود، والنصارى، والبيض، والسود، والفرس، والعرب.

ودعوتهم إلى ذكر الله في يوم الجمعة، لا تعني أن يؤدوا شعائر صلاة واحدة، بل أن يلتقوا في اجتماع واحد، يبدأ بالصلاة، لأن الصلاة الجامعة، تنهي عن الفحشاء والمنكر جماعياً.. ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الجمعة/9].

فالغياب عن حضور الاجتماع، خسارة محققة، حتى إذا تم لأغراض الكسب.

لأن المواطن الذي يخسر أشرافه على الإدارة، يصبح عرضة لخسائر أخرى لا يعلمها، منها أن يغلقوا حانوته من دون أن يدري، ويبيعوا عياله في السوق.

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الجمعة/ 10].

لأن الشرع الجماعي وحده، يضمن حق السعي للجميع، ويضمن عدالة الإنفاق، ويضمن التمييز الواضح والمستمر، بين ابتغاء فضل الله، وبين ابتغاء فضل سواه.. وقد ذكرت الصلاة لأنها هي خاتمة الحوار في لقاء يوم الجمعة.

فالمواطن ملزم بحضور الاجتماع إلى نهايته، ولا يحل له أن يخرج منه، قبل أن يعرف ما صدر خلاله من قوانين، ويقف شاهداً على نفسه في الصلاة، بأنه حضر وسمع وفهم وبارك ودعاً.

لهذا السبب، جاء في خاتمة الآيات قوله تعالى:﴿وإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ ومِنَ التِّجَارَةِ واللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[الجمعة/ 11].

والتفسير السائد لهذه الآيات، أن قافلة تجارية، دخلت المدينة، والناس في الصلاة، فخرجوا للشراء وتركوا الرسول ﷺ قائماً يصلي وحده.

وهو تفسير يتجاهل، إن النص القرآني لا يذكر التجارة فقط، بل اللهو أيضاً، لأن لا يتحدث عن خروج الناس من الصلاة ــ فهذه فكرة مستحيلة أصلاً ــ بل يتحدث عن خروجهم من مؤتمر إداري، لا يجوز لهم أن يغيبوا عنه.

والواقع، أن مشكلة العمل الجماعي التي يصعب حلها، هي أنه عمل من دون مقابل ملموس، لا يطال المواطن من ورائه كسباً شخصياً، ولا يرى عائداته على مستوى الجماعة، ولا يلتزم به حقاً، حتى يعرف ما عند الله في حجب الغيب، ويكتشف أن الإدارة الجماعية، هي ضمانته الحقيقية الوحيدة التي تضمن عنقه شخصياً، وتضمن رزق عياله في وطن محرر من مراكز القوى.

من دون هذا الاكتشاف، لا يصبح المواطن مؤهلاً للعمل الجماعي، ولا يرى أبعد من مكاسبه الشخصية في ميدان اللهو والتجارة، ولا يعرف ما عند الله، حتى يأتيه ما عند الله إلى باب الدار.

إن القرآن يحتفظ بوظيفة أخرى، ليوم الجمعة، غير وظيفة الصلاة الجامعة التي نعرفها الآن، لأن الحذف وقع في وقت لاحق، عندما استولى الأمويون على الحكم، وضربوا نظام الإدارة الجماعية في الجامع.

إذا ذاك، بدأت المحنة، فغاب الجامع وراء المسجد، وغاب المؤتمر الإداري وراء خطبة الأمام، وأصبح الإسلام، هو أداء شعائر الإسلام، وتفرق إتباع الملل الأخرى، وخسر القرآن دولته العالمية، وأصبح يوم الجمعة موعداً لصلاة المسلمين الساكتين.

أما قبل المحنة، وقبل وصول الأمويين إلى الحكم، فقد كان يوم الجمعة يوماً له وظيفة طارئة على التاريخ بأسره، وكان نظام الجامع يسجل لنفسه مآثر مجيدة، في أول صفحة من كتاب الحكم الجماعي.

ورغم أن هذه الفترة لم تدم في الواقع سوى أربع وعشرين سنة، من أصل أربعة عشر قرناً من عمر الإسلام، فإن كل ما يعترف المسلمون بشرعيته في تراثهم الإداري، يعود إلى هذه الفترة الخاطفة القصيرة، وحدها، فقط، لا غير.

ففي هذا العصر، عاش الخلفاء الأربعة الذين تتعمد المصادر الإسلامية أن تميزهم عن سواهم، في قائمة خاصة، تحت اسم الخلفاء الراشدين.. وهي تسمية تعني في الواقع الخلفاء الشرعيين.

لأن نظام الجامع انتهى تلقائياً، باستيلاء معاوية على الإدارة، وانتهت معه بيعة الجماعة، صاحبة السلطة الشرعية في الإسلام.

وقد توالى على سدة الخلافة بعد ذلك، عشرات الخلفاء من معاوية إلى عبد الحميد، في دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة واسطنبول، لكن أحداً منهم لم يدخل قائمة ((الراشدين))، ولم يحصل على هذا اللقب، رغم ولعلهم الشديد بالحصول على الألقاب فالشرعية في الإسلام، ليس مصدرها، أن يكون الحاكم مسلماً، بل مصدرها أن يكون المسلمون مسؤولين مباشرة عن تطبيق الشرع.ومن دون هذا الشرط، لا يتحقق مبدأ المسؤولية الشخصية، ولا يصبح الإنسان مسؤولاً عما كسبت يداه، ولا تلتقي الطوائف تحت سقف بيت واحد، ولا يتغير شيء في العالم القديم البائس، الذي جاء الإسلام داعياً لتغييره، ولو بقوة السلاح.

إن حجب الشرعية عن جميع حكام المسلمين منذ عصر الخلفاء الراشدين، سر معلن، حفظته أجيال الناس، بإغلاق قائمة الخلفاء الشرعيين، عند الخليفة علي بن أبي طالب، في شهادة جماعية، على أن ما حدث بعد ذلك باسم المسلمين من دون نظام الجامع، حدث في غياب المسلمين أنفسهم.وأن حضور الصلاة الجامعة في يوم الجمعة، لا يعني دائماً أن الناس مجتمعون.إن إغلاق قائمة الخلفاء الراشدين فجأة شهادة معلنة، من مواطن خطفه معاوية، ووضع على رأسه سيافاً مأجوراً، لكي يقطع رأسه ــ ويسبي بناته ــ إذا اعترض على هذا الخطف، لكن ذلك لم يمنعه من أن يسجل اعتراضه على أي حال[1].

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص42

➢ تحريم الربا :

تحريم الربا فريضة التزم بها الإسلام وحده من دون بقية الشرائع والأديان، لأنها فريضة، لا يمكن أداؤها في أي نظام إداري آخر.

غير نظام الإدارة الجماعية في الإسلام.

فرأس المال يستطيع أن يحقق ربحاً بطريقتين:

الأولى: أن يستثمر في قطاعات إنتاجية مثل الزراعة والصناعة والصحة والتعليم، ويحقق ربحاً، قد يزيد على سعر الفائدة، لكن الإسلام يعتبره من الربح الحلال.

الثانية: أن يستثمر رأس المال في قطاعات لا تقوم على ((الإنتاج)) بل على ((الاستغلال)) في مشروعات وهمية، مختلفة من العدم، مثل تمويل نوادي القمار وبيوت الدعارة، ومصانع التبغ والخمور والسلاح، وفي هذا المجال، قد ينقص ربح رأس المال عن سعر الفائدة، لكن الإسلام يعتبره كسباً حراماً على أي حال.

قاعدة هذا التشريع، أن الإسلام ينظر إلى رأس المال من حيث موقعه في خدمة الجماعة.

فالربح الحلال، هو ثمرة الاستثمار الصحيح، لسد حاجات الناس الحقيقية.

والربح الحرام، هو استغلالهم لمصلحة رأس المال، بخلق حاجات وهمية ــ وضارة ــ في مجتمعهم.

إن الدعوة الشائعة الآن، لإلغاء سعر الفائدة من المصارف الإسلامية، لا تضع في اعتبارها هذا الفرق الأساسي، بين التمويل الصحيح، وبين التمويل الضار، بل تنادي بإلغاء سعر الفائدة من أساه.

وهي دعوة مربية، تقول على لسان الإسلام، ما لم يقله الإسلام.

وتلعب بالنار في عالم رأسمالي مفتوح لتهريب أموال الفقراء إلى مصارف الغرب.

والواقع أن تسمية البنك الإسلامي تسمية غير إسلامية أصلاً، لا يتورط فيها سوى مستشرق متنكر في ثياب فقيه، لأن الإسلام لا يملك ((بنوكاً)) بل يملك ((إدارة)).

ومن دون هذه الإدارة، لا شيء يفرق بين الحلال وبين الحرام.

الدعوة إلى تطبيق حدود الشريعة — من دون نظام الإدارة الجماعية — دعوة سياسية لا علاقة لها بالدين، هدفنا أن تعلق في عنق المواطن، مسؤولية ما يفعله جهاز القضاء في الدولة، من دون أن تعترف لهذا المواطن، بحقه في الإشراف على سير التحقيق، وسير المحاكمة.

إن قطع يد السارق، لا يصبح تطبيقاً لحدود الدين، إلا بموجب شرع جماعي، يكفل نزاهة التحقيق والقضاء، ويكفل أن يسري القانون فعلاً على جميع السارقين من دون استثناء.

في غياب الشرع الجماعي، كان القضاة المسلمون، يصلبون صغار

اللصوص من طراز ((سعدون الشاطر)) في أسواق بغداد، عندما كان الخليفة المعتصم، ينهب مال الناس بكلتا يديه، لكي يدفع رواتب جيش كامل من حراسه الأتراك، ويبني لهم مدينة جديدة في سامراء.

أم الخليفة المكتفي، فقد جمع في خزانته ــ كما قال المقريزي ــ (63 ألف قطعة من الأثواب الخراسانية، بالإضافة إلى ثلاثة عشر ألف عمامة، وثمانية آلاف من البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب، وثمانية عشر ألفاً من الأبسطة الأرمنية).

فيما يسجل ابن خلكان، ثروة واحد من حراس الخلفاء، هو الأمير سيف الدين تنكز، على النحو التالي: (19 رطلاً من الزمرد والياقوت، 1250 حبة لؤلؤ كبار مدورة، 240 ألف مثقال من الذهب، عشرة ملايين درهم فضة، 4 قناطير مصرية من المصاغ والعقود، 6 قناطير فضيات (1!200 000دينار).

والسيدة ((الخيزران)) والدة هارون الرشيد، بلغت ثروتها ــ كما قال المسعودي وابن الأثير ــ 160 مليون درهم.

والسيدة ((قبيحة))، أم المعتز، بلغ ثروتها مليونين من الدينارات، بالإضافة إلى ما أورده الطبري عن جواهرها الشهيرة، ومنها (مكوك من الزمرد، ونصف مكوك لؤلؤ كبير، ونحو كيلجة ياقوت أحمر) ثمنها مليونا دينار.

إن القاضي الذي يتغاضى عن مثل هذه الجرائم الاقتصادية، ويتطوع لمطاردة صغار اللصوص الجائعين في الأسواق، باسم تطبيق الحدود الإسلامية، رجل لا يستطيع أن يحمي الناس ممن يسرقهم علناً، و لم يكلفه القرآن أصلاً، بمهمة تطبيق الحدود، فالتكليف صادر إلى الجماعة، بضمير الجماعة، وليس إلى قاض وحيد.

وما دام الناس خارج السلطة، فإن ذلك في حد ذاته، يعطل تلقائياً إقامة بقية الحدود)[1].

➢ الجهاد :

هذه الفريضة، تشريع جديد على تاريخ الإدارة، مثل اسم الإسلام نفسه.

فحتى القرن السابع، لم يكن ثمة من سمع بكلمة((الجهاد)) أو كان بوسعه إن يفرق بين حرب تقع لأسباب شرعية، وبين حرب تقع فقط.

لأن الشرط الوحيد للحرب الشرعية، هو أن تكون دفاعاً عن حق الناس، وليس معركة بين أدارهم، وهي فكرة لا ترد أصلاً، إلا في إدارة جماعية، تحت أشراف الناس بالفعل.

لقد فتح الشرع الجماعي في الإسلام، باباً جديداً، أمام الجندي المحترف، الذي يقاتل دفاعاً عن مصالح الإقطاع، لكي يقاتل دفاعاً عن مصلحته، ومصلحة عياله شخصياً.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص44

وهو باب، لم يكن بوسع نظام آخر أن يفتحه، سوى نظام يقوم على مبدأ الإدارة الجماعية.

أن التاريخ يشهد فجأة ظهور مقاتل جديد، جاء للرد على الجندي المأجور، وإلغاء عقده الروماني، بعقد شرعي مختلف:

فالبند الأول في دستور الجهاد، أنه فريضة وليس مهنة، لأن الجماعة المسؤولة عن الإدارة، مكلفة شرعاً بالدفاع عنها.

والبند الثاني، أن المجاهد يقاتل ـــ فقط في سبيل الله والمستضعفين في الأرض من الرجال والنساء والولدان.

وهي قائمة لا تضم الإمبراطور، ولا تفرق بين لون وآخر، أو بين دين وآخر، لأن الجهاد حرب مشروعة للدفاع عن حق الناس في إدارة واحدة، وليس مذبحة بين الإدارات.

والبند الثالث، إن قرار الحرب في دستور الجهاد، لا يتخذه رئيس الدولة، بل يتخذه الناس شخصياً، مما يتطلب شرعاً، أن لا تنشب الحرب ـــ عندما تنشب ـــ إلا بموافقة الناس وعلمهم.

تحت راية هذه الشريعة، احتشد أول جيش تحرير عالمي يشهده التاريخ، قاتل فيه المسلمون والأقباط واليهود والزنوج والامازيغ والفرس، لتحرير رقابهم من قبضة الإدارات الإقطاعية، صاحبة الجيوش المأجورة في الجزيرة العربية، وفارس، وبيزنطة، وفي أول الأمر، بدا هذا الجيش في قوة الإعصار.

فقد تكفل نظام الجامع، بتوفير الصيغة الإدارية القادرة على تنسيق الجهد الجماعي، والتقى الناس على اختلاف طوائفهم في نظام إداري فريد، لا يفرقهم بين الإدارات الإقطاعية، بل يجمعهم في إدارة محررة واحدة.

وعندما تولى عمر بن الخطاب، أمر الخلافة، كان الجهاد قد تصاعد إلى معركة تحرير عالمية واسعة النطاق، وكانت الجيوش المحترفة، تتراجع مهزومة على جبهة امتدت من فارس، عبر أراضي الشام ومصر، إلى طرابلس في شمال افريقية.

وبعد ذلك، ارتكب الخليفة عمر خطأً حاسماً، مميتاً، واحداً: لقد سمح لواليه على الشام، وهو رجل صحابي يدعى معاوية بين أبي سفيان، بتشكيل جيش نظامي محترف.

ورغم أن الخليفة لم يكتشف، موضع الخطأ الدستوري، فإن قلبه، كان يوجس خيفة من هذا القرار، إلى حد دعاه، أن ينطلق شخصياً، من المدينة إلى الشام، في جولة تفتيشية مفاجئة على جيش معاوية المريب .

وصله راكباً على حمار، واستقبله معاوية في موكب مهيب من الفرسان النظاميين، الذين تم تدريبهم على غرار جنود بيزنطة.

وطوال الطريق، كان الخليفة، يجلس واجماً على حماره، وكان معاوية يسير بجانبه، ويقود حصانه الشاهق، بين فرسانه ذوي المظهر البيزنطي، في مشهد يكاد أن ينطق بصوت الكارثة القادمة وراء حجب الغيب.

لكن الخليفة، لم يسمع الصوت.

لقد سأل معاوية، عما دعاه إلى تشكيل قوات نظامية.

وأجابه معاوية في نقطتين، الأولى، أن موقع الشام على حدود بيزنطة، يحتم تواجد قوات دفاعية دائمة، والثاني، أن أهل الشام أنفسهم، قد يرتدون عن الإسلام.

وإذا ذاك قال له الخليفة ((ما سألتك عن أمر، إلا خرجت منه)) وهي إجابة لا تقول، أن معاوية رجل بريء، بل تقول ـــ فقط ـــ أن الخليفة، لم يكتشف آثار الجريمة، لأن الجريمة نفسها، لم تكن قد وقعت بعد.

في عهد عثمان، تضاعف جيش معاوية، وبلغ تعداده ستة آلاف مقاتل.

وهي قوة قد لا تبدو كبيرة، بالنسبة لحجم جيوش الجهاد، لكن ميزتها المميتة، أنها كانت قابلة للحشد في أي وقت.

أكثر من ذلك، كان هذا الجيش، تحت قيادة عسكرية ـــ على غرار قيادة بيزنطة ـــ تأتمر بأمر معاوية شخصياً.

وهي مخالفة صريحة لمبدأ الجهاد من أساسه، كشفت عن مدى نجاح هذا الوالي، في تصفية جهاز السلطة الجماعية، وأثارت شكوك جميع المسلمين، ما عدا الخليفة عثمان نفسه، الذي رفض أن يعزل معاوية، أو يجرده من جيشه المأجور بأموال المواطنين.

خلال وقت قصير، تصاعد الخلاف إلى انتقاد علني في الجوامع، وبدأت أجهزة الإدارة الجماعية، تضغط علنا لعزل عثمان، في أول صدام يشهده الإسلام، بين سلطة الجماعة، وبين سلطة الدولة، ورغم أن عثمان لم يقبل أن يحرسه معاوية بجيشه المأجور، فأنه أيضاً لم يقبل أن يعتزل، مما دعا المسلمين إلى حراسته بأنفسهم، في محاولة حكيمة، لإغلاق الباب في وجه العاصفة، لكن عثمان اغتيل سراً، وهبت العاصفة على أي حال.

ورغم أن معاوية، كان وحده، هو المستفيد الحقيقي من وراء هذه الجريمة الخرقاء، وأكثر الناس حاجة إلى معطيات الفوضى الناجمة عنها، فقد أتخذ من مقتل عثمان، ذريعة لإنكار شرعية الإدارة الجماعية من أساسها، وتحصن وراء جيشه النظامي في الشام، معلناً عدم اعترافه بخلافة علي بن أبي طالب، حتى يسلم إليه، من دعاهم في أعلامه الرسمي، باسم ((قتلة عثمان))، وهو طلب يعادل في الواقع، أن يعترف الخليفة رسمياً بعدم شرعية الخلافة نفسها.

في البداية، احتشد جيش غاضب من المجاهدين، للرد على هذا الطلب، وقاده الخليفة لتحدي قوات معاوية الضئيلة، في معركة معروفة النتائج سلفاً.

ورغم أن معاوية قبل التحدي الظاهر، وخرج بجنوده المأجورين، للقتال في معركة ميؤوس منها، فإنه في الواقع، كان ينفذ خطة مدروسة بدقة، وخالية من روح المغامرة، لسببين:

الأول: أن جيش معاوية، رغم شريعته البيزنطية، ومظهره البيزنطي، كان جيشاً من المسلمين الذين يحرم الإسلام قتالهم شرعاً.

وهي فكرة تمثلت في رفع المصاحف، لفك الاشتباك في اليوم التالي لبدء القتال، وأتاحت لمعاوية أن ينفذ بجلده من عين الإبرة، ويضمن انسحابه من معركة خاسرة، من دون أن يستسلم.

والسبب الثاني: أن الجيش المتطوع، يجري تسريحه فوراً، بمجرد أن تنتهي المعركة.

ويحتاج حشده في معركة جديدة، إلى وقت طويل، وثمين جداً، بينما يستطيع الجيش الدائم أن يتواجد للعمل على أي جبهة، بمجرد أن يتلقى أمراً بالعمل.

والواقع، أن رجلاً في خبرة معاوية، لم يكن ليجهل، عجز قواته المأجورة، عن إحراز نصر عسكري على جيوش الجهاد العاملة تحت إمرة الخليفة، لكنه اختار المواجهة المسلحة، لتنفيذ خطة سياسية محضة، مما يؤكد أن فكرة رفع المصاحف لم تطرأ خلال المعركة، بل قبلها بكثير، وأن معاوية لم يخرج للقتال أصلاً، إلا لكي يرفع المصاحف، ويجر الخليفة إلى الدخول في معركة مختلفة أخرى، فرفع المصاحف، يعني الاحتكام إلى القرآن.

والاحتكام إلى القرآن، بالنسبة للخليفة علي بن أبي طالب، هو الاحتكام إلى الأغلبية، لكنه بالنسبة لمعاوية، هو الاحتكام إلى أهل العلم من الفقهاء.

ولعل ورع هذا الرجل، هو الذي دفعه إلى اختيار الفقهاء الورعين، لكنه، كان اختياراً مدروساً بدقة، لضرب نظام الإدارة الجماعية، في المكان الصحيح المميت.

فالإسلام هو الشرع الجماعي نفسه، وليس ما يقوله الفقهاء عن هذا الشرع.

إنه ليس معلومات في الكتب عن دين عادل، بل نظام إداري، موجه لتحقيق العدل في أرض الواقع، بإخضاع الإدارة لسلطة الأغلبية.

من دون هذه السلطة، يختفي الإسلام فجأة من واقع الناس، وتبدو الحاجة ملحة لتعويضهم بإسلام لا يلمس واقعهم.

وهي مهمة استدعت دائماً، أن يصبح الفقهاء ــ وليس الأغلبية ــ هم مصدر الشرعية، وأن يظهر على المسرح رجال يتولون الفتوى في شؤون الإدارة ــ نيابة عن جميع الناس... ولهذا السبب، اختار معاوية أن يرفع المصاحف، ذلك النهار في موقعة صفين.

لقد كان ينفذ مناورة سياسية دقيقة، للحصول على اعتراف، بأن أحكام الفقه ــ وليس أحكام الجماعة نفسها ــ هي مصدر الشرعية في الإسلام.

ورغم أن الخليفة، لم تنطل عليه الحيلة، ولم يوافق على إنهاء القتال، فإن الآلاف من جنوده المتطوعين للجهاد، أغمدوا سيوفهم فجأة، مقتنعين بعدالة الطلب.

لأن الإسلام الذي عرفوه حتى ذلك الوقت، كاشرعاً جماعياً، يدين معوية أمام أي محكمة يختارها، و لم يكن ثمة من يتصور أن الفقه الإسلامي، سوف يعرف شرعاً آخر.

قبل أن يبدأ التحكيم، انشق الخوراج عن سلطة الخليفة.

وعرف الفقه الإسلامي، أول مذهب يجيز الخروج على سلطة الجماعة في الإسلام.

بعد التحكيم، اغتيل الخليفة، وتولى معاوية أمر الدولة، وعرف الفقه الإسلامي، مذهباً ثانياً، يجيز إلغاء سلطة الجماعة من أساسها، بحجة وجوب الخلافة في قبيلة قريش.

بعد وصول معاوية إلى الحكم، ظهر الشيعة، وعرف الفقه الإسلامي، مذهباً ثالثاً، ينكر شرعية الأمويين، بحجة وجوب الخلافة في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم عليه السلام.

بعد ظهور الشيعة، انفتح الباب على مصراعيه، أمام الفقه الإسلامي، لكي يحتوي كل مذهب، يخطر ببال فقيه، وأثبتت خدعة التحكيم، أنها خدعة مميتة، أكثر مما أراده لها وعاوية، وأن تغييب الشرع الجماعي، وراء فتاوى الفقهاء، ليس فقهاً إسلامياً، بل توظيف سياسي للإسلام، ضد المسلمين أنفسهم.

أن المجاهدين الذين اختاروا أن يغمدوا سيوفهم، بعد رفع المصاحف، في موقعة صفين، لم يتمكنوا أبداً من إخراجها ثانية، منذ ذلك النهار.

فقد تولى جيش الأمويين، تجريد المقاومة من سلاحها، وتكفل الأمويون أنفسهم، بدفع ما يكفي من الذهب، لإغراء هذا الجيش، بقصف الكعبة، وقتل الحسين، تحت قيادة عسكريين محترفين من طراز الحجاج بن يوسف، وزياد ابن أبيه.

وبذلك، توقفت مسيرة الإسلام قبل أن تبدأ، وانتهى نظام الإدارة الجماعية، وكسب معاوية دولة لأسرته، وخسر المسلمون كل شيء.

على جميع الجبهات:

خسروا سلاحهم الذي ضمنته لهم فريضة الجهاد، وأصبح للدولة جيش محترف، يدافع عنها بالأجر.

خسروا إداراتهم التي ضمنها لهم الشرع الجماعي، وأصبح للدولة موظفون، يديرونها بالأجر.

خسروا بين المال، وأصبح للدولة خزانة، يديرها محاسب بالأجر.أن يوم الجمعة، يحين في موعده، وينطلق الناس إلى مؤتمرهم الإداري الذي عرفوه في عصر عمر بن الخطاب، فلا يجدون المؤتمر، ولا عمر بن الخطاب، بل يجدون موظفاً في وزارة الأوقاف، يلبس بد رسمية، ويؤدي بهم صلاة الجمعة، ويحدثهم عن الجنة والنار بعد الموت، ويقودهم في الدعاء للخليفة بطول العمر، من دون أن يفسر لهم أين ذهب الخليفة نفسه.

لقد ظهر المسلم المحترف في جبهة فقيه.

ورغم أن الإسلام لا يعتبر الوعظ حرفة، ولا يجيز الاكتساب منها، ولا يعترف أصلاً بشرعية رجال الدين، فإن التاريخ، لم يعرف ديناً ازدحم فيه الوعاظ والفقهاء كما حدث في تراث الإسلام.[1]

➢ أولو الأمر

ـــ رجال الدولة اسمهم في لغة القرآن أولو الأمر.

وهو جمع لا مفرد له، فكلمة (ولي الأمر)، جمعها (أولياء الأمور).

أما أولو الأمر، فإنها مصطلح قرآني لا مفرد له.

لأن دولة الإسلام، لا يتولى أمرها فرد واحد.

مصدر هذا التشريع، أن الحاكم الواحد، مهما أوتي من حب العدل، لا يستطيع أن يكون عادلاً حقاً، لسببين كامنين، في طبيعة الفرد نفسه:

السبب الأول: ن مفهوم الفرد للعدل، مقيد سلفاً بمرحلة عمره.

فالشاب الحديث السن. يخطط لتغيير الدنيا، لأنه لم يتعرف بالدنيا بعد. والعجوز الطاعن في السن، يريدها أن تبقى كما هي، لأنه لا يعرف دنيا سواها.

ورغم أن كليهما، يبدو منطقياً تجاه نفسه، فإن كليهما على خطأ ظاهر، تجاه بقية أفراد الأسرة الإنسانية، التي تضم أعماراً مختلفة أخرى، منها الجنين، والرضيع، والصبي، والمراهق.

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص54

وهم مواطنون شرعيون، يواجهون مشاكل خاصة بهم.

ولا يستطيع أحد أن يمثل وجهة نظرهم جميعاً، أو ينوب دستورياً عن مواطن منهم.

أن الإدارة الإسلامية، لا تصبح إسلامية حقاً، حتى تمثل مصالح الأعمار المختلفة ــ وليس مصالح الطبقات المختلفة فقط ــ بحيث لا يستأثر الأقوياء ببنود الميزانية، ولا يتم إنشاء الجيش، على حساب تعليم الأطفال، ولا يفرض القانون وجهة نظر الفقهاء على المراهقين، ولا يحرم الطفل الرضيع من لبن أمه العاملة، ولا يخسر أحد حقه، لمجرد أنه لم يتعلم الكلام.

السبب الثاني: في بطلان الحكم الفردي، أن مفهوم الفرد للعدل مقيد أيضاً بنوع جنسه، فالرجل لا يستطيع أن يحفظ مصالح المرأة، حتى إذا أوصاه الدين بحفظها.

وقد أوصى القرآن مثلاً، بحق المرأة في الميراث، لكن الحاكم المسلم، لم يعترف أبداً بحقها في الميزاينة.

فلم تكتشف الإدارة الإسلامية حق الأم الحامل، ولم تخصص مستشفيات للولادة، ولم تصرف غذاء للرضع، ولم تنشىء ملاعب للأطفال، ولم تعترف بحق التعليم المجاني، ولم تعالج قضايا المراهقين، ولم تتمكن من تصحيح خطأ واحد، من أخطائها المميتة، طوال ثلاثة عشر قرناً من معايشة هذه الأخطاء.

من جهة أخرى، لا يعني مصطلح أولي الأمر، رجال الدولة الذين أولاهم الناس مهمة الإدارة.

وكلمة أولي الأمر، ليس مصدرها تولى بل مصدرها أولي في صيغة نائب الفاعل.

لأن الفاعل الحقيقي المسؤول عن سير الإدارة حقاً، هم الناس وحدهم، الذين يحصدون ما تزرعه الإدارة على أي حال.

إن رجال الدولة في نظام الإسلام الإداري، موظفون مكلفون، يتم اختيارهم بقرار من الأغلبية في اقتراع حر، على غرار ما يحدث الآن في نظام الانتخابات الحزبية، بفارق تنظيمي واحد.

لكنه حاسم جداً.

فالناخب الحزبي ينتخب السلطتين التنفيذية والتشريعية معاً، مما يترتب عليه، انتقال جهاز الدولة دورياً، بين حكم العمال، وبين حكم أصحاب رأس المال، في دائرة مفرغة، يتولى فيها كل طرف، إلغاء مكاسب الطرف الآخر، بمجرد أن يصل إلى الحكم.

لأن وضع السلطتين التنفيذية والتشريعية معاً بين أيدي الحزب الحاكم، يتيح له أن يغير شريعة الإدارة نفسها.

فإذا حكم العمال، يقومون بتأميم وسائل الإنتاج، وزيادة الضرائب على رأس المال.

وإذا حكم أصحاب رأس المال، يعيدون المرافق المؤممة إلى أصحابها، ويخفضون الضرائب على الأغنياء، بإلغاء برامج الضمان الاجتماعي.

ومشكلة هذا النظام الواضحة، إنه معركة حقيقية، بين أعداء حقيقيين، مما يصعد المواجهة الحزبية في الغرب، إلى حرب معلنة، تدور يومياً، بأسلحة الإضراب والمظاهرات وأعمال العنف والتخريب، ومؤامرات أجهزة الأمن، وتعليقات المراهقين.

في نظام الجامع، لا ينتخب المواطن المسلم سوى السلطة التنفيذية وحدها.

أما السلطة التشريعية، فلها دستور واحد لا يتغير طبقاً لأهواء العمال أو الرأسماليين، ولا يبيح تأميم المال الحلال، ولا يبيح تنمية المال بالربا، ولا يقسم الجماعة الإنسانية إلى طبقات، بل يحتويها في جهاز إداري قادر، على تمثيل جميع الطبقات، وصيانة حق كل فرد في الجماعة، من حق الطفل في الحليب، إلى حق العجوز في التقاعد.

هذا الدستور، لم يسنه الإسلام، اعتماداً على ورع أولي الأمر، بل اعتماداً على نظامه الإداري في الجامع.

فالسلطة الجماعية في حد ذاتها، تضمن تطبيق هذا الشرع تلقائياً.

لأن حق الجنين، يحفظه وجود أمه في السلطة، وحق الطفل، يحفظه وجود معلمه في السلطة، وحق العجوز، يحفظه وجود العجوز نفسه في السلطة.

وإذا اختارت الإدارة أن تعبث بواحد من هذه الحقوق، فإن نظام الجامع لا يضمن إصلاح الخطأ بعد وقوعه، بل يضمن عدم وقوعه أصلاً، لأن الإدارة لا تملك حق التشريع، ولا تستطيع أن تصدر قانوناً، من دون موافقة الناس.

إن الفرق الحاسم، بين نظام الانتخابات الحزبية الذي يقوم على وضع السلطتين التشريعية والتنفيذية معاً في يد الدولة، وبين نظام الجامع الذي يعهد للدولة بالسلطة التنفيذية وحدها، هو أن الإدارة الإسلامية، لا تنتقل دورياً بين العمال وأصحاب رأس المال، ولا تفتح جبهة للحرب بين الطبقات، ولا يلجأ فيه المواطنون إلى أعمال العنف، للإعلان عن قضاياهم، لأن كل قضية جماعية، قابلة للعرض سلمياً في نظام الجامع، أمام القاضي الحقيقي المؤهل، لإصدار حكم عادل فيها.

وإذا كان المواطن الغربي، في نظامه الحزبي، ملزماً بوضع السلطتين التنفيذية والتشريعية معاً في يد الدولة، لكي يتظاهر بعد ذلك غاضباً ضد قرارات الدولة في الشوراع، فإن المواطن المسلم في نظام الجامع، يحتفظ بالسلطة التشريعية لحكم الجماعة، وينتخب جهازاً إدارياً له سلطة تنفيذية فقط، موفراً على نفسه الدخول في دائرة مفرغة، إلى ما لانهاية، وهو نظام لا يبدو أكثر حكمة من نظام الأحزاب فحسب، بل يبدو أيضاً أكثر فعالية.[1]

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص57 ومابعدها

➢ المحترف :

المسلم المحترف مصطلح يشير إلى داعية يدعو إلى الإسلام، لكنه لا يدعو إلى الإدارة الجماعية، إنه مواطن عقائدي، لا ينادي بجمع الناس تحت إدارة واحدة، بل تحت شعائر دينية واحدة، مما يورطه تلقائياً في ثلاث صفات مشتركة مع دعاة العنصرية الدينية في كل العصور:

الصفة الأولى: إنه مواطن يعتبر شعائر الإسلام نفسها ـــ وليس شرعه الجماعي ـــ هي ضمانه الناس إلى الجنة.

وهي فكرة بعيدة جداً عن تعاليم الإسلام.

الصفة الثانية: أنه مواطن لا يشغل باله ما يحدث للناس في حياتهم، بل ما يحدث لهم بعد الموت.

وهي فكرة تتيح له مخرجاً سحرياً من واقعه المؤلم، لكنها بعيدة بدورها عن تعاليم الإسلام.

الصفة الثالثة: إنه مواطن لا واقع له.

ينادي بتحريم الربا، في واقع رأسمالي قائم على الربا، وينادي بالحجاب، في عصر العري، وتحريم الخمر، في عصر مصانع الخمور.

ومنع القمار، في عصر نوادي القمار.

ولا يهمه بعد ذلك، أن كلامه مجرد صوت ضائع في البرية، لأنه كلام من دون إدارة فعالة في واقع الناس.

هذا النموذج المريب لا يجاهد لإنهاء الرذائل من واقع الجماعة، بل يكسب رزقه من تقريع الجماعة على ارتكاب الرذائل، وهي حرفة شرعية معترف بها منذ عصر أنبياء اليهود لكنها ليست دعوة إلى تطبيق الإسلام.[1]

➢ الخطأ والباطل :

الفرق بين معنى (الخطأ) وبين معنى (الباطل)، أن أحدهما ظاهرة عابرة، تنجم عن نقص عابر في المعلومات. أما الآخر، فإنه تحريف عقائدي موجه عمداً ضد الإنسان ومجتمعه معاً. فإذا زعم أحد ما أن الأرض هي مركز الكون، فإن ذلك خطأ، يمكن إصلاحه بقليل من الحساب والصبر.أما إذا زعم، أن اليهود هم شعب الله المختار، فإن ذلك باطل لا هدف له سوى إغراق مجتمع الإنسان في حمام من الدم. إن تغييب هذه الحقيقة عن مناهج الدراسات الدينية، قد أدى إلى كارثة في عالم التوراة، وسوف يؤدي إلى كارثة أكبر في عالم القرآن.[2]

➢ السنن النبوية :

أما السنن النبوية، فهي التعاليم التي أعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم صراحة، وعاش من أجلها، وحارب من أجلها، مثل: قتال الأسر الحاكمة، ورفض الإذعان لمنطق القوة، والدعوة إلى حرية العقيدة،

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء –، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص59

2- إسلام ضد الإسلام –شريعة من ورق – رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص195

والاعتراف بمسؤولية الإنسان عن حاضره ومستقبله، وتحريض الناس على الجهاد المسلح دفاعاً عن حقهم في السلام والعدل. وهي السنن التي عناها القرآن بقوله: ﴿ومَن يَعْصِ اللّٰهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً﴾[الأحزاب/32] لأن هذه السنن ليست عادات شكلية مقيدة بالزمان والمكان، بل قوانين كونية شاملة لا حياة للمجتمع الإنساني من دونها. وإذا كان الفقه الإسلامي قد علمك أن تخلط بين السنّة النبوية وبين العادة الاجتماعية، فذلك أمر مرده إلى أنه ليس فقهاً، بل سياسة تعليمية، جاءت لاستعادة نفوذ الأسر الحاكمة، وإبطال حق الناس في الإشراف على أداة الحكم. وقد كان من الضروري أن تقوم هذه السياسة على فصل الدين عن واقع الأمة، وإعادة تفسير السنّة، باعتبارها مجرد تكرار لعادات مجتمع جاهلي منقرض.

إنني أدعوك إلى أن تقرأ رسالتك مرة أخرى، لكي ترى بنفسك، مدى النجاح الذي أحرزته هذه السياسة التعليمية في تغييب وعي المسلم عن حاضره ومستقبله معاً.[1]

➢ الخلط بين العادة والسنة:

﴿ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ومَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر/7] أما الخلط بين معنى العادة وبين معنى السنّة، فإنه تحريف له أسباب سياسية محض: فالسنن الحقيقية للرسول عليه السلام، تمثلت في دعوته إلى الجهاد المسلح

1- إسلام ضد الإسلام –شريعة من ورق – رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص195

ضد الظلم والاسغلال وسيطرة الأسر الحاكمة، وأكل أموال الأرامل واليتامى، ومصادر حرية المرأة، وتدجين الناس بالقوة والحيلة. وفي دول تحكمها الأسر الإقطاعية بالحديد والنار، يكون من (التقوى) أن تعمل على تغييب هذه السنن الخطرة، وراء دعوة بريئة إلى الختان وإطلاق اللحية ونحر الخرفان، تحت شعار الحفاظ على السنة النبوية بالذات.[1]

➢ الحكم بما أنزل الله :

ليس هو تطبيق الحدود، تحت إشراف حفنة من الفقهاء، بل هو إقامة العدل تحت إشراف جميع الناس. ومن دون هذا الشرط، يصبح تطبيق الحدود (تحت شعار الحكم بما أنزل الله) مجرد خدعة سياسية في مجتمع مقهور، يقطع يد سارق، ويقبّل يد سارق آخر، على غرار ما يحدث حولك كل يوم[٢].

1- إسلام ضد الإسلام –شريعة من ورق - رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص195

2- إسلام ضد الإسلام –شريعة من ورق - رياض الريس للكتب والنشر ، ط 3 ،بيروت 2000م ص 100



إن الفن ليس شكلاً، وليس إحساساً مرهقاً بالظلم أو باللذة، إنه رؤيا حقيقة كاملة التفاصيل والأبعاد للعلاقات الكامنة بين أجزاء العالم وليس ثمة مفر من أن يعترف المرء بأن الكاتب على وجه التحديد يظل كاتباً صغيراً حتى يدرك هذه الحقيقة، وقد كان (بوشكين) يبدي مخاوفه من قصر النظر، وكان (شيلي) يقول (أيحمل البحر القارب أم أن الريح تحمله..) [1]

الصادق النيهوم

النقد الأدبي والفني

1- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص 52



➢ شرعية الأدب :

ـــ الأدب ـــ من دون شرع الناس ـــ ليس منحسراً لخدمة الناس أصلاً.

إنه مجرد سلاح آخر من أسلحة الإقطاع القديمة التي عرفتها الحضارة منذ مولدها في سومر ومصر، فالقصة والرواية والمسرحية والقصيدة، لم تولد لتغيير الواقع ـــ كما يشيع أهل الأدب ـــ بل ولدت لتبريره من وجهة نظر الإقطاع، بموجب أساطير لا علاقة لها بالواقع، مثل قصص الكهنة عن العالم السفلي، وعلاقة الملك بالآلهة، وقوة الساحر الخفية، وحاجة النيل إلى أن ((يتزوج)) فتاة عذراء.

وهي أفكار لا تريد أن تغير الواقع، بل تريد أن تفسره أسطورياً، باعتباره جزءاً من عالم سحري غائب.

وطوال الفترة الممتدة بين عصر فرعون، وبين عصر كافور الأخشيدي، لم تشهد الحضارة الإنسانية، نصاً أدبياً، مكتوباً، ينادي بإنهاء منهج الأسطورة، ورفع عبء الإقطاع عن كاهل الناس، سوى نص واحد، فقط، لا غير، هو نص القرآن الكريم.

باستثناء القرآن، لم تعرف الحضارة حتى مطلع العصر الحديث نصاً مكتوباً واحداً، ينادي بتحرير الرقيق، أو إنهاء نظام الإقطاع، أو الدفاع عن حقوق المرأة، أو الشفقة بالأرض والحيوانات.

ولعل منهج القرآن الإنساني، كان من شأنه أن يخلق أدباً إنسانياً مزدهراً في ثقافتنا العربية، لو أن القرآن لم يخسر تجربة الشرع الجماعي، ويخسر معركته مع الإقطاع، قبل أن تبدأ.

مما أعاد الأدب العربي إلى موقعه القديم، وأغلق مدخل الطريق من أوله.

ومنذ أن صار بوسع الخليفة، أن ينثر الدنانير على رؤوس الشعراء — وأن يقطع رؤوس بعضهم — كان الشعر العربي قد اختار مكانه في جانب الخليفة ضد الناس.

وكان الكاتب العربي، يشغل نفسه بالسجع والبديع والكناية والطباق، وليس بقضايا الدستور، وحقوق المواطن في الضمان الاجتماعي، وحرية الرأي والقول والقضاء.

ورغم ثورة النشر التي عاشها الأدب العربي، منذ عصر المأمون على الأقل.

ورغم المواهب الكبيرة التي ظهرت على مسرح هذا الأدب، فإن لغتنا العربية لا تشهد نصاً أدبياً واحداً، له علاقة بواقع الناس.

فالشعر العربي لا يخاطب العرب، بل ((يتحدث إليهم)) عن كرم الخليفة، ومجالسه، وحبه للشعر، والنثر العربي، لا يشغل باله بما يعانيه العرب يومياً، بل بما يتعين عليهم معرفته حباً في ذات المعرفة، من الموسوعات الخاصة بسلوك الحيوان، إلى سير الشعراء والمغنين.

وقد قدم الأدباء العرب منجزات أدبية متطورة في الشعر والقصة والبحث والمقالة، لكنهم لم يكتشفوا أبداً مهمة الأدب في تغيير الواقع، ولم يتركوا وراءهم نصاً أدبياً واحداً، ينادي بتحرير الأرقاء، أو إنهاء عصر الإقطاع، أو إلغاء نظام الجيش المأجور، أو توفير حق الضمان الاجتماعي للمواطنين، لقد كان أدبنا العربي الإسلامي، أدباً ساكتاً عما يقع للمسلمين، مثل كل أدب عرفه تاريخ الإقطاع، قبل الإسلام وبعده.

لهذا السبب، لم يكن بوسع موهبة فائقة مثل موهبة المتنبي، أن تكتشف الفرق بين تسخير الشعر للهجاء، وبين تسخيره للثورة، ولم تولد أول قصيدة عربية تخاطب الأمة إلا على يد أحمد شوقي، ولم يسجل الأدب العربي، أول رواية عن واقع العرب، إلا في روايات طه حسين، مثل دعاء الكروان، والمعذبون في الأرض.

أما قصص الأطفال ـــ وهذه حقيقة قاسية فعلاً ـــ فإن الأدب العربي لم يعرفها إلا على يد كامل الكيلاني منذ ثلاثين سنة فقط[1].

➢ تعريف النقد :

إن النقد دراسة داخلية للعمل الفني وليس وصفاً للسطح بأي حال، لأن العمل الفني احتراف داخلي صرف يتم خلال عملية خلق هائلة الغموض، وليس من شأن أحد أن يحدد قيمته فوق السطح وحده.

إن ذلك ظلم صارخ في أحسن الحالات[2].

1- محنة ثقافة مزورة – صوت الناس أم صوت الفقهاء -، رياض الريس للكتب والنشر، ط 3 ،بيروت 2000م.

2- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص 37

➢ تعريف الفن :

إن الفن ليس شكلاً، وليس إحساساً مرهقاً بالظلم أو باللذة، إنه رؤيا حقيقة كاملة التفاصيل والأبعاد للعلاقات الكامنة بين أجزاء العالم وليس ثمة مفر من أن يعترف المرء بأن الكاتب على وجه التحديد يظل كاتباً صغيراً حتى يدرك هذه الحقيقة، وقد كان (بوشكين) يبدي مخاوفه من قصر النظر، وكان (شيلي) يقول (أيحمل البحر القارب أم أن الريح تحمله..) [1]

➢ الفن والعلم والخيال :

الفن والعلم معاً مجرد نتاج للعقل وحده ولكن من زاويتين مختلتين، أما الخيال فهو مجرد حاسة أخرى من حواس العقل مثل اللمس والشم والسمع ولكنها حاسة أكثر رقياً وتعقيداً.[2]

➢ مراحل العمل الأدبي :

ـــ إن العمل الأدبي ـــ وكل عمل فني آخر ـــ يمر بمرحلتين مهمتين كليتا الغموض، ومع ذلك فإنهما معاً أصلان حقيقيان في عملية التقييم.

المرحلة الأولى، عندما يقرأ الفنان كلماته لنفسه ثم يقرر بدوافع واضحة ولكن لا يمكن حصرها في أغلب الأحيان. أن يدمره أو أن يسمح بنشره.

والمرحلة الثانية: عندما يستلم القارىء الأثر الفني بطريق القراءة ـــ أو

1- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص 52
2- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص 88

الاستماع في المسرح ــ ثم يقرر أيضاً ــ بدوافع واضحة ولكن لا يمكن حصرها في اغلب الأحيان ــ أن يرفضه أو يقبله.

وبكلمة أخرى: الموافقة على نتاج عملية الخلق من قبل الفنان ثم من قبل القارىء بناء على مقاييس ليس من مهمتها أن تكون واضحة، ولكنها لا بد أن تكون موجودة.

والسؤال الآن: إذا كانت الكلمات وحدها لا تقرر مصير النص بصورة قاطعة، فما الذي يفعل ذلك على وجه الدقة، ما هي مقاييس الفنان والقارىء، وفي أي شيء يتحدان أو يختلفان ولأي الأشياء يخضعان أو لا يخضعان، وما مدى الحق في ذلك كله؟

ولنتحدث ببطء فإن هذه مشكلة شائكة، إن أي عمل أدبي أجده مطبوعاً يكون ــ لا شك ــ قد مر بالمرحلة الأولى في تحديد مصيره، أعني أن العمل مهمته بالنسبة له حتى قرر أن ينشره، وهذه مرحلة ليست من اختصاص أحد في الواقع، وليس ثمة سبيل لأن أقوم بتجربتها لأنها تتم في خلوة تامة، وبطريقة لا يمكن التحكم فيها بين الفنان وبين أهدافه (وأنا أقول هذا الكلام مؤقتاً).

أما المرحلة التالية ــ أعني ما يقوم به القارىء تجاه النص فيمكن نقاشها بالتأكيد لأننا جميعاً طرف مهم فيها، ولنشرع في قراءة النصوص:

في حرجنا المدروز شوحاً

سقف منزلنا اختفى

حرسته خمس صنو برات

فانزوى.. وتصوفاً

نسج الثلوج عباءة

لبس الزوابع معطفاً

وبدخنة من غزل مغزله

اكتسى.. وتلفلفا

الطيب بعض حدوده

أتريد أن لا يعرفا

وحدود بيتي.. غيمةٌ

عبرت، وجنح رفرفاً

حملته ألف فراشة

بيتي، فلا مات الوفا

قرميده، حضن المواويل

الجريحة، واكتفى

قطع الحصى في أرضه

ضوء تجمد أحرفاً..)

ماذا حدث؟

لماذا بدت صورة البيت فجأة جميلة هكذا؟ وانطلقت في أبعاد شعرية حقيقية لا يمكن إنكارها بأي حال؟

ماذا فعل الشاعر بكلماته على وجه الضبط؟

لم يعد ثمة مفر من أن أدخل في نقاش معقد طويل عن استعمال الصور الشعرية.. وأرجو أن تحتملوني[1].

➢ الصور الذهنية

إن ما يسميه نقادنا (كلمات) ليس في الواقع سوى مجموعات من الصور الذهنية ــ سواء كانت كاملة أو مبتورة ــ تظل تتوالي في ذهن المتكلم والمستمع بطريقة تضارع الذهن البشري نفسه في تعقيده، ممتزجة بالتجارب السابقة لكل منها منتجة من ذلك (انطباعاً) جديداً خاصاً ــ مثل بصمة الإصبع ــ لا يتشابه بين اثنين[٢].

➢ قدرة الفنان :

ــ مادام الفنان يعرف أنه لا يستطيع أن ينقل إلى القارىء شيئاً ــ أو أن أصلح الطرق لكي ينقل إلى قارئه أي شيء ــ أن يذكره بانطباعاته وأن يثير في نفسه أكبر قدر ممكن من الانفعالات الخاصة والعامة، فلا بد أن يعمد الفنان مباشرة إلى قدرة قارئه على التخيل ويعمل على إثارتها فجأة وباتصال.

1- الكلمة والصورة، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص 16 ومابعدها.

2- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص 19

والخيال هو تلك الملكة المعقدة تعقيداً يضاهي تعقيد المشاعر نفسها، وهو الطريق الوحيد أمامنا جميعاً لكي نحدث أي اتصال إلى الخارج أو لكي نعبر عن مشاعرنا تعبيراً نرتضيه (ولذا فنحن نحلم بالأشياء التي نتمنى الحصول عليها، ونفعل ذلك بيسر بالغ بينما نجد صعوبة حقيقية في التعبير عنها).

ولكي لا نخرج عن الموضوع بصورة تزيده تعقيداً، أنا أزمع الآن أن أعود إلى نص نزار من أجل الإجابة عن سؤال هام:ماذا فعل نزار على وجه الضبط؟

لقد حشد صوره بطريقة منظمة بحيث انتهت كل صوره إلى قاعدة رصينة هادئة في آخر البيت، ووضع الصور في نظام آخر بحيث تتفاوت درجات ألوانها على النحو الذي نرغب في تصوره، فبينما نشرع في تصوره عباءة البيت الثلجية (وهذا لون أبيض واضح) يضيف الشاعر صورة أخرى عديمة اللون هي العاصفة ويعطيها اسماً يحمل صوتاً لا لوناً.

(زوبعة) مضيفاً إليها الحركة (التي يضيفها خيالنا في الواقع)والتي تخطر لنا بمجرد سماعنا للكلمة[1].

➢ **طريقة الفنان :**

طريقة الفنان في رصف صوره هي التي تحدد قيمة النص الأدبي قبل الكلمات.. وقبل الوزن.

1- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ . ص21

وقبل الظلال والموسيقى الداخلية، وأن الفرق بين الفنان الحقيقي وبين أي دجال ليس هو القدرة على كتابة الكلمات، أو القدرة على الوزن، وخلق الظلال والموسيقى بقدر ما هو القدرة على إيجاد الطريقة الأكثر ملاءمة لرصف انطباعات القارىء ـــ أي الصور ـــ بطريقة تستغل معها خيالاته لربط الصورة الكبرى.[1]

1- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص 25



نحن لا نزال ننظر إلى كتاب الله بعين أعرابي ميت منذ ألف سنة. ولا نزال نتكلم بلسانه، ونردد في كتبنا وإذاعاتنا. ونعلّم أطفالنا. كل ما دار في رأس ذلك الأعرابي الجاهل من أساطير، ابتداء من حبس يأجوج ومأجوج وراء سور من الحديد، إلى فلق البحر، وحوار الشيطان مع آدم، وخروج يونس من بطن الحوت، وتسخير عفاريت الجن في خدمة سليمان. وهي قصص رواها القرآن عن التوراة، وسماها (قصصاً). لكن منهجنا في التفسير، يمضي أبعد مما أراد الله، مصراً على أنها أحداث تاريخية، وقعت بالفعل في المكان والزمان المحددين. لأنه منهج أسطوري، لا يهمه منطق العقل، ولا يراعي شروط العلم التجريبي، ولا يواجه التحدي الذي واجهته الكنيسة، بسبب الحماية الحكومية التي يتمتع بها الفكر اللاهوتي في كل بلد عربي على حدة.[1]

التعامل مع النص الديني

1- إسلام ضد الإسلام – شريعة من ورق ص269 ط3 2000- رياض الريس .



➢ المعنى القرآني أولا :

لكي لا نحرث في البحر دعونا نعود إلى النصوص، فثمة أشياء كثيرة ومهمة يجب أن تقررها النصوص وحدها.[1]

مهمة القرآن

القرآن ليس كتاباً لمحو الأمية، وليست مهمته أن يكشف أسرار العلم للمفسرين.

أنه لا يروي قصص التوراة ولإنجيل، لأنه يعتبرها ((حقائق علمية))، بل لأنه يريد أن يحتويها في صيغة منفتحة، قادرة على تحقيق التآخي بينها في مجتمع إنساني موحد.

وهي مهمته أولها القرآن على خير وجه، وقدم لأجيال البشرية منذ القرن السابع، أول كتاب مقدس، يحتضن جميع الكتب المقدسة، ويتعايش مع جميع الشرائع والأجناس، في أول مجتمع ديمقراطي قائم على مبدأ الاقتراع الحر، وحق الأغلبية في اتخاذ القرار.

وما دامت القبلية العربية قد نجحت في تفويض هذا المجتمع، وإلهاء شريعته الجماعية منذ عصر الأمويين، فإن علم التفسير لا يستطيع أن يخدم غرضاً آخر سوى أن يكون علماً مسخراً لتزوير القرآن بالذات.

والواقع، أن فرض مادة التفسير على مناهج التعليم في المدارس العامة، فكرة لا تثبت شيئاً سوى أن غياب الشرع الجماعي قد سلب المواطنين

1 -الحديث عن المرأة والديانات ص 28 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

العرب جميع حقوقهم الشرعية، بما في ذلك حقهم في حماية عيالهم من عمليات غسيل المخ التي تجري في المدارس العامة باسم التعليم.

فالمدرسة التي تبنيها الحكومة بنقود دافعي الضرائب، ليست مؤسسة حكومية، ولا يجوز أن تتحول إلى أداة تسخرها الدولة لشراء مرضاة رجال الدين، بغرض تفسيراتهم على مناهج الدراسة، تحت شعار العلم بالذات.

لأن هذه الحيلة السياسية السهلة، لا تستطيع أن تخدم العلم أو الدين أو السياسة، وليس من شأنها أن تحقق غرضاً عملياً آخر، سوى أن تنقل خلافات المذاهب الطائفية إلى المدارس، وتخرب الخلية الأولى لثقافة عربية موحدة، وتنشر عدوى الجهل المتراكم في كتب التفسير، مثل وباء وراثي، من جيل إلى جيل.

وهي كارثة قد لا يكتشف حكام الوطن العربي أبعادها، حتى يأتيهم بها الله غاضباً إلى باب الدار.

إن اللعب بالنار، لا يجعل النار لعبة.

والخطأ الذي ارتكبته الحكومات العربية منذ عصر محمد علي باشا، أنها تعمدت أن تسخر القرآن لخدمة أغراضها الإعلامية، في لعبة خطرة ــ وشائنة ــ ما لبثت أن أعطت المفسرين صوتاً لا يملكونه، في شؤون الإدارة والحكم، ومنحتهم حق التدخل في صياغة القوانين ومناهج التعليم معاً، وبسطت ظلهم على أجيال العرب، في تيار أصولي عارم، تواجهه الحكومات العربية الحالية بندم الفأر الذي استأجر لنفسه مصيدة.

فالباشا العربي لم يحقق مكسباً من وراء حلفه مع رجال الدين، سوى أنه أصبح سيافاً في خدمتهم، يقطع لهم أيدي المواطنين ورقابهم، وينهب لهم من بنود الميزانية العامة، ما يكفي لتأمين رواتبهم في عشرات الوظائف المبتكرة، من تلاوة القرآن في برامج الإذاعة والتلفاز، إلى إصدار الصحف، وتأسيس جمعيات الدعوة الإسلامية.

وهي نفقات لا يقرها دستور واحد في العالم، سوى دستور الباشاوات الورعين في الوطن العربي.

إن القرآن ليس وسيلة لكسب العيش، ولا يطوع نفسه لخدمة الإقطاع، ولا يدخر وسعاً في تحذير المفسرين من تسخيره لهذا الغرض بالذات، في آيات صريحة، منها قوله تعالى في سورة (البقرة ١٧٤) ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ ﴾.

وفي سورة (البقرة:٧٩)﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

وفي سورة (آل عمران :٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وفي سورة (آل عمران: ١٨٧) ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾.

هذه الآيات الصريحة، يعتبرها علماء التفسير، موجهة إلى كتبة التوراة والإنجيل وحدهم، مصرين على أنها لا تعنيهم من بعيد أو قريب.

لكن هذا الحل التلفيقي اليائس لا يثبت شيئاً، سوى حاجة المفسرين إلى الحلول الملفقة.

إن حصيلة الجهل النهائية هي أن يصبح جهلاً حاصلاً من دون نهاية.

فالقرآن ليس كتاباً بالشيفرة، ولا يحتاج إلى علم يفسره.

أنه دعوة إلى الشرع الجماعي، مهمته أن يبيد نظم الإقطاع، ويضع نهاية لسيطرة الخرافة على عقول العرب بالذات.

وما دامت ثقافتنا العربية تتعمد أن تتجاهل هذه الحقيقة، فلا مفر من أن تصاب بالعقم، وتنقسم تلقائياً بين رجلين عقيمين، كلاهما ((مثقف)) من دون ثقافة، وكلاهما أكذوبة من دون مستقبل.[1]

➢ **النص والعلم التجريبي :**

إننا في حاجة إلى تصحيح هذا المسار.

فالقرآن ليس مرجعاً لأحداث التاريخ. وليس سجلاً لتجارب العلم والمعرفة. إنه دستور تشريعي، يعتمد مبدأ الجزاء بقدر العمل، لكي يضمن حق الفرد والمجتمع في حياة يسودها العدل والرخاء. وهو. من هذا المنظور. دستور محرر من الباطل، يختلف عن أي دستور تشريعي آخر، في براءته من كل انحياز عرقي أو عقائدي، وفي منهجه المثالي الداعي إلى تقديم الرحمة

1- الإسلام في الأسر ص 171

على المصلحة. أو كما قال القرآن نصاً: ﴿وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت، / ٤١- ٤٢].

أما الزعم بأن القرآن كتاب علم وتاريخ، فإنه ادعاء مريب لا يقول به القرآن نفسه. ولا يمكن تمريره إلا في ثقافة لا تميز بين منهج العلم التجريبي القائم على المشاهدة والتجربة، وبين منهج الخرافة القائم على الخداع الشفوي مثل «علم» تفسير الأحلام، وضرب الرمل، وتسخير ملوك الجن في خدمة المشعوذين. والواقع أن التخلف المريع الذي تعايشه ثقافتنا العربية حالياً، قد لا يعكسه شيء أكثر وضوحاً من منهجنا الأسطوري في تفسير نصوص القرآن.

فنحن لا نزال ننظر إلى كتاب الله بعين أعرابي ميت منذ ألف سنة. ولا نزال نتكلم بلسانه، ونردد في كتبنا وإذاعاتنا. ونعلّم أطفالنا. كل ما دار في رأس ذلك الأعرابي الجاهل من أساطير، ابتداء من حبس يأجوج ومأجوج وراء سور من الحديد، إلى فلق البحر، وحوار الشيطان مع آدم، وخروج يونس من بطن الحوت، وتسخير عفاريت الجن في خدمة سليمان. وهي قصص رواها القرآن عن التوراة، وسماها (قصصاً). لكن منهجنا في التفسير، يمضي أبعد مما أراد الله، مصراً على أنها أحداث تاريخية، وقعت بالفعل في المكان والزمان المحددين. لأنه منهج أسطوري، لا يهمه منطق العقل، ولا يراعي شروط العلم التجريبي، ولا يواجه التحدي الذي واجهته الكنيسة، بسبب الحماية الحكومية التي يتمتع بها الفكر اللاهوتي في كل بلد عربي على حدة.[1]

1- إسلام ضد الإسلام – شريعة من ورق ص269 ط3 2000- رياض الريس .

➢ أخطاء في التعامل مع النص الديني :

أولا : المترجمات :

إن استبدال مصطلحات القرآن، بمصطلحات مترجمة عن شرائع أخرى، خطأ سياسي مميت جداً، لأنه يجعل العرب يفقدون ذاكرتهم سراً، دون أن يفقدوا لغتهم العربية

فكلمة الديمقراطية مثلاً، لا تلغي كلمة الشورى فحسب، بل تلغي ما يتذكره العرب، عن معنى الديمقراطية.

وكلمة الدستور لا تلغي كلمة كتاب الله فحسب، بل تلغي كل ما يعرفه العرب، عن معنى الدستور.

وكلمة برلمان لا تصبح بديلاً من كلمة الجامع فحسب، بل تلغي من ذاكرة العرب معنى البرلمان.

فإذا طالت القائمة ــ وهي في الواقع طويلة جداً ــ فمن المتوقع أن تتضاعف كلمات اللغة العربية، بمقدار ما ينشط المترجمون، ويتعلم العرب، مصطلحاً جديداً، مقابل كل مصطلح يعرفونه في لغة القرآن.

لكن ذلك لن يجعلهم عرباً فصحاء، بل سوف يجعلهم عرباً من دون ذاكرة، لهم لغة عمرها أربعة عشر قرناً، تنقل مصطلحاتها من لغات أوروبية عمرها أربعة قرون فقط، في شهادة معلنة، على أن أمة بأسرها، تستطيع أن تفقد ذاكرتها، وتضيع زمانها ومكانها معاً، بحيلة شفهية محضة. [1]

1- لكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص 19ص33

ثانياً : التفسير المشكوك فيه :

الأمر بالحفاظ على النص الشرعي، من دون ترجمة، أو تغيير، أمر أنفرد به القرآن وحده، من دون بقية الكتب المقدسة.

وأثبت في وقت لا حق، أنه الضمان الوحيد الصحيح، للحفاظ على مصدر الشرع الجماعي.

لأن كل تشكيك في أصالة هذا النص، كان من شأنه أن يفتح بابا فقهياً لتفسير مشكوك فيه، وقد تعمد الرسول صلى الله عليه وسلم عليه السلام، أن يشرف بنفسه على جمع القرآن، وترتيب آياته، وتدوينه، بعد مراجعته، كلمة بكلمة، وحرفاً بحرف.

وبذلك أبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم الأمين، رسالته بأمانة، وجمع دستور الشرع الجماعي، في (كتاب محفوظ)، لا تخرج منه كلمة، ولا تضاف إليه كلمة، ولا يشك أحد في مصدره، لأنه كتاب الله، ولا يشك أحد في نصه، لأنه منقول عن رسول الله شخصياً.

وراء هذا الحصن الذي لا يمكن اختراقه كان النص القرآني، في دولة الأمويين، صوتاً عالياً ــ وخطيراً جداً ــ لا يخاطب الدولة المسؤولة، بل يخاطب الناس، ويحملهم المسؤولية، ويجمعهم تحت أسم واحد، ويحرضهم علناً ضد سلطة فرعون.

وفي دولة يحكمها فرعون شخصياً، كان هذا الصوت، دعوة علنية إلى الثورة المسلحة.

إن الدولة الأموية، تواجه مشكلة لا تعرف لها حلاً، و لم تواجهها دولة إقطاعية من قبل، وهي حاجتها إلى التعايش مع دستور شرعي، لا يعترف بشرعية الدولة الأموية:

فالخليفة يحكم بموجب حقه في وراثة العرش.

والقرآن يقول : إن الشورى هي دستور الحكم الوحيد في الإسلام.

والخليفة رجل هائل الثراء، يمثل طبقة الأغنياء وتجار القوافل وكبار الملاك.

والقرآن يقول:﴿والَّذينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ ولا يُنفِقُونَهَا فِي سَبيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة/ ٣٤].

والخليفة يستند إلى فتاوى رجال الدين، والقرآن لا يعترف برجال الدين، ولا يخولهم حق الفتوى نيابة عن الناس، ولا يميزهم بلباس متميز، كما فعل كتاب العهد القديم.

والخليفة متحصن وراء جيش مأجور، معد للقتال في سبيل الخليفة، والقرآن يستنكر وجود هذا الجيش، ويدعو لتدميره تحت راية الجهاد في سبيل الله.

والخليفة يضع يده على ميزانية الدولة، والقرآن يسمي هذه الميزانية مال الله.

والخليفة ينوي أن يصفي خصومه السياسيين، والقرآن يقول:﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة، /٣٢].

والخلفية يخطط لإنشاء دولة إسلامية على غرار بيزنطة، والقرآن يقول أن إسقاط بيزنطة فريضة واجبة على المسلمين.

في ظروف هذا التناقض الشامل، لم يكن أمام الخلفية الأموي، سوى أن يصادر القرآن، أو يكتشف لنفسه قرآناً آخر لا يناصبه العداء.

ولأن الخليفة، كان رجلاً سياسياً، وليس أحمق مغامراً، فقد ترك القرآن وشأنه، وعمل على إيجاد نص شرعي جديد اسمه الحديث.

لم يكن الرسول ﷺ نفسه، قد أعتمد الحديث مصدراً للتشريع، و لم يجمعه، و لم يوص بحفظه، وبالتالي، لم يكن الحديث كتاباً محفوظاً في صيغة محددة، يصعب تحريفها، أو الإضافة إليها.

ومن هذه الثغرة الطارئة، تسلل إلى الإسلام، نص شرعي جديد، منقول أيضاً عن رسول الله، لكنه ليس هو القرآن.

علم الحديث، أضاف إلى الإسلام، مصدراً جديداً للتشريع على أساس السنة.

وهي فكرة ضمنت للخليفة الأموي، منفذاً فقهياً طارئاً، كان الخليفة في أشد الحاجة إليه:

فالسنة لها ثلاث درجات:

الأولى: ما صدر عن النبيﷺ، باعتباره صاحب الرسالة، مثل تبيين الشعائر، وشرح مجمل القرآن وهي درجة واجبة على جميع المسلمين.

الثانية: ما صدر عن النبي ﷺ باعتباره صاحب السلطة الإدارية، مثل تجهيز الجيوش وجباية الزكاة، والإشراف على الدواوين.

وهذه درجة لا تلزم جميع المسلمين، بل تلزم رئيس دولتهم وحده، باعتباره خليفة رسول الله.

الثالثة ما صدر عن النبي ﷺ، بحكم موقعه على رأس السلطة التشريعية، مثل تعيين القضاة، والفصل في الدعاوى، والإشراف على تطبيق القوانين.

وهي درجة أخرى، لا تلزم جميع المسلمين، بل تلزم رئيس دولتهم وحده.

فإذا كان رئيس الدولة، هو خليفة رسول الله حقاً، وحاكماً شرعياً، انتخبه المسلمون بأغلبية الأصوات، يصبح تقسيم درجات السنة، تحديداً مفيداً لمسؤوليات الفرد والدولة معاً، إما إذا كان الخليفة، رجلاً أموياً، اغتصب السلطة بقوة السلاح، فإن هذا التقسيم يجعله خليفة رسول الله في شؤون الإدارة والقضاء، من دون أن تنتخبه الأغلبية، ويمنحه بذلك حقاً شرعياً، مستمداً من علم الحديث، وليس من إجماع الناس.

لقد فتح الخليفة الأموي لنفسه، في جدار الإسلام، ثغرة على مقاسه بمعاول الفقهاء.

وخلال وقت قصير، كان الحديث قد أصبح علماً جديداً، هدفه المعلن أن يحفظ سنة رسول الله، وهدفه غير المعلن، أن يخول الفقهاء سلطة التشريع

نيابة عن الأغلبية، وقد عمد الإمام الشافعي إلى تحديد مصادر الشرع، في أربعة مصادر، هي القرآن والسنة والإجماع والقياس، وفسر الإجماع على أنه إجماع الصحابة، وليس إجماع الناس أنفسهم، مما ترتب عليه تلقائياً، أن انقسمت السنة بدورها، بين مذاهب الفقه، فأصبح للشيعة أحاديث، وللخوارج أحاديث، وللمرجئة أحاديث، وانفتح الباب المسحور، الذي سيحاول الفقهاء إغلاقه عبثاً منذ ذلك الوقت، حتى الآن، بكتب تصحيح الحديث، وكتب تصحيح التصحيح.

إن الإمام الشافعي، يتقدم بمصادر جديدة للتشريع، ليس بينها سلطة الناس أنفسهم، وهو خطأ لم يكتشفه المسلمون، إلا بعد ظهور الديمقراطيات الحديثة في الغرب، مما ترتب عليه، إن أدار الفقه الإسلامي ظهره، للسلطة الشرعية الوحيدة، وترك الناس الأحياء في أرض الواقع، وذهب يبحث عن حلوله في أقوال الصحابة، طبقاً لمنهجين: أحداهما يسمي نفسه مذهب العقل، لكنه لا يؤمن بقول الناس، بل بعقول الفقهاء المتخصصين بعلوم الفقه.

إنه لا يحيل قضايا الجماعة إلى الجماعة، بل يعالجها في كتب الفقهاء العارفين بالقرآن والسنة، لكي يصدر بشأنها فتوى فقهية، قائمة على النظر والعقل.

وهو موقف يشبه أن يتكلم علماء النحو نيابة عن كل الناس.

والثاني يسمي نفسه مذهب النص، لكنه لا يعني نص القرآن، وهو مذهب الشيعة الذين يقولون بوجوب الخلافة في بيت علي بن أبي طالب، بناء على وصية من رسول الله، رغم أن الوصية نفسها، ليست واردة في أي نص.

على يد هذين المذهبين، تفرق الفقه الإسلامي بين المذاهب إلى ما لانهاية، وظهرت في الإسلام من الفرق الدينية، أكثر مما ظهر في جميع الأديان مجتمعة، في جميع العصور، وغاب صوت الأغلبية، وراء صوت الفقهاء.[1]

ثالثا: غياب التفسير الجماعي الحي:

أكثر من كل شيء آخر، غاب التفسير الجماعي الحي للقرآن.

فلم يعد فرعون، هو الحاكم المتسلط الذي يعيش حياً بين الناس، بل أصبح هو ملك مصر الذي تسلط على اليهود، خلال الألف الثانية قبل الميلاد.

لم يعد الدين، هو الطريق إلى العدل في واقع الناس على الأرض، بل أصبح هو الطريق إلى لتعويضهم في حياة غائبة أخرى.

لم يعد الصابرون هم الناس الذين يصبرون على الشدائد في سبيل تغيير واقعهم.

1- لكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص 90 ‍ 94 .

بل أصبحوا هم الناس الساكتين. الذين ينتظرون أن يتغير واقعهم بطول السكوت.

لم يعد جنود هامان هم الحرس الملكي الذي يسد الطريق إلى قصر الخليفة، بل أصبحوا قصة تاريخية، يرويها القرآن لغرض التاريخ، عن حرس ميتين، كانوا في حراسة طاغية ميت.

لم يعد رسول الله عليه السلام، هو صاحب الشرع الجماعي الذي احتوى كل الأديان، بل صار الإسلام ديناً أضافياً آخر، وغاب شخص الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، وراء أساطير إسرائيلية من عالم السحرة الإسرائيليين.

أن اعتماد السنة مصدراً للتشريع، فكرة غير شرعية أصلاً، إلا إذا كانت الإدارة في يد الجماعة، بموجب نظام قائم على صوت الأغلبية، أما من دون هذا الشرط، فإن أحكام السنة، لا تفعل شيئاً آخر سوى أن تضع السلطتين الإدارية والتشريعية، باسم الشرع، في يدي حاكم غير شرعي، وتحتوي بذلك مصادر الثورة بين الناس، وتبرر لهم غياب العدل، باعتباره قضاء من الله نفسه.

وتشل قدرتهم على فهم القرآن، وتسد أمامهم كل طريق ممكن إلى اكتشاف شرعه الجماعي العادل.

وهي مهمة حققها فقهاء السنة والشيعة بنجاح كبير، وكسوا بها الإدارة السياسية ثوب الشرع، وقدموها للناس بمثابة إدارة شرعية، مستوفية لجميع الشروط.

لكن ذلك بالطبع، كان مجرد كلام جميل، من فقهاء يحسنون الكلام.

أما في أرض الواقع، فقد كانت الإدارة الإسلامية، تواجه كارثة محققة على عتبة الباب.

وكان هولاكو يدق أسوار بغداد، معلناً عزمه على دكها إلى الأرض السابعة.

والخليفة العباسي يحذره من غدر الزمان في رسالة، ختمها بقوله:... أن كل من قصد أسرة بني العباس، كانت عاقبته وخيمة.

فاحذر عين السوء من الزمان الغادر.[1] .

➢ منهج في التعامل النص القرآني :

إشكالية التفسير

سبب المحنة ومحتواها، أن كلمة (العلم) في قاموس العرب، لا تؤدي معناها المألوف في بقية القواميس، بل تشمل أيضاً (علم التفسير) الذي تكفل بشرح نصوص القرآن منذ زمن مبكر جداً، ومنح نفسه حق احتكار الكلمة الأولى والأخيرة في موضوعات معقدة، لا تتجاوز معلومات الفقهاء فحسب، بل تتجاوز وسائل البحث المتاحة لمناهج الفقه بأسره.

وخلال قرون طويلة من ممارسة هذا ((العلم)) المفتقر إلى منهجية العلم،

1- لكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص90 ص91 ص92 ص93 ص94ص95

كان على الثقافة العربية أن تعايش تجربة الجذب المستمر بين مصدرين متناقضين للمعلومات المتناقضة:

الأول: مصدر العلم التجريبي الذي بدأ مسيرته في بلدان غرب أوروبا منذ عصر داروين على الأقل، ونجح في استبدال منهج الكنيسة القائم على تفسير الكتاب المقدس، بمنهج تجريبي جديد، لا يعتبر التفسير علماً، ولا يقبل نتائج البحث، إلا إذا ثبتت في ضوء التجربة.

الثاني: مصدر التفسير الحرفي لنصوص القرآن، الذي انتحل لنفسه صفة العلم الإلهي في ثقافة العرب، وبقي بمعزل عن النقد، بفضل قدرته المتزايدة على تسخير سلطة الدولة لقمع النقاد بالقتل والتشريد، منذ عصر الحلاج حتى الآن.

بين هذين المصدرين المتناقضين لحقائق العلم الأساسية، يواجه العقل العربي المعاصر محنة الحياة بوجهين في رأس مدهوش واحد.

وهي محنة تتجلى علناً في مدارس العرب بالذات التي تحولت إلى ساحات مفتوحة لشد الحبل، بين ثقافتين رسميتين، كلتاهما تعيش على حساب الأخرى.

أن المبارزة تجري يومياً في كل كتاب مدرسي على حدة:

فمثلاً: في درس التفسير، يتعلم الطالب العربي أن الله قد خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن هذه الصياغة القرآنية نظرية علمية تعني ما تقوله حرفياً.

وهو تفسير يفترض، مخطئاً، أن القرآن كتاب في علم الفلك، مهمته أن يكشف للتلاميذ أسرار الكون، لكن الشيخ المفسر لا يلاحظ هذا التكلف الظاهر في فهمه لمهمة القرآن.

في درس الفلك، يكتشف الطالب فجأة أن الله لم يخلق أرضاً ولا سماء، بل خلق فضاء تسبح فيه الكواكب والنجوم، وأن ما يدعى باسم الأرض، كوكب يبدو معلقاً في السماء، من أي نقطة خارج الأرض.

وهي صورة لا تخرج عن إطار علم التفسير فحسب، بل تخلع عنه عمامة العلم وجبّته معاً.

ومثلاً: في درس التفسير، يقال للطالب العربي أن مبدأ النشوء والارتقاء ليس حقيقة علمية، وإن الله قد صنع آدم وحواء مثل تمثالين من الطين، ونفخ فيهما الروح، ثم وضعهما في الجنة، لكي ينعما بالحياة الخالدة إلى الأبد.

وهي قصة يرويها القرآن من باب الوعظ، لكن الشيخ المفسر يرويها من باب المعرفة بتفاصيل التاريخ، آملاً أن يقوده منهج التفسير الحرفي إلى كتر العلم الإلهي.

في درس الأحياء، يكتشف الطالب مدهوشاً مدى جهل المفسرين بمبدأ النشوء والارتقاء، ويعرف من الحفريات أن الله لا يصنع التماثيل، وأن الإنسان ليس مخلوقاً منفصلاً عن بقية الحيوانات، ولا ينتمي إلى أب واحد

أو أم واحدة، بل ينتمي إلى فصائل متنوعة من القرود التي هجرت موطنها الأصلي في الغابة، واحترفت الصيد في مناطق السافانا منذ مئة مليون سنة على الأقل.

وهي حقائق لا تشكك في قدرة الله تعالى، بل تشكك في قدرة الفقه على تفسير كتاب الله.

ومثلاً:في درس التفسير، يقرأ الطالب قصة الطوفان، ويعرف من ((علماء)) الدين أن النبي صلى الله عليه وسلم نوحاً قد صنع مركباً، جمع فيه زوجين من كل المخلوقات، لكي ينقذ الحياة من الفناء.

وفي درس العلوم، يعرف الطالب أن أجناس المخلوقات، تزيد في الواقع على خمسين مليون جنس، وأن الأرض لم تغرق في أي طوفان خلال الألف مليون سنة الأخيرة على الأقل، وأن الإنسان لم يتعلم صناعة المراكب، إلا في عصر سوم منذ سبعة آلاف سنة قصيرة.

ومثلاً: في درس التفسير، يقال للطالب أن النبي صلى الله عليه وسلم موسى قد أحال عصاه إلى ثعبان في حضرة فرعون، وأنه أرسل على مصر وباء البعوض والقمل والضفادع، وفلق البحر الأحمر بضربة من عصاه.

وفي أوراق البردى، يقرأ الطالب أن فرعون شخصياً، لم يقابل رجلاً اسمه موسى، ولم ير عصاه تنقلب إلى ثعبان، ولم يسجل قصة فلق البحر الأحمر، رغم ولعله بتسجيل القصص.

ومثلاً: في درس التفسير، يعرف الطالب أن سليمان المذكور لم يكن نبياً، بل كان ملكاً.

وأن الهيكل اليهودي، لم يشيده ملوك الجن، بل بناه العمال اللبنانيون الذين استقدمهم سليمان من مدينة جبيل.

في زحام هذه المعلومات المتناقضة، يعايش الطالب العربي، في كل مدرسة عربية على حدة، تجربة مستحيلة، للتوفيق بين منهجين للمعرفة، كلاهما يدعوه إلى الشك في أقوال الآخر:

الأول منهج إنساني، يلتزم بوسائل العقل، ويستند إلى قوانين صارمة، لا تنكر مبدأ المعجزة فحسب، بل تطرحه خارج إطار العلم من أساسه.

الثاني منهج سحري، ينكر حاجة العلم إلى العقل، ويقيم نتائجه على قاعدة مؤداها أن الرب الخارق لا بد من أن يخرق كل القوانين، وأن وقوع المعجزة هو (الدليل العلمي) على صدق علم التفسير.

بين هذين المنهجين المتناقضين، لا يملك الطالب العربي خياراً آخر سوى أن يدخل طائعاً في قلب الدوامة، ويجرب أن يعيش بشخصيتين في عقل مدهوش واحد.

فهو ـــ من ناحية ـــ لا بد من أن يقبل معارف عصره، مثل بقية الطلاب، في بقية المدارس.

لكنه ـــ من ناحية أخرى ـــ لا بد من أن يتلقى في درس التفسير

معلومات المفسرين العجيبة التي لا يتلقاها الطلاب، ولا تعترف بها المدارس، ولا تقرها مناهج التعليم في أي مكان من العالم، سوى الوطن العربي وحده، فقط، لا غير.

فالمدرسة الحديثة في الشرق والغرب، لا تعتبر تفسير الكتب المقدسة مادة علمية، ولا تضم دروساً للتفسير أصلاً، ولا تسمح بتقديم مادة الدين في المدارس العامة، تحت اسم (العلم)، بل إن دولة مثل الولايات المتحدة، لا تجيز قراءة الإنجيل في مدارس الحكومة، حتى بعد انتهاء اليوم المدرسي.

وهو موقف لا تتخذه شعوب العالم لأنها شعوب ملحدة، أو أقل إيماناً من العرب، بل لأن كلمة (العلم) تعني في لغاتها غير ما تعنيه في لغتنا العربية.

فمنذ عصر الثورة البروتستانتية في القرن السادس عشر، كان الأوروبيون قد اكتشفوا أن العلم لا يستطيع أن يكون مقدساً من دون أن يخسر صفة العلم.

وكانوا قد نجحوا في فصل المدارس العامة عن الكنيسة، وأعادوا صياغة المنهج التعليمي، طبقاً لمبدأ مؤداه، أن معلومات الإنسان، مثل الإنسان نفسه، معلومات ناقصة، وغير نهائية، وغير منزهة عن النقد والمراجعة والتصحيح.

وهو مبدأ لا يقره ((العلم)) في ثقافتنا العربية، الذي يسمي نفسه علماً ربانياً، لا يتعالى على النقد فحسب، بل يعتبره طعناً شيطانياً في علم الله.

بسبب هذا التحريف الرسمي لمعنى كلمة (علم)، ينفرد العرب من بين جميع أمم الأرض بثقافة معصومة عن الخطأ، تسمي رجل الدين ((عالماً))، وتعتبر الرأي الفقهي نظرية علمية، وتورط نفسها في منهج جدلي مستحيل، صفته المستحيلة أنه قائم على تحريم الجدل بالذات.

وعندما يبدأ درس التفسير في أي مدرسة عربية، ويجلس الطلبة واجمين في حضرة الشيخ المفسر، تخرج قاعة الفصل بأسرها من هذه الكرة الأرضية، وتغيب في عالم غائب، لا يحكمه منطق أو قانون ولايعترف بعقل أو دليل، ولا يكشف أسراره لأحد، سوى الشيخ السري شخصياً.

أن عالم الله المنطقي يفقد فجأة كل حاجة إلى صوت المنطق.

فعلم التفسير لا يصدق أن القرآن (بيان للناس)، بل يعتقد أنه كتاب بالشيفرة، يضم جميع أسرار العلم في التاريخ والفلك والجغرافيا والإحياء وإن كل ما يحتاجه الشيخ المفسر، لكي يفتح هذا الكتر المجاني من المعلومات، هو أن يجلس في بيته الدافئ، ويفسر نصوص القرآن.

وهي فكرة لا تستند إلى القرآن نفسه، ولم يقل بها الله، ولا تعكس منهج العلم القائم على البحث والتجربة، بل تعكس منهج رجل كسول، يريد أن يحصل على أسرار الغيب بالمصادفة السعيدة وحدها التي جعلت لغته العربية، هي ـــ بالذات ـــ لغة العلم الرباني في القرآن.

وفي عقل شعوبي من هذا الطراز، تختلط نتائج الحسابات، ويغيب صوت المنطق وراء صخب الخرافة، ويتحول الحوار من وسيلة لنقاش الأفكار إلى وسيلة لتمريرها من دون نقاش.[1]

1- الإسلام في الأسر ص 169

◄ الدعوة إلى التفسير الجماعي الحي :

التفسير الجماعي للقرآن، ليس هو التفسير ((الحرفي أو الباطني، أو التاريخي أو العلمي)) بل هو النظر إلى كتاب الله من زاوية الناس الأحياء الذين يخاطبهم هذا الكتاب في أرض الواقع.

فقصة فرعون، ليست حكاية تخص المصريين القدماء، بل نموذج يلزم محوه من حياة المصريين إلى الأبد.

إن القرآن ـــ في منهج الجماعة ـــ لا يلعن فرعون الميت منذ ثلاثة آلاف سنة، بل يلعن فرعون الحي، الذي يتناول إفطاره هذا الصباح، في قلعة عسكرية سرق نفقاتها من مال الناس العام، وسط حراسة مشددة من سيافين محترفين، يدفع رواتبهم من مال الناس نفسه، فالمشكلة لا تكمن في أسم فرعون شخصياً، بل في علامات عصره الإقطاعي، وهي علامات مميتة في كل عصر، لأنها تعني غياب الناس عن الإدارة، ووقوع جهاز الدولة في يد رجل، يحرسه جيش محترف، ويخدمه كهنة محترفون، لا يعرف ما يفعل في وحدته الهائلة، سوى أن يتسلى ببناء الأهرام، ويسخر جهد الإنسان الحي في رفع حجر كبير ميت.

إن التفسير الجماعي للقرآن، ليس فقهاً، بل منهج لربط لغة الفقه بلغة الواقع.

وإصلاح الخطأ القديم، الذي تورطت فيه علوم التفسير، تحت وطأة الرقابة الإقطاعية الصارمة، مما دعاها إلى استبعاد لغة الجماعة من منهج

التفسير، والأخذ بمذاهب أكاديمية، بعضها يفسر القرآن حرفياً، وبعضها يؤوله بقدر ما يسمح التأويل، لكن كليهما يلتقيان بعد ذلك في نقطة واحدة مؤداها، أن فرعون الذي طارد اليهود الهاربين عبر البحر الأحمر ــ وليس فرعون الذي يجلس حالياً في القلعة ــ هو الطاغية الذي يريد القرآن أن يلعنه الناس يومياً، رغم أنه مات منذ أربعة آلاف سنة تقريباً.

في منهج التفسير الجماعي للقرآن، تنتقل زاوية النظر من مقعد الفقيه إلى واقع الناس، ويتضح السبب الذي دعا القرآن إلى اختيار بعض الأحداث التاريخية من دون سواها.

فالقرآن دستور للإدارة الجماعية، لا يهمه التاريخ، إلا بمثابة نموذج عن واقع الجماعة، عندما تجتمع في غياب هذا الدستور.

أنه لا يروي قصة خروج اليهود من مصر، لأنهم شعب الله المختار، بل لأنهم لاذوا بالله من سلطة فرعون، واجتمعوا معاً تحت مظلة واحدة، وخططوا ونفذوا وعبروا البحر والصحراء، إيماناً منهم بأن الله مع الجماعة ضد فرعون.

وعندما نسي اليهود شرع الجماعة، وتورطوا بدورهم في مجتمع إقطاعي آخر، أزاحهم القرآن جانباً من مسرح التاريخ، و لم يذكرهم بعد ذلك إلا بمثابة مزورين لكتاب الله.

وقصة السيد المسيح، لا يضيف إليها القرآن شيئاً جديداً على ما جاء في الأناجيل، لكنه يحذف منها مبدأ أبعاد السيد المسيح وأمه، عن بقية الجماعة الإنسانية، بحجة أنهما ليسا من طبيعة البشر.

فهذا مبدأ جدلي لا يخدم واقع الناس، بل يخدم مؤسسة أكاديمية، تسخر الكلام لكي تعيش عاطلة على حساب الناس.

والملوك المتألهون في الشرق القديم، من فرعون إلى هامان، لا يلعنهم القرآن، لأنهم اعتقدوا أنهم من نسل الآلهة، بل لأنهم كانوا آلهة فعلاً، في أيديهم أرزاق الناس وحياتهم وموتهم، بموجب دستور إداري خارج عن إرادة الناس.

الأصل في كلمة الصبر، هي المقاومة.

فشرط ((الصابر)) أن يكون حياً، وأن يعاني، وأن يعرف أنه يعاني، وهي شروط تحتم نشوء المقاومة، وتحتم أن يتحرك الحي ذاته مرة لتغيير واقعه، لأنه لا يستطيع أن يجلس((صابراً)) إلى الأبد.

إن الصبر ـــ من دون مقاومة ـــ كلمة لا علاقة لها بمعنى الصبر في الإسلام.

فالمسلم عليه أن يقاوم بيده ولسانه وقلبه.

ومن دون عنصر المقاومة، لا يسمي الإسلام الناس الساكتين، باسم ((الصابرين)) بل يسميهم الناس الذين شهدوا على أنفسهم بالباطل.

وقد جاء في الآية 97 من سورة النساء: ﴿إِنَّ الَذينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائكَةُ ظَالمي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصِيراً

إلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ولا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾. [النساء/97-98]

فالصبر على الظلم، ليس فضيلة، بل جريمة عقوبتها الحرق بالنار.

إن هولاكو يجتاح العراق عند منتصف القرن الثالث عشر، ويظهر فجأة تحت أسوار بغداد، مثل كارثة في حجم إعصار، فيقابله خليفة أعزل اسمه المستنصر بالله يحيط به موكب من الفقهاء العزل، في شهادة معلنة على أن تغييب الشرع الجماعي، وراء فتاوى الفقه، لم يحل مشكلة الإدارة الإسلامية، بل حرمها من إيجاد الحلول، وسلمها في شخص خليفة سمين، حاسر الرأس، إلى جزار دموي من طراز هولاكو.

كتب التاريخ الإسلامي، لا تفسر تاريخ الإسلام من هذا المنظور، ولا تربط بين غياب الشرع الجماعي، وبين ما حدث لدولة المسلمين.

إنها تلتزم بمنهج موجة لتسجيل التاريخ، وليس لتفسيره، بسبب الرقابة الحكومية الصارمة على كتب التاريخ.

وفي منهج حكومي إلى هذا الحد، كان على المؤرخ المسلم أن يلتزم بمنهج منحرف، وغير إسلامي.

إنه لا يتحدث عن شرع الجماعة، ولا يلاحظ غياب الأغلبية عن الإدارة، ولا يستطيع أن يقول، إن الخليفة سرق حق الناس، وخطفهم في مدن مسورة تحت حراسة جنوده المأجورين.

لقد كان على المؤرخ المسلم، أن يطفو ساكناً مع التيار.

ويسجل غزوات الخليفة، ويمتدح مآثره في الدفاع عن أرض الإسلام.

ويتغاضى عما يفعله الخليفة للمسلمين أنفسهم.

ويتغاضى عن غياب الإدارة الجماعية.

ويدير ظهره للواقع، لكي يسجل واقعاً سواه.

وفي ظروف حرجة من هذا النوع، كان تاريخ الإسلام يصاغ بمنهج محرج حقاً.

ففي عصر بني العباس مثلاً، كان على المؤرخ المسلم أن يستقبل خليفة اسمه ((السفاح))، ويلحق نسبة ببيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويناصره على أعدائه الأمويين، ويلعنهم إلى يوم الدين.

لكنه لم يلعنهم، لأنهم سرقوا، حق الناس، بل لأنهم يشربون الخمر، ويشترون الجواري، ويسمعون الغناء.

فسرقة حق الناس، جريمة ارتكبها السفاح أيضاً، ومن شأنها أن تجمعه مع أعدائه في خانة لعينة واحدة.

في وقت لاحق، عاد العباسيون، فتعلموا بدورهم أن يشربوا الخمر، ويشتروا الجواري، ويسمعوا الغناء، لكن المؤرخ المسلم، كان مضطراً هذه المرة، إلى أن يسجل الحادثة من دون لعنات.[1]

1- لكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص104 ص105

➢ نموذج تطبيقي لتفسير القرآن :

تفسير الفاتحة (الأنشودة الجماعية) :

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (7)﴾

صنفها المفسرون تحت عنوان(من مقول العباد) باعتبارها أنشودة جماعية تبدأ بصيغة أمر تقديره(قولوا).

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فلا شيء عن الشيعة أو السنة أو النصارى أو اليهود أو الشيوعيين.

لأن المواطن العربي الذي رباه الإسلام، مواطن عالمي، لا ينتمي إلى غير هذه العقيدة الإنسانية الشاملة، ولا يمكن تسخيره برضاه لخدمة عقائد حزبية أو جدلية، وليس مجهزاً لخدمتها شرعاً.

﴿ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

فالمواطن العالمي، عقيدته الرحمة، لأنها العقيدة الوحيدة الموجهة إلى الناس، وليس إلى مؤسساتهم.

وكل شعار ــ عدا شعار الرحمة ــ يمكن تسخيره بوسائل الجدل، لخدمة مصالح المؤسسات، على حساب الناس أنفسهم.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

والدين ليس هو السياسة، ولا يخاطب الدولة، بل يخاطب الناس.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

فهذه جماعة، تتكلم علنا بضمير الجماعة، وليست مجرد مواطن مسلم وحيد.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

والذي يطلب الهداية، يعرف أنه صاحب القرار الأول والأخير، وأن ما يحدث له في حياته ـــ وحياة عياله من بعده ـــ ليست مسؤولة عنه، جهة إدارية أو عقائدية، بل مسؤول عنه هو شخصياً.

وبالذات، عن كل مثقال ذرة منه.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

وهو صراط علامته الفارقة، إنه طريق إلى الخير والنعمة، في مجتمع يضمن حق الجماعة، ويحتوي خلافاتها الشكلية، ويجمعها في نظام إداري فعال، قائم على الرحمة والتراحم.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾

فثمة شرائع كثيرة أخرى ـــ غير الشرع الجماعي ـــ تستطيع أن تجمع الناس أيضاً ـــ لكنها لا ترحمهم، لأنها لا تستطع أن تحميهم من بطش الأقوياء.

﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ وعلامة الضال إنه إنسان وحيد، ومغترب عن عالمه.

فالناس من دون شرع الجماعة، أسرى في المدن تحت رحمة الإقطاع ومن دون إدارة على الإطلاق، قبائل تهيم على وجهها في الصحراء.

إن مواطننا يعرف ما يقوله، ويقوله علنا، وبإصرار.

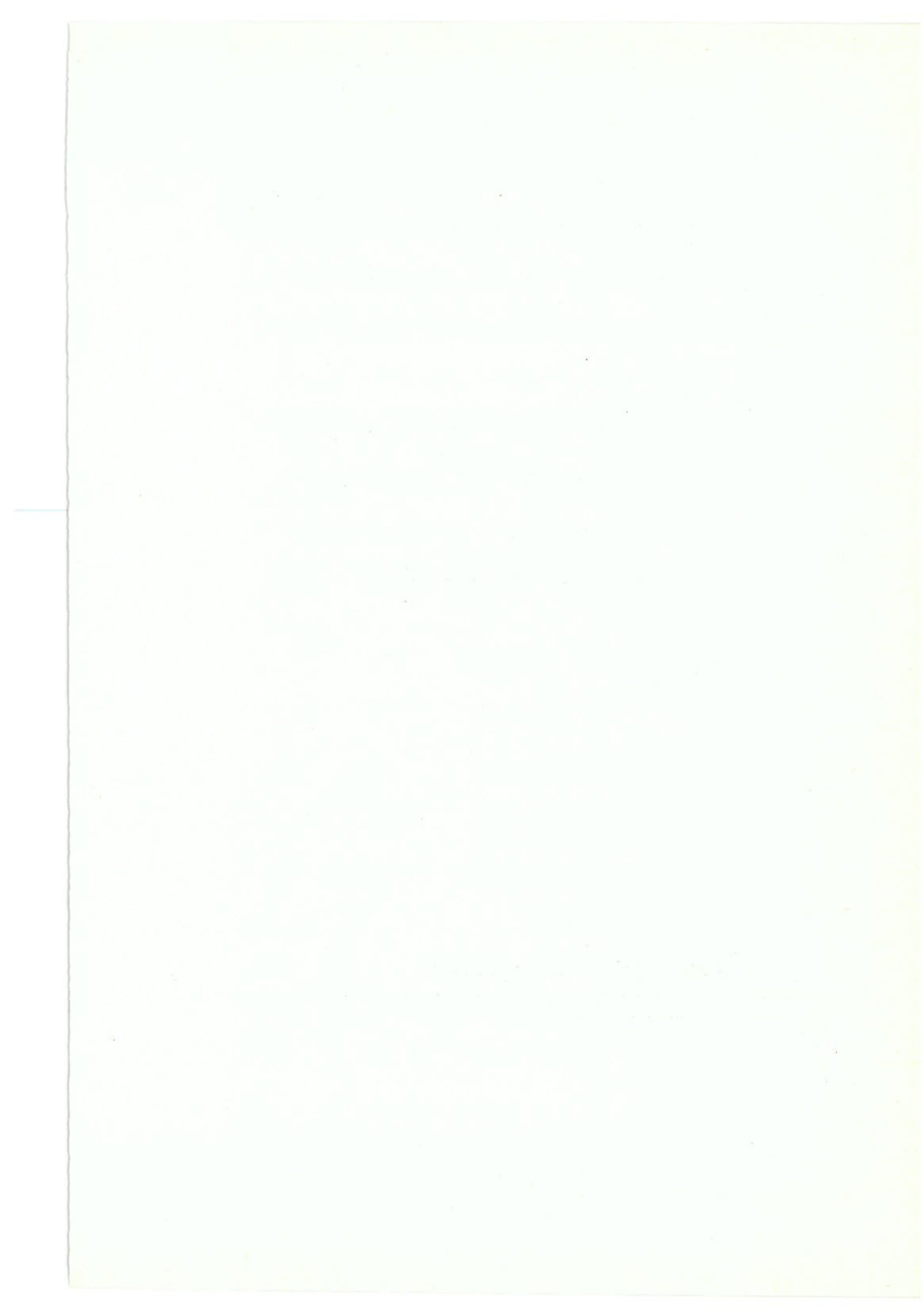
وإذا نسي أحياناً ـــ أو جعله الشيطان ينسى ـــ فإن تعاليم السنة، قد فرضت عليه قراءة سورة الفاتحة بالذات، دون غيرها من السور، قبل كل ركعة، في كل صلاة، في كل يوم، من كل أسبوع، من كل شهر، من سنة، في أمر مستديم من رسول الله شخصياً.

ووراء هذا الحضن الذي يصعب اختراقه، تعيش هوية المواطن العربي، في مأمن من كل تزوير، تمليه أهواء السياسة، مثل روح في صدر طائر، والطائر في قفص، والقفص في جزيرة، والجزيرة بعيدة في ملكوت الله.

فالناقد الذي يرفض حاضر العرب، اسمه ((معول هدام)). والذي يرفض عزل المرأة، اسمه ((زنديق متأثر بثقافة الغرب)). والذي يرفض الحكم الوراثي، اسمه ((عميل مأجور)). والذي يرفض سلطة رجال الدين، اسمه ((عدو الله)). والذي يرفض شريعة القوة، اسمه ((متخاذل جبان)). والذي يرفض تزييف الواقع. اسمه ((دجال غير واقعي)). كل كلمة لها وقع الحجر. كل كلمة تعض وتعقر. إن لغة الناس — في غياب عقلهم الجماعي — تصبح نوعاً من الخرس.

الصادق النيهوم

فصل في الإصلاح



➢ شروط الحرية والكرامة :

أول شروط في حكاية الحرية والكرامة أن لا يعيش المرء تحت وصاية أحد غير ضميره.[1]

➢ السننية :

إن الله لا يخرق قوانينه، ولا يسمح لأحد بخرقها إلا بسلطان العقل والمنطق، وليس بحيل الدجل والشطارة.[2]

➢ المناهج التعليمية :

محاولة فهم مناهجنا التعليمية مشكلة سيئة التعقيد، فنحن في الواقع لا نملك شيئاً منها، إننا لم نصنع أياً من مناهجنا بأيدينا، بل قمنا باستيرادها ضمن بقية الواردات من أوروبا، ضمن البدلة والعربة وقانون الانتخابات وفرشاة الأسنان ورباط العنق وكادر الموظفين وحقائب السيدات.

وكانت تلك بداية خالية من الحكمة، فالذي يريد أن يبني — بيتاً — لا يستطيع أن يستعير أحجاره من الآخرين، والمرء قادر على أن يستورد عربة وثلاجة وموقداً غازياً من أوروبا، ثم يظل محتفظاً بشخصيته ولكنه لا يستطيع أن يستورد كتبه من تلك القارة، دون أن يفقد تلك الشخصية ويفقد رأسه معها.

1- فرسان بلا معركة ص 8 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

2- إسلام ضد الإسلام – شريعة من ورق ص254 ط3 2000- رياض الريس .

فالإنسان هو مجموعة ما يعرفه، إنه لا شيء آخر، وإذا تمّ بناؤه في مدرسة مستوردة فلا بدّ أن يظل بدوره بضاعة مستوردة، حتى إذا أعفى من رسوم الجمرك.

معذرة، ولكن المناهج لا يمكن ترجمتها، إنها ليست كتباً للقراءة، إنها أحجار للبناء. مادة يتكون منها الطفل يوماً بعد يوم، وتتحدد ملامحه خلالها تحديداً لا فكاك منه، كما يتكون التمثال تحت الإزميل والمطرقة، كما يتكون الحذاء على القالب.

معذرة مرة أخرى، غير أننا نحب أن نتذكر موسم الإنشاد العظيم، عندما كنا نجلس أمام أوروبا، ونردد وراءها مثل الأطفال الحمقى، مصر بلد زراعي، والجزائر قطعة من فرنسا، والاستعمار ساعد في توعية الشعوب، وكوبرنيق أب الجغرافيا الحديثة، وبيكون أم العلم كله، والفلسفة ابتكرها اليونان، والروس يعيشون وراء ستار حديدي، والرأسمالية الامبريالية صديقة الشعوب... ولتحيا ليبيا.[1]

➢ **ليس بالهتاف :**

الشعوب لا تعيش على الهتاف وحده.. الشعوب تحتاج إلى شخصية لكي تحيا.. تحتاج إلى كيان، إلى شيء يقول هذا أنا بالتحديد[2]...

التقليد الأعمى

1- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .

2- الحديث عن المرأة والديانات ص 98 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

معذرة، ولكن ذلك كان سبب كل مشاكلنا، وكان خطأً مشيناً، وهو ما يسميه الناس بالتقليد الأعمى، وقد كنا في هذه النقطة ـــ مقلدين بطريقة مضحكة ومصابين بنوع عجيب من مرض المخ والعمى ـــ وكانت وزارات التعليم غير مؤهلة للقيام بمهمتها.. كانت مجرد مجموعة من الموظفين المفتقرين إلى الأصالة والقدرة على الخلق.[1]

- **العقل والمنطق أولا :**

كل محاولة لنسبة الخوارق إلى الله، هي محاولة باطلة، هدفها تكريس أوهام السحر، على حساب العقل والمنطق بالذات.[2]

إن ما يجري حالياً في وطننا العربي تحت شعار العودة إلى الإسلام، ليس عودة إلى الإسلام أو غيره، بل هروب جماعي من صوت العقل. فالنهج المتبع في تلقين علوم الدين لصغار الأطفال في المدارس باسم التعليم الإلزامي، لم يكن في وسعه أن ينتج سوى أجيال مغسولة الدماغ، استفرد بها نوع من السحرة، في غرف مغلقة لسنوات طويلة، لكي يودعوا فيها فكرة مميتة قاحلة واحدة فقط لا غير، هي أن الجنة تحت أقدام الدراويش.

وما دام هذا الحبل على هذا الجرار.

وما دام الحلف القائم بين الإقطاع العربي وبين الفقهاء، يفرض على كل أب أن يرسل أطفاله إلى مدارس الدولة بموجب نظام التعليم الإلزامي.

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 103 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .
2- إسلام ضد الإسلام – شريعة من ورق ص254 ط3 2000- رياض الريس .

وما دام مجتمعنا يسمح لفقيه أمي أن يحشر نفسه بين (العلماء)، ويقول ما يشاء لمن يشاء باسم الله شخصياً.

وما دام الطفل لا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاه ما يسمعه من أساطير الفقه، سوى أن يطوع نفسه للتعايش معها في الظلام.

فلا مفر من وقوع الكارثة. ولا مفر من أن يغرق مجتمعنا في موجة بعد موجة من خريجي هذه المدارس الذين تم تنويمهم من قبل أن يستيقظوا، وعهد إليهم بحمل مسؤولية الهدم والبناء، وهم عزل من كل سلاح، سوى سيف التعصب الأعمى في أيدي ملايين العميان.[1]

➢ نقد صحافة الرجل الأخرس :

مشكلة الصحافة ـــ من دون رأس المال ـــ أنها حرفة غير دستورية، ليس لديها مهمة إعلانية، وليس لديها مهمة حزبية، ولا يضمن لها الناس حرية النشر، في مجتمع محروم من حرية القضاء نفسه، إنها ليست ((ملكة)) متوجة، بل سيدة، لها لقب آخر، تمارس حرفة غير شرعية، لتحقيق مكسب غير مشروع.

وهي حرفة شائعة في كل مجتمع فقير، يستعمل وسائل رأس المال، من دون ضمانة رأس المال نفسه.

المنفذ المتاح من هذا المأزق، يكمن في نظام الإدارة الجماعية، لأنه نظام يمنح الصحافة كل الضمانات التي أتاحها لها رأس المال، من دون أن يسخرها لخدمة رأس المال، من دون أن يسخرها لخدمة رأس المال وحده.

1- إسلام ضد الإسلام – شريعة من ورق ص256 ط3 2000- رياض الريس .

إنه يضمن لها مظلة دستورية قادرة على حماية حقها في القول، ويطلق لسانها في قول الحق، ويحررها من سلطة الفرد والطبقة، ويجعلها حرفة مقدسة ــ ونافعة ــ أكثر من حرفة الملكات.

وفي نظام جماعي من هذا النوع، تولد صحافة جديدة، لا تشبه صحافة الغرب، لكنها فعالة مثلها.

فالشرع الجماعي، إدارة تقوم أساساً على حرية النشر، مما يضع الصحافة قبل غيرها، تحت مظلة الدستور، ويجعلها حرفة دستورية، لديها وظيفة تؤديها، بموجب الدستور نفسه.

إنها تصبح صاحبة رسالة شرعية، وتصبح وسيلة اتصال بين الناس، وتكون صوتاً مفهوماً بينهم، يتحدث عن واقعهم المعيش، وينقل حديثهم عنه، ويملك أرضاً صلبة في واقع الإدارة.

ــ تكون صوتاً لا يتعمد أن ينتشر، بل ينتشر تلقائياً، لأنه صوت الناس أنفسهم، كما يتردد في بيوتهم وشوارعهم .

ــ تكون صوتاً لا يقول، إن رأس الدولة اسمه فلان، بل يقول كم يكلف هذا الرأس، وكم يتقاضى كل حارس يحرسه، وكم مليوناً من الدولارات، تبلغ نفقاته في الدقيقة الواحدة.

ــ تكون صوتاً، لا يتيه في البرية، بل يطرق أسماع أجهزة دقيقة، لها نيابة قضائية، وأمن دولة ومحققون، لا تلبث أن تظهر على مسرح الأحداث،

لكي تلتقط رأس الخيط من الصحافة، وتقدم للعدالة حكام دول، تبلغ تكاليف حراسة نظمهم، ملايين الدولارات يومياً، ووزراء ينهبون وزاراتهم علناً، و((وجهاء)) يجمعون الإخوة من الناس، تحت اسم ((عمولة)).

إن كل ما تفعله صحافة الأوروبيين الأغنياء، تحت مظلة رأس المال، تستطيع صحافة الفقراء أن تفعله، تحت مظلة الشرع الجماعي.

لأن حرية النشر، في الواقع، ليست فكرة رأسمالية، بل مبدأ في دستور الشرع الجماعي، الذي يقوم أساساً على تبادل الآراء والمعلومات، بموجب دستور يكفل حرية الرأي، وحرية إعلان الرأي، وحرية العقيدة، وحرية التحقيق والقضاء.

وإذا كان ظهور هذه الحريات، قد ارتبط في ثقافتنا المعاصرة، بظهور الرأسمالية الحديثة، فذلك مرده إلى أن لغة الشرع الجماعي، كانت قد اختفت من واقعنا، قبل ظهور الرأسمالية بألف سنة على الأقل، وأن الشرع الجماعي نفسه، كان طوال هذا الوقت، مجرد شرع ساكت بين الأغلبية الساكتة.

أما في أرض الواقع، فإن هذه الحريات، لا يكفلها بالفعل، سوى شرع جماعي، موجة إلى تحرير الناس من سيطرة الإقطاع والرأسمالية معاً، مثل الإدارة الجماعية في الإسلام.

إننا نصادف فروقاً كبيرة جداً، تحت سطح اللغة ـــ بين مفهوم هذه الحريات في الشرع الرأسمالي، وبين مفهومها في شرع محرر من سيطرة رأس المال.

فمثلاً: حرية الفكر، تعني في دستورها الرأسمالي حرية الأفكار لكنها تعني في شرع الإسلام، تحرير الفكر، فالعنصرية فكرة حرة، رغم أنها ليست محررة من مركبات النقص.

وكذلك التعصب الديني، والاستعراضية، والبذخ، والمتاجرة بمشاكل المراهقين، وتدبير الانقلابات في بلدان العالم الثالث، والعبث بأسواق المواد الخام.

هذه كلها أفكار رأسمالية حرة، لكنها ليست محررة من سيطرة رأس المال، والتخلف العقلي، والعقد النفسية.

إن تحرير الفكر مبدأ إسلامي، مختلف، من شأنه أن يعري أفكاراً رأسمالية ((حرة)) كثيرة، منها فكرة الربا التي تقوم عليها شريعة رأس المال من أساسها.

حرية الرأي، تعني في وطنها الرأسمالي، حق إعلان الرأي، في الشارع، لكنها تعني في الإسلام، حق إعلان الرأي، في مؤتمر مسؤول، معد خصيصاً لسماع الآراء.

وهما تعريفان يختلفان عملياً، في كل التفاصيل، فالرأي في الإدارة الرأسمالية، لا علاقة له باتخاذ القرار الإداري.

أما في الإدارة الجماعية، فإنه قرار إداري نافذ باسم الأغلبية نفسها.

ومثلاً: حرية النشر، تعني في موطنها الرأسمالي، حرية الانتشار بكل وسيلة ممكنة، بما في ترويج الشائعات، والتحايل الإعلاني، وتغذية النعرات الطائفية، ومعاداة قضايا الفقراء، ونشر عناوين العاهرات، والصور العارية، مما يفتح مجال النشر، أمام تجار شذاذ، لا يجوز لهم الحصول على مثل هذا السلاح الجماعي الخطر، ويجعل النشر حرفة مشروعة، لكسب غير مشروع، على حساب مصلحة الناس.

وهو وضع من شأنه، أن يزيد مادة المنشورات إلى ما لانهاية من دون أن يزيد من قيمة المنشورات نفسها.

في نظام الشرع الجماعي، تصبح حرية النشر، هي ((تحريره)) من هذه الفوضى بالذات.

فالصحف التي تصدر تحت إشراف الناس، لا ينال رخصتها تاجر، ولا تنافسها صحف، يملكها تاجر آخر، ولا تكون سلاحاً في يد فرد أو أسرة، ولا تعيش على إعلانات ضارة، ولا تغري عيال الناس بالشذوذ، ولا تحتاج أصلاً إلى دخول مثل هذه المنطقة الحرجة، لأنها صحف، تملك كل ما تحتاج إليه، من حق المنافسة الشريفة على السوق، إلى حق الحماية الدستورية من كل منافس غير شريف.

وهو مجال واسع، بما يكفي، لخلق صحافة مزدهرة، لكنه ضيق بما يكفي، لمنع تسلل ذبابة واحدة إلى بلاط صاحبة الجلالة.

من دون الشرع الجماعي ـــ ومن هنا إلى الأبد ـــ ليس بوسع الصحافة، أن تكون شيئاً في عالم الفقراء، سوى حرفة غير مشروعة، يمارسها صحفيون لا حرية لهم، أمام مواطنين لا سلطة لهم، بموجب قانون كامن في حرفة الكتابة نفسها.

فقد بدأت هذه الحرفة، في حضارة سومر، منذ خمسة آلاف سنة تقريباً، باستعمال ألواح الطين المجفف، في تسجيل رسائل الملك الإله، وإحصاء عبيده وخيوله، وحساب الجبالة السنوية في خزائنه، وتبرير سلطته بنصوص أدبية وفقهية عن أصله الإلهي في السماء.

ومن ذلك الوقت، وحتى ظهور الإسلام، لم تضف حرفة الكتابة إلى هذه المهام، سوى مهمة تزوير الكتب السماوية المقدسة، التي ابتكرها اليهود خلال الألف الثانية قبل الميلاد.

إن حرفة الكتابة، لم تكن أبداً، سوى سلاح إداري في يد الإقطاع والمؤسسة الدينية، حتى استردها شرع الإدارة الجماعية في الإسلام، الذي وضع نهاية لتزوير النصوص السماوية المقدسة، ووضع نهاية لنظرية الحق الإلهي المقدس في الحكم، وسخر النص المكتوب لخدمة شرع الناس، ودعوتهم إلى تحرير أنفسهم من سلطة الإقطاع والمؤسسة الدينية معاً.

وقد كان أول قرار معلن في التاريخ، يصدر بشأن تحرير الكتابة من هاتين السلطتين، هو أيضاً أول آية من القرآن، في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق/١].

في غياب الشرع الجماعي، تعود الكتابة إلى مكانها القديم، في خدمة سيدها الذي تربت على يديه منذ عصر سومر، وتصبح وسيلة الاستعمال ألواح الطين المجففة ــ وأحياناً ــ أوراق الصحف والمجلات ــ في تسجيل ما ترى الإدارة أنه يستحق التسجيل، وتزوير ما ترى المؤسسة الدينية أنه يستحق التزوير.

وهو موقع من شأنه، أن يترك قضايا الواقع، تتكلم في الشارع، إلى ما لا نهاية، ويسخر الكتابة لنشر قضايا خيالية أخرى، ربما لا تنقصها الإثارة أو حسن الصياغة، لكن ينقصها صوت الناس.[1]

➢ الديمقراطية أولا :

غياب الديمقراطية لا يجعل الناس مجانين، بل يجعلهم يفقدون عقلهم الجماعي وهي محنة لا تختلف عملياً عن محنة الجنون نفسه إلا في نقطتين: الأولى، أن أوجاع المصاب، لا تكشفها أدوات التشخيص الطبي.

والثانية، أن علاجه يتطلب جراحة من دون تخدير.

أول أعراض هذا المرض أن كل مواطن على حدة، يبدو رجلاً عاقلاً، في تمام وعيه وإدراكه.

لكن الأمة ككل، تبدو غائبة عن الوعي، وعاجزة عن فهم واقعها عجزاً يحرمها من القدرة على تغييره، ويرغمها على الهروب منه بكل وسيلة متاحة للهروب، بما في ذلك وسائل التمثيل والسحر والحلم وتغييب صوت العقل وراء الصراخ الهستيري.

1- محنة ثقافة مزورة ص 187 ومابعدها

وهي أعراض تعايشها شعوب كثيرة داخل المصحات العقلية وخارجها، ومنها ــ للأسف ــ شعبنا المريض في الوطن العربي.

فالمواطن العربي الواحد لا ينقصه شيء من نعمة الوعي.

إنه رجل يفهم لغة العصر، ويعرف وجه الحق في كل موضوع على حدة، ويرفض شريعة القوة، ويبادر كل شخص يقابله (بالسلام عليكم ورحمة الله).

في الجانب الأخر، تبدو الأمة العربية مجتمعة خارجة جداً عن هذا الإطار.

فهي أمة لا تبالي بمنطق العصر، ولا تملك نظاماً شرعياً للإدارة، ولا تلتزم بمبادئ الحرية والعدل، ولا تتورع عن تمجيد نظم الإقطاع، وإقرار شرائعه البربرية، من شريعة عزل المرأة واستبعاد الطفل إلى شريعة الحكم الفردي، وتبذير المال العام على أهواء الأسر الحاكمة.

مصدر هذا التناقض، بين وعي المواطن الفرد، وبين جهل الأمة مجتمعة، أن العرب الذين خسروا معه عقلهم الجماعي، وورطوا أنفسهم في ثقافة فردية، لا تعاني من غياب المواطنين الأذكياء، بل تعاني من غياب وسيلة التفاهم بينهم في مجتمع شبه أخرس، له صفحات القطيع، لا يتكلم لغة مشتركة، ولا يملك قراراً جماعياً، ولا تجمعه إرادة أصلاً سوى إرادة الراعي وعصاه.

في وطن خسر لسانه إلى هذا الحد، تصبح الفصاحة عقدة نفسية، ويتعلم الناس زخرفة الكلام، في ثقافة لسانية مسطحة، لا تهدف إلى فهم الواقع، ولا تستطيع أن تتخذ قراراً جماعياً بشأنه، بل تهدف إلى تغييب القرار وراء ستار كثيف من الآراء النظرية التي لا تهمها نتائج النقاش، بقدر ما يهمها النقاش في حد ذاته.

إن قضية الديمقراطية بالذات، لا تنال في ثقافة العرب، سوى محنة الحيرة المستمرة، بين نظريتين مستحيلتين على لسان فصيح واحد:

النظرية الأولى، تنادي بالعودة إلى عصر عمر بن الخطاب، متعمدة أن تقول إن المشكلة من أساسها، ليست مشكلة حقاً، وإن رجلاً صالحاً واحداً، يستطيع أن يصلح واقع أمة، وهي فكرة من شأنها أن تضحك عمر بن الخطاب في قبره، لكن أحداً لا يلاحظ موضع النكتة.

النظرية الثانية، تنادي باستعارة نظام الأحزاب من دول الغرب الرأسمالي، آملة أن تقدم للعرب وصفة طبية جاهزة لعلاج جميع أمراضهم مجاناً، وهي فكرة أقرب إلى الشماتة منها إلى النصح، لأن العرب لا يملكون رأس المال نفسه، ولا يملكون العمال، ولا الأسواق، ولا المصانع، وليس بوسعهم أن يؤسسوا أحزاباً، لا تجد ما يدعوها إلى التحزب.

الصفحة المشتركة بين هاتين النظريتين، أن كلتيهما مجرد نصيحة غير جادة، وغير قابلة للتطبيق.

فلا أحد يستطيع أن يعيد عجلة التاريخ إلى عصر عمر بن الخطاب، ولا أحد يعرف كيف يؤسس العرب أحزاباً عمالية ورأسمالية، من دون عمال ولا رأس مال.

لكن ذلك لا ينبه ((المفكر))العربي، إلى نقطة الضعف في ثقافته النظرية، ولا يعوقه عن تكرار أقواله المستحيلة، جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، بالألفاظ نفسها، والعقم نفسه، في شهادة معلنة على أن الأمة التي تفقد عقلها الجماعي، لا تملك فكراً، بل تملك لغة فقط، وأن هذه الظاهرة بالذات، هي الصفة المألوفة لحالة الجنون المألوف، رغم أن المريض، شخصاً، يكون ــ طبعاً ــ آخر من يعلم أن كثرة الكلام، مجرد دليل على قلة معناه.

فاللغة وحدها لا تعوض الأمة عن غياب عقلها الجماعي، ولا تضمن لها رؤية واقعها من الزاوية الصحيحة، بل تشغلها عن إدراك هذا النقص بالذات، لأنها توفر لها سبيل الهروب من الواقع، عبر أربعة منافذ لغوية بحتة:

المنفذ الأول، يقوم على استخدام وسائل المسرح لاختلاق ((حاضر)) من ((الماضي))، فيرتدي المواطن ثياب القرن السابع، ويطلق لحيته، ويلوي لسانه بلهجة بني أسد، ويذهب للعيش في عصر عمر بن الخطاب، متعمداً أن يدس امرأته تحت اللحاف، لكي لا يفوته شيء من تفاصيل الديكور.

في هذه المسرحية، يختلق المواطن لنفسه واقعاً يناسبه على المقياس.

فالعودة إلى الماضي، تعيد إليه شعوره بالانتماء، من دون أن ينتمي لأحد.

وتوفر عليه مواجهة حاضره المهين، من دون أن يتعرض للوم أو السخرية، وتتيح له أن يمثل دور البطل الحريص على أمجاده، الذي يعيش ((معززاً مكرماً)) تحت راية عمر بن الخطاب.

إنه يحل جميع مشاكله من دون أن يحل مشكلة واحدة.

في مقابل هذا الحل البارع، لا يحتاج المواطن إلى شيء سوى أن يضع عقله فوق الرف، ويكز جهده في حفظ الحوار على ظهر قلب.

إنه لا ((يفكر)) بل ((يتكلم)) متعمداً أن يسخر اللغة لتحقيق هدفين:

الهدف الأول، أن يمجد ماضيه، بكل حيلة مسرحية في حوزته، من افتعال الإلقاء بصوت مؤثر، إلى استخدام وسائل البلاغة في تفخيم الماضي، بصفات فخمة مثل (التليد والجليل والخالد).

الهدف الثاني، أن يعلن رفضه لحاضره، متعمداً أن يبرر هذا الرفض، بالوسائل المسرحية نفسها، من الحديث عن الحاضر بلهجة تقطر استنكاراً وسخرية، إلى إلصاق التهم بحضارة العصر وقيمه ووصفة بالهمجية والانحلال.

هذا المواطن ـــ الممثل، لا يكتشف أنه ممثل، ولا تظهر عليه أعراض الخلل لعقلي الذي يعاني منه، إلا إذا اضطرته ظروف العيش إلى أن يغادر خشبة المسرح، ويواجه الواقع في أرض الواقع.

إذ ذاك ـــ فقط ـــ تنجلي الغمامة عن عينيه، ويكتشف مصعوقاً أنه لم يحل شيئاً من أصل المشكلة، بل زادها سوءاً وتعقيداً، فامرأته المحجبة، لا تعرف كيف تتعامل مع عصرها بأي قدر من التكيف، بما ذلك أن تستعمل دراجة.

وأولاده المولعون بأمجاد الماضي، ينقصهم التأهيل المطلوب، لكي يكسبوا خبزهم اليومي.

ووطنه الفقير، يغرق في الديون.

وبيته القديم يغرق في المجاري.

وهو شخصياً لا يملك ثمة ما يفعله في هذا الركام، سوى أن يتعلق بقشة، ويعود لقضاء السهرة في المسرح، مثل أي رجل مجنون.

المنفذ الثاني الذي توفره اللغة للهروب من الواقع، يتمثل في استخدام أدوات السحر لمسخ الواقع من أساسه، في صورة مختلفة أخرى.

فالمواطن هنا لا يعود إلى الماضي،

بل يستورد لنفسه حاضراً جاهزاً من الخارج.

إنه ينظر حوله بإمعان، لكي يختار أفضل نموذج في السوق، ثم يعمد إلى انتحاله، آملاً أن يتقمص ((روحاً جديدة)) على عادة السحرة في تقمص الأرواح.

وبالطبع، يقع الاختيار تلقائياً على النموذج الأوروبي البراق الذي أثبت نجاحه أكثر من سواه.

الخطوة الأولى، لا تمام إجراءات هذا التقمص، تبدأ بأن ((يسحر)) المواطن شخصيته، ويتحول إلى رجل أوروبي، في ملبسه ومسكنه وطريقة أكله ونوع هواياته، وميله إلى الحديث بكلمات أوروبية، باعتبار أن روحه الجديدة، لا تفهم كل ما يقوله العرب.

وهي إجراءات يلزمها عادة، أن يسحر المواطن امرأته إلى سيدة أوروبية، وعياله إلى عيال أوروبيين، ويشتري لنفسه كلباً اسمه ((فيفي)) لكي لا يفوته شيء من تفاصيل الديكور.

بعد ذلك، تبدأ المذبحة.

فمشكلة هذا المواطن ((الحديث))، أنه يعتبر نفسه مثل بيت حديث البناء، قائم على أنقاض كوخ متهدم.

إنه لا يهجر ماضيه فحسب، بل يتعمد أن يهدمه من أساه، ويسويه بالأرض، ويلقي جميع مخلفاته في القمامة، خلال حملة حربية ضارية، تؤدي فيها الكلمات،دور أصابع الديناميت، ويقاتل فيها المواطن المسحور على جبهتين:

الجبهة الأولى، موجهة لنسف تراث العرب بحجة أنه تراث ((بال)) لا يجاري روح العصر، ولا يستطيع أن يحتوي قيم الديمقراطية الرأسمالية.

وهي تهمة لا تريد أن تصلح حال العرب، بل تريد أن تقنعهم بأن طريقهم الوحيد إلى الخلاص هو أن يخرجوا من جلودهم، ويكفوا على أن يكونوا عرباً.

الجبهة الثانية، موجهة لتلميع النموذج الأوروبي القائم على اقتسام السلطة بين العمال، وبين أصحاب رأس المال، بحجة أنه نموذج ناجح، أثبت نجاحه عملياً إلى حد لا ينكره سوى رجل غير عملي.

وهي فكرة تتجاهل أن العرب لم يستوطنوا قارات العالم الجديد، و لم يسيطروا على مصادر المواد الخام، و لم يعيشوا عصر الثورة الصناعية، وليس بوسعهم أن يؤسسوا أحزاباً لا ينتمي إليها أحد، ولا تعني دعوتهم إلى مثل هذه الفكرة السحرية سوى أن بعض ((مفكريهم)) قد تقمصوا شخصية لا يعرفونها، وخسروا عقولهم بفعل السحر.

المنفذ الثالث الذي توفره اللغة للهروب من الواقع، يتمثل في اللجوء إلى أدوات الحلم لتفسير الواقع الفاشل بلغة ناجحة.

فالمواطن هنا لا يهرب من حاضره بل يفسره بأسلوب شعري، الواقع، بل يغير اسمه في القاموس:

فالحاكم المتسلط، يصبح ((قائداً شعبياً)). وقوانين الملك الماجن، تصبح ((مراسيم شريفة)).

وعصابات القتلة، تصبح ((قوات وطنية)). والحزب الطائفي، يصبح ((حزب الله)).

والمرأة السجينة، تصبح ((سيدة مصون)). والفقيه الجاهل ((عالماً في الدين)).

والإدارة البوليسية ((حكومة رشيدة)). وقطع رؤوس المواطنين ((عملاً بالسنة المحمدية)). والحكم العائلي المنقرض ((تطبيقاً لأحكام الشريعة الخالدة)). إن كل ما أفسده الدهر يصلحه العطار بكلمة من عنده.

الإجراء الأول لتأمين هذا الحل، يتمثل بالضرورة في إلغاء حرية التعبير، وتشديد الرقابة على وسائل الاتصال، لأن الشعر المسخر لتغطية عورات الواقع شعر أعور في حد ذاته، لا يستطيع أن يؤدي مهمته إلا في مجتمع من العميان.

إنه يحتاج إلى مساندة مستمرة من الله والبوليس معاً، لكي يوفر لنفسه ثلاث ضمانات أساسية:

الأولى أن يكون هو الصوت الشرعي رسمياً. والثانية أن لا ينافسه أحد على مكبر الصوت. والثالثة أن لا يسمعه سوى جمهور صاخب من المجانين.

المنفذ الرابع الذي توفره اللغة للهروب من الواقع، يتمثل في استخدام أسلحة الهستريا، لتغييب صوت العقل القادر على قراءة الواقع من الزاوية الصحيحة، فالمواطن هنا، لا يهرب من حاضره، ولا يعترف أصلاً بأنه في حاجة إلى الإصلاح، بل يتخندق للدفاع عنه، متعمداً أن ينشغل بجو المعركة عن سبب المعركة نفسها.

إنه لا ((يحاور)) بل ((يقاتل)) طبقاً لخطة عسكرية عادية، تستعمل اللغة بمثابة سلاح قتالي في نوعين من الحرب:

النوع الأول، يعتمد على الصراخ بصوت عالٍ، وبأقصى قدر من التشنج، وإبداء السخط، والعصبية، والتلويح بالأيدي على بعد قليل من وجه ((الخصم)).

وهي حيلة لها جذور في سلوك الأطفال المدللين الذين لا يملكون وسيلة أخرى لفرض مطالبهم المتطرفة، لكنها لا تعني في سلوك الكبار سوى أنهم قد نسوا أن يكبروا.

النوع الثاني، يقوم على تحويل الكلمة إلى حجر، مهمته أن يشج رأس الخصم، أو ــ على الأقل ــ أن يدفعه إلى الفرار.

فالناقد الذي يرفض حاضر العرب، اسمه ((معول هدام)). والذي يرفض عزل المرأة، اسمه ((زنديق متأثر بثقافة الغرب)). والذي يرفض الحكم الوراثي، اسمه ((عميل مأجور)). والذي يرفض سلطة رجال الدين، اسمه ((عدو الله)). والذي يرفض شريعة القوة، اسمه ((متخاذل جبان)). والذي يرفض تزييف الواقع. اسمه ((دجال غير واقعي)). كل كلمة لها وقع الحجر. كل كلمة تعض وتعقر. إن لغة الناس ــ في غياب عقلهم الجماعي ــ تصبح نوعاً من الخرس. الصفة المشتركة بين جميع هذه المنافذ اللغوية، أنها لا تغير وجه الواقع، بل تجعله واقعاً غير قابل للتغيير. فالأمة التي تخسر عقلها الجماعي، تخسر بالتالي سلاح الجماعة، وتتحلل إلى ملايين من الأفراد العزل، الذين يحلمون بالتغيير دائماً، ويطالبون به أحياناً، لكنهم لا يستطيعون أن يفرضوه.

وهي محنة لا تخفيها أدوات المكياج، ولا يخفف من عواقبها الرهيبة أن يجتمع ((المفكرون)) في مؤتمر بعد مؤتمر، وندوة بعد ندوة، لكي يتبادلوا التهاني والنظريات الملفقة. إن خلاص الناس في اجتماع الناس أنفسهم.

وخلاص العرب في اجتماع الملايين الذين يلتقون أسبوعيا في الجوامع.

خلاصهم في يوم الجمعة، عندما تسترد الملايين وعيها المغيب، ويستعيد هذا اليوم المبارك هويته السياسية الضائعة،فيتحرر من خطب الوعظ، ويصبح لقاءً رسمياً على مستوى الأمة.

يجمعها في مكان واحد، ووقت واحد، تحت شعار جماعي واحد لكي يطلقها كالإعصار في مسيرة الغضب الصاعقة. إذ ذاك يبطل مفعول السحر، ويخرج المارد من القمقم.

إذا ذاك يعود الوعي الغائب من منفاه، ويسترد الشعب الأخرس صوته، ويسمع أعداء العرب هدير الزلزال القادم من قلب الأرض.إذ ذاك فقط.[1]

➢ الطريق الغاضب :

لو كانت الديمقراطية تتحقق فعلاً باستيراد وصفة جاهزة، لجرت الرياح بما تشتهي السفن منذ زمن بعيد إن طريقنا أن نمضي غاضبين في الاتجاه المعاكس.

1- الإسلام في الأسر ص 180

ـــ طريقنا أن نجمع ثقافتنا المترجمة، ونعطيها لبرميل القمامة، لكي يصبح برميلاً مثقفاً.

ـــ طريقنا أن نكف عن سرقة أفكار الآخرين، ونفتش في ترابنا عن البذرة التي تنبت بيننا مثل أشجارنا وسنابلنا.

ـــ طريقنا أن نستعيد شرعنا الجماعي، ونكتشف لغة الملايين التي تلتقي أسبوعياً في الجوامع، ونحرر يوم الجمعة من خطب الوعاظ، ونعطي مكبر الصوت لهذا المواطن الساكت.

كل وصفة أخرى، مجرد قفزة في الظلام، لا طائل من ورائها سوى أن تعاد مسرحية أميركا اللاتينية في وطننا العربي، بلغة الحرب الأهلية الشاملة.

فمشكلة العرب بالذات أنهم لا يستطيعون أن يبدأوا من الصفر، ما دام يوم الجمعة، يجمعهم بالملايين في مكان واحد أمام منبر واحد.

إنهم ملزمون بتحرير هذا المنبر من سيطرة المؤسسات الدينية والإقطاعية. وملزمون بتطوير الاجتماع إلى لقاء دستوري قادر على ضمان حق الأغلبية في اتخاذ القرار.

ومن دون هذه البداية، يستطيع العرب أن يجربوا جميع الوصفات، ويقلدوا الأوروبيين كما يحلو لهم ويصبغوا شعورهم ولون عيونهم، ويمضوا وراء لعبة الأحزاب والثقافة المترجمة إلى آخر محطة على الطريق.

لكن يوم الجمعة، سوف يكون دائماً بركاناً نشطاً تحت أقدامهم، وسوف يجلسون فوقه غافلين، حتى يداهمهم الانفجار في ساعة آتية لا ريب فيها.[1]

➢ لماذا الثورة؟

الحقيقة الواقعة أن حلول الإنسان لمشاكل بقائه قد عاشت دائماً أطول مما عاش الإنسان نفسه ممّا ترتب عنه نوع من دكتاتورية الأجيال والتقاليد الجيدة والرديئة على حدّ سواء، وترتب عنه ابتكار فكرة الثورة في جميع المجالات[2].

➢ المشاركة الجماعية :

الطريق المتشعب أمام بلادنا يدعونا جميعاً إلى المشاركة في عملية البحث المضنية عن الاتجاه المطلوب الذي يجب أن نجده الآن ونضع فوقه علاماتنا قبل أن تبدأ سنوات التيه، وعلينا أن نفعل ذلك قبل أي شيء آخر سواه.[3]

➢ العدل :

ما فائدة الذهب في قبر مظلم يا أصدقائي الفراعنة؟ أنتم لا ذنب لكم في ما حدث، فقط كان الأمر كله صدفة طيبة، ولكنكم أسأتم الفهم لمعنى الصدفة ذاتها.. وأصبحتم فراعنة.

1- لكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص188 ص189
2- الحديث عن المرأة والديانات ص 124 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .
3- الحديث عن المرأة والديانات ص 151 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

فالمساواة في الفرص التي تهيئُها الدولة لشعبنا لا يمكن أن تفهم باعتبارها فرصة لمعركة حرة، يفوز فيها الأقوى والأكثر قدرة على الشم بل هي فرصة للعدل، لإعطاء كل إنسان ما يستحقه بطريقة عادلة، وإعانة هذا الإنسان على رفع مستوى قدراته بانتظام.. فإذا سقط أحد ما على الطريق فلا بدّ من إعانته على الوقوف.. وكل من يدوس فوق جثته يعتبر قاتلاً حقيقياً.. فهل فعلتم شيئاً من أجل رفع قدرات شعبنا..

هل فعلتم شيئاً واحداً منذ اقتحام المعركة.. وهل توقفتم عن الاعتماد كلية على جهود الدولة وحدها.. أم كنتم تمشون فوق الجثث طوال الوقت[1]؟

➢ **فعل الجميل (إحساس) :**

إنكم لا تعرفون سوى وجه الدينار، ولا تستطيعون أن تعطوا شيئاً سواه.. والصدقة إحساس ذكي بحاجة الآخرين الحقيقية.. إنها ليست توزيعاً للقروش بين الأيدي الممدودة.. وليست استعراضاً للثروة أمام مجموعة من الشحاذين. إنها مسؤولية الأغنياء تجاه الشعب كله..

مسؤولية الإعطاء الحقيقي في المكان المناسب.. لذا كانت الكلمة الطيبة صدقة أيضاً، وليس القرش وحده..

وشعبنا ليس فيه فرد واحد يحتاج إلى قروشكم حقاً..

ولكنه مليء بالفجوات التي يتحتم عليكم إعانة الدولة في إغلاقها.. إنه

1- كلمات الحق القوية ص 25 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

شعب بسيط أميّ، يحتاج إلى كثير من كل شيء والدولة لا تستطيع أن تقوم بذلك كله وحدها..

فالعمال الذين يعملون في حقولكم لا تستطيع الدولة أن تعلمهم إلا إذا أبديتم أنتم تعاوناً معها..

والسعاة والسائقون وعشرات الرجال الآخرين الذين يقومون بخدمتكم لا يستطيع أحد أن يسد حاجتهم إلى الرعاية سواكم، وقطاعات الشعب الأخرى التي تساهم في إنماء ثروتكم تملك الحق في كثير مما لديكم.. وبلادنا كلها تملك هذا الحق..[1]

➢ **الثروة الحقيقية :**

إننا لسنا شعباً غنياً كما يقول الشعراء الطائشون الذين يعتقدون أن تصدير براميل البترول في قوارب الشركات عملية ذهبية مثل أسطورة ميداس. إننا ما زلنا فقراء إلى حدّ محزن، وما زلنا بلداً نامياً مثل أي بلد آخر في إفريقيا أو آسيا، رغم قصائد الشعر... وميداس..

فالثروة لا تقاس بكمية النقد..

بل بكمية الفائض بين الإنتاج وبين الاستهلاك، وإذا جاء ميداس اليوم، وسخّر لنا الجبل الأخضر ذهباً فإن ذلك لن يصنع منا شعباً غنياً بقدر ما يعرض قطعان الماعز للموت جوعاً فوق تلال الذهب.. ثم يخل بقيمة المعدن نفسه عندما نضطر لتصديره في عنابر السفن لكي نشتري رطلاً من البصل المعلّب من امستردام.

1- كلمات الحق القوية ص 29ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

فالنقود مجرد تقيم للعمل.

وإذا جاءت مع الريح أو حملها ميداس فإنها تظل وتظل مصدراً للرخاء المؤقت بجانب أخطار التضخم وفقدان السيرة على ميزان الواردات.

فقد خرج الحفّارون الأمريكيون من معركة الذهب فارغي الأيدي..

وانتهت أيام الثروة فجأة لكي يجد الحفّار نفسه في مواجهة الموت جوعاً دون أن يكون لديه سوى كيس الذهب الفارغ وديون صاحب البقالة والحلاق.. وقد عانت أمريكا إذ ذاك مشكلة إيجاد الخبز لأول مرة ثم انزلقت في عملية إفلاس كلية انتهت بالمجاعة العامة التي وضعت اقتصاد الولايات المتحدة على حافة الانقراض..

وكان ذلك هو الدرس الذي أحسن الأمريكان فهمه عندما بدأت عمليات الحفر عن البترول في أواخر القرن نفسه، فقد سارعت الحكومة الفيدرالية لحماية مصدر الخبز المتمثل في الزراعة، وفرضت على الشركات قانوناً معقداً في تحديد مناطق الحفر بحيث لا يتم حفر بئر واحد بأيدي العمال المزارعين في موسم الحرث أو الحصاد ولا تسرق الشركات مصدر الطاقة العامل في الزراعة.. وكانت أمريكا قادرة على إنتاج تسعين في المائة من بترول العالم إذ ذاك، ولكنها لم تحفر سوى سبعة عشر بئراً خلال عام 1894 ثم أوقفت عمليات الحفر بموجب قانون يرمي إلى تخزين الاحتياطي تحت رعاية الدولة، وظهر الاصطلاح الشهير المعروف باسم «الانتاج المتجدد» وهو ما نسميه نحن «بالزراعة»، فحقل القمح يمكن أن يعمل كل عام وإلى الأبد.. أما بئر البترول فلا يمكن استغلاله إلا مرة واحدة.. أي أنه ليس «إنتاجاً متجدداً»

وليس إنتاجاً مباشراً أيضاً.. إنه مجرد استهلاك لإيجاد الطاقة المحرّكة للإنتاج الصناعي.. والذين يبيعونه مقابل «الخبز»، يقومون بعملية مبادلة بين سلعتي استهلاك لا يمكن أن تقود إلى أي نمو قاعدي..[1]

ليس ثمة ما يدعو للحزن.. أنا أحس بحريتي لأول مرة فلم يعد لدي ما يربطني بالناس.. تركت لهم غرفتهم ولغاتهم وأشياءهم الثمينة والرخيصة على السواء وذهبت مع أكياس الشوفان..

ما أبدع مشاعر اليأس عندما يتعلم المرء كيف يحبها..

إنها تستطيع أن تعطيك كل ما ترغب فيه، وتعطيك لحظة السلام التي يلهث العالم وراءها محمّلاً بالآمال على كل لون..

فإذا توقف المرء ووضع ذلك الحمل جانباً.. إذا تخلّص المرء من أوهام الآمال المضحكة، وأغمض عينيه وجد كل ما يبحث عنه داخل لحظة واحدة من اليأس..

هل ثمة من يصدق ذلك؟[2]

➢ **الحقائق :**

دعونا نتذكر دائماً أن العلم لا دليل عليه سوى العلم نفسه.. أما الشهادات وأقلام الحبر والصدور المنتفخة وباقي الأشياء الأخرى فهي مجرد لعبة مملّة من لعب عصر الإقطاع.. أيام كان الإنسان يتسوّل احترام الآخرين عن طريق سيف من الذهب.. وسرج فضي فوق ظهر بغلته.

أيام كان الإنسان يولد حاملاً سرجاً..[3]

1- كلمات الحق القوية ص 60 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .
2- كلمات الحق القوية ص 70 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .
3- كلمات الحق القوية ص 81 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

➢ **نوعية المعرفة :**

فالمشكلة لا تخص (القدرة على القراءة أو عدم القراءة)، بل تخص (نوع المعرفة المطلوبة) ونحن نرتكب خطأ لا يمكن غفرانه عندما نفرق بين الأمية وبين القدرة على القراءة باعتبار الشكل الخارجي وحده. فالواقع أن الفرق طفيف للغاية داخل ذلك النطاق، والمرء لا يستطيع أن ينفذ من فخ الأمية بمجرد أن يمتلك وسيلة المعرفة التي تدعى عندنا بالقراءة. إنه يصبح فقط (أمّياً مقنعاً)، وإذ ذاك يصير مرضاً اجتماعياً أشد خطورة من سواه، لأن إلمامه بالقراءة يجعله يتصور أنه خرج من منطقة الخطر ودخل في عداد العارفين ثم يجعله يتصور أنه بات يملك الحق في (النقاش وإيجاد الحلول) أيضاً، وعندما يبدأ في ارتكاب هذا الخطأ يضع نفسه ومجتمعه وجميع أجياله القادمة تحت رحمة الجهل المقنع المقام على قاعدة النرجسية وحدها، ويصير اسم المشكلة (الأمية العلمية) بدل الأمية فقط.

➢ **العودة إلى الذات :**

إن المشكلة لا يمكن حلّها إلا من الداخل.[1]

➢ **الأمية الحقيقية :**

يبدأ بأن نرفض أولاً البديهية المضحكة القائلة بأن (الأمية هي العجز عن القراءة) لأن ذلك يفتح الباب أمام قطيع غير محدود من (الأميين القارئين) لكي ينصّبوا أنفسهم قادة مجّانيين لمسيرتنا الفكرية، ولأنه أيضاً تشخيص

1- كلمات الحق القوية ص 162 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

خاطئ للمرض الذي نعاني منه في بلدنا بالذات، وفي جميع البلدان المتخلفة بوجه عام.[1]

➢ نقد ثقافة المغالطات :

الثقافة الدينية والسياسية والاجتماعية... الثقافة المثقلة بالمغالطات القديمة وازدراء وسائل العلم الحديث وعدم وضوح الرؤية والتسليم بالبديهيات غير الحقيقية والاعتماد على الإثارة العاطفية الخالية من العمق ونشر التعليم، لا يستطيع أن يغير وجهة هذا الطوفان من الأخطاء، بل إنه في الواقع سوف يزيدها ثباتاً وشمولاً إلا إذ بدأ بإيجاد (المنهج) المطلوب لإبعاد الفكر نفسه، أي بدأ بإيجاد (الحق)، وأنا أستعمل كلمة الحق هنا، بالنسبة لاتجاهين مرتبطين معاً:

الاتجاه الأول، علاقة الإنسان بخالقه، تلك العلاقة التي لا يمكن قط أن تقوم على أساس حقيقي من المعرفة الحقيقية ما دامت تبدأ بفكرة غير علمية ــ وغير دينية بالتالي ــ مؤداها أن الإنسان دمية طينية. إن هذه الانطلاقة لا يسندها شيء في الواقع سوى التفسيرات المعوجة للقرآن والإنجيل على حد سواء ولكنها ذات تأثير مفجع في شكل مجتمعنا الإنساني بأسره، وإذا أتيحت لإنساننا المعاصر فكرة أكثر اكتمالاً عن طبيعة القانون العظيم الذي أحضره إلى هذا العالم، فإنه بالتأكيد سوف يكون أكثر قرباً من الله وأكثر إدراكاً للشكل المتناهي الإثارة الكامن وراء دمية الطين، سواء كان يعرف القراءة أو لا يعرفها.

1- كلمات الحق القوية ص 163 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

الاتجاه الثاني، علاقة الإنسان بالإنسان، فالطبقية التي نعيشها الآن في تفكيرنا الاجتماعي والسياسي مجرد انعكاس مؤقت لفكرتنا الخاطئة عن العالم نفسه، فالكون ــ بالنسبة لنا ــ مسرح هائل لأسوأ أنواع الطبقية يقف الله فوق قمته وتحته طبقة الملائكة، وتحت طبقة الملائكة طبقة الأنبياء وتحت طبقة الأنبياء طبقة أخرى، إلى آخر القائمة الرأسية التي يبدو أن أول أخطائها الوثنية أنها تضع (الله) في نقطة محددة، وهو خطأ نعتقد جميعاً أننا نتجنبه ــ ببساطة ــ لمجرد أننا نعتنق الإسلام.

من هذين الاتجاهين يبدأ كل شيء في المجتمع الإنساني، من هذين الاتجاهين تبدأ الأديان والأخلاق والأفكار السياسية أيضاً، وما داماً معاً ينطلقان حالياً من نقطة خاطئة تحت حراسة مشدّدة من (الأمية العلمية)، فإننا في الواقع لا نملك فرصة واحدة لإصلاح الاعوجاج الواضح في مسيرتنا الفكرية. إن ذلك يحتاج إلى عنصر الزمن.

وهذا ما يحتاج المرء إلى أن يعرفه جيداً قبل أن يتورط في الصراخ مطالباً (بمحو الأمية) لأن هذه الصرخة من جهة لا تعني شيئاً في الواقع سوى تعليم الناس القراءة لكي يقرأوا الأخطاء بأنفسهم بدل أن يكتفوا بسماعها، ولأن (الجهل) يستطيع المرء أن يمحوه بإيجاد (قرّائه).

إننا نفتقر إلى صوت يطالب بتغيير مناهجنا الفكرية، صوت لا تخدعه (الأمية المقنعة) التي تستطيع أن تنتصب فوق المنصة وتدلق على العالم خطبة

فصيحة، وتستطيع أيضاً أن تطبع له جريدة مزينة بالآيات القرآنية والحكم القديمة لكي تقنعه بأنه صنم طيني مصنوع خاصة لكي يأكل تفاح الجنة.

إن تعميم القدرة على القدرة عمل حسن ولكنه ليس دائماً عملاً مفيداً، وإذا كان ثمة من يخامره الشك في هذه الحقيقة المفاجئة، فإنه يستطيع أن ينال أكثر من مثال مقنع داخل البلدان التي رفعت نسبة المتعلمين فيها إلى الحد النهائي. إن أكبر المستفيدين من هذه الظاهرة هم باعة المجلات الجنسية.

ولكن المرء لا يجوز أن يفسر هذا القول بأنني أدعوا إلى إبقاء الشعب الليبي محروماً من نعمة القراءة، لأن ذلك في الواقع تفسير مقلوب. إن ما أريد أن أقوله هنا بوضوح كافٍ: إن تعليم القراءة عمل حسن ولكنه ــ بالتأكيد ــ لا يقود قط إلى محو الأمية إلا إذا ظللنا على اعتقادنا الخاطئ بأن الأمية (هي العجز عن القراءة).

أما إذا كنا نملك من الشجاعة ما يكفي لرفض هذه البديهية غير المعقولة، فإننا نستطيع أن نرى بوضوح أننا لن نحتاج إلى المدارس وحدها لمحو أمية شعبنا، بل إننا أيضاً نحتاج أكثر مرتين، إلى مناهج علمية لمحو أميتنا المقنعة قبل أي شيء آخر.

فنشر المعرفة ــ إذا لم تكن معرفة حقيقية ــ مجرد خدمة تؤدي لصالح الجهل وحده، ونحن في بلدنا الصغير المتواضع الامكانيات نملك الآن أكثر

مما يكفي من الأصوات المتحمسة التي تنسى هذه الحقيقة البسيطة في غمرة حماسها البدائي، وتنسى أيضاً أنها بدورها تحتاج إلى محو أميتها.

إن القراءة مجرد وسيلة لنشر (المعرفة)، وإذا كان من المرغوب فيه أن يمتلك المرء هذه الوسيلة تحت تصرفه، فإن من المرغوب فيه أكثر ألا يضعه ذلك تحت رحمة (الأمية العلمية) لكي تصب في دماغه جميع معارفها المدهشة، والأصوات التي تطالب بشن حملة شعواء ضد الأمية مطالبة بدورها أن تؤدي نصيبها في الحملة الحقيقية الأخرى ضد (الأمية الدينية والأمية السياسية أيضاً)، فالمشكلة ليست مجرد مسرح للصراخ من أجل المدارس وحدها كأن كل شيء آخر معد في بلدنا على ما يرام.

إن الإصلاح الديني في الدرجة الأولى هو المشكلة الرئيسية في بلدنا، والمرء لا يستطيع أن يتصور أن الأصوات المتحمسة ــ التي تصرخ فوق جميع صحفنا المحلية مطالبة ببناء المدارس ــ تجهل هذه الحقيقة المسطحة، ولكن المرء أيضاً لا يسمع صوتاً واحداً يشير إلى أن (الحقائق المسطحة) تستحق قليلاً من الحماس.

إن أحداً لا يرفع صوته مطالباً بإصلاح الفكر الديني في الوقت الذي يزعم فيه خطيب الجامع أن الإنسان صنم من الطين، بل إن معظم (الصارخين) في بلدنا مستعدون لقتلك بمخالبهم إذا سمعوا أنك لا تصدق خطيب الجامع، وبعد ذلك ــ أعني أيضاً في نفس الوقت ــ يطالبون بمزيد من المدارس لنشر (العلم).

هذه خرافة الحماس البلهاء.. خرافة (الأمية العلمية) التي تخنق مسيرتنا في بلدنا بالذات، وفي معظم البلدان المتخلفة مثلنا قطيع من الذئاب الصارخة التي لا تحسن شيئاً في العالم سوى أن تصرخ من أجل أي كارثة تخطر ببالها، من أجل محو إسرائيل، من أجل محو الأمية، من أجل الجنة، من أجل القرآن، من أجل أي شيء مقابل لا شيء، وعندما تتعب من الصراخ تصرخ أيضاً لإبداء التعب.

وفي ذيل القائمة تبقى الحقيقة القبيحة المثيرة للعار والعالم، أن صوتاً واحداً يرتفع بشجاعة لفضح مغالطات (الأمية المقنعة) في ميدان السياسة والدين والأخلاق يستطيع أن يخدم بلدنا بصورة أفضل مما تفعل ألف مدرسة يعمرّها ألف (أمي قارئ).

ومع ذلك فالصوت الشجاع لا يرتفع فقط، بل يظل ينتظرك لكي يأكل جثتك على مأدبة العشاء عندما يذبحك فقي الحارة العالم باسم الله، ثم يلعق مخالبه ويدخل الجولة التالية في المطالبة بمحو الأمية.

هكذا الحلقة مفرغة في عالم الكتّاب الأميين أكلة الحشيش والجثث.[1]

➢ الصحافة المأجورة :

الصحافة لدينا وارث محترف.[2].

1- كلمات الحق القوية ص 164 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

2- كلمات الحق القوية ص 189 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

➢ **الصحافة المداحة :**

الصحافة لدينا شاعر قبيلة..[1]

➢ **الكسب الفردي :**

المرء يستطيع أن يكسب بقدر طاقته ويمتلك بقدر طاقته ويدخر بقدر طاقته أيضاً تحت شرط واحد أساسي وجوهري ومحدد. هذا الشرط أن لا يتسبب ذلك في اختلال التوازن العام لمعالجة المشاكل بحسب ترتيب خطورتها على المجموعة)[2]

➢ **البحث عن حل**

أنا أعتقد أنه يكفي وأن التماس الأعذار لا يحل المشاكل، وأن الطريق الطبيعي أن يبحث المرء عن حلّ محدد.

يبحث عن نقطة المرض.. من السرطان الحقيقي الذي يجب علاجه قبل غيره والطريق لا يجهله أحد.. إنه علاج المشاكل حسب شحنتها من الخطر، والمرء يدرك بطريقة طبيعية أن عليه أن يفلت من قبضة السل قبل أن يفكر في إجراء عمليات التجميل.

فهل ينسى المرء ذلك عندما تتعرض حياة أمة بأسرها للشكوك[3]؟

1- كلمات الحق القوية ص 189 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

2- كلمات الحق القوية ص 200 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

3- كلمات الحق القوية ص202ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

➢ **الناقد :**

وما دام المرء لا يستطيع أن يصنع فناناً في إحدى الكليات كما يصنع طبيباً أو مهندساً.. ولا يستطيع أن يشتريه أو يستورده من الخارج. فإن الناقد أيضاً لا يمكن صناعته ولا يمكن استيراده.

إنه يولد بعينين مختلفين ويرى العالم رؤية خاصة.

أما الباقون فيولدون ــ في الغالب ــ مثل صغار القطط بأفواه مفتوحة قادرة على العض.

ويولدون ــ دائماً ــ برباط عنق بدل المخالب.[1]

➢ **أساس :**

البناء يبدأ من إقامة الأساس[2]..

➢ **عزيمة :**

الإنسان ليس شجرة. إنه الحيوان الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يفرز العرق، وإذا كان الله لا يخلق شيئاً عبثاً، فلا بدّ أنه صنع العرق لكي نروي به حقولنا.[3]

1- كلمات الحق القوية ص 208 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .
2- كلمات الحق القوية ص 210 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .
3- كلمات الحق القوية ص 211ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

➢ الحرية والإنسان :

الفلسفة السياسية لا تستطيع قط أن تحدد مفهوماً واعياً لمعنى (الحرية). إن المرء قد تعتريه الدهشة تجاه هذا الزعم، لكنه في الواقع ــ عندما ينظر إليه مرتين ــ يكتشف بوضوح أن الفلسفة التي تبدو مضطر للعمل داخل منهج سياسي محدد لا تستطيع أن تجد لكلمة الحرية أية أبعاد تقع خارج تلك المنهج دون أن تتورط في الفوضى، فالمشكلة أن الفلسفة السياسية ليست فكراً نظرياً مفتوحاً على جميع الجهات، وليست أيضاً محاولة عامة لإيجاد ذلك الفكر المفتوح، إنها دائماً مجرد قالب منحوت في جسم الفكر المفتوح، إنها جسر دائم للعبور وسط منطقة مترامية الأطراف. وإذا كان المرء لا يتصور أن (الشعب) سوف يتصرف مثل قطيع من أسماك السردين ويتحرك كله في اتجاه واحد لكي يسقط في فخ واحد، فإنه لا بد أن يتوقع حدوث الصدام الفوري بين الذين قاموا بتصميم الدهليز وبين الذين لا يعتقدون أنه يستطيع أن يؤدي إلى الهدف.

وهذا بالضبط ما يحدث دائماً داخل أية فلسفة سياسية.

ويحدث بطريقة مفاجئة، ويؤدي إلى الصراع في نهاية المطاف حتى تسقط الفلسفة أو تتورط في اللجوء إلى وسائل الرجعية والعنف. ولعل (لينين) ــ وهو أكبر رأس في قطيع الفلاسفة السياسيين المتخمين بالغرور ــ كان يشير إلى هذه الحقيقة عندما قال ذات مرة (إن الشيوعية سوف تظل في حاجة إلى البنادق حتى يصير العالم كله شيوعياً).

فالبنادق هي محاريث الفكر السياسي.

والصدام المسلح لا بد منه على أي حال ما دامت الفلسفة عاجزة عن احتواء أبعاد الفكر الإنساني، تلك الكارثة المزمنة التي تميزت على الدوام بالعنف ووسائل القهر العقلي وإدماج المجموعة في فكرة الفرد بطريقة خالية من أبسط مبادئ العدل. والمرء يستطيع أن يعتبر (الشيطان) مسؤولاً عن هذه اللعبة المحزنة، ولكنه سيبدو أكثر واقعية إذا ترك الشيطان جانباً وقال بهدوء إن الصدام يحدث في الواقع نتيجة عجز الفلسفة السياسية عن إيجاد الحد الفاصل بين (الحرية) وبين (الفوضى).

وأنا أعتقد أنني أستطيع أن أثبت هذه النقطة بوضح أكثر إذا أتيحت لي الفرصة لكي ألفت النظر إلى أننا نتبنى تعريفاً ناقصاً عندما تصرّ على أن (الحرية هي حق التصرف الحر من أجل سعادة الإنسان) فالواقع أن ذلك نصف الحقيقة فقط، أما النصف الباقي فإنه يقول إن (الحرية هي حق التصرف الحر من أجل شقاء الإنسان) أيضاً.

وإذا كان ذلك يبدو مضحكاً للوهلة الأولى، لأن المرء لا يستطيع أن يتصور أن الإنسان يمكن أن ينال حرية التصرف لكي يجلب لنفسه الشقاء، فأنا أتمنى أن ألفت النظر هنا إلى أن ذلك في الواقع هو ما فعله الله نفسه عندما منح الإنسان حق الذهاب إلى الجحيم فأنت لست حراً إذا كنت مرغماً على البقاء في الجنة.

أنت منحة الحرية عندما تتاح لك فرصة اتخاذ القرار للبقاء في الجنة أو

الذهاب إلى أي مكان أخر. وإذا كان ذلك لا يعني أنك ستختار لنفسك الشقاء، فإنه يعني بتأكيد أن الله منحك حق (الحرية) كاملاً على أي حال.

➢ **لذا فإن الصراع مع الله مستحيل.**

إنك لا تستطيع أن تجد شيئاً ترفضه دون أن تتورط في السخف، لأن الله لم يضعك في الجنة، و لم يضعك في النار أيضاً، لقد منحك حياتك كلها منذ أول يوم لكي تتخذ لنفسك القرار الذي تعتقد أنه يناسبك أكثر من سواه، بغض النظر عن لعبة (السعادة والشقاء).

➢ **هنا في هذه النقطة بالذات تبدو مأساة الفلسفة السياسية بكل أبعادها.**

فالفرق الواضح أن السياسية لا تمنح الإنسان سوى (نصف حريته) لأنها تصر على إغراقه في السعادة، وليس ثمة رجل سياسي واحد يستطيع أن يتصور أنه من حق الإنسان ــ نظرياً على الأقل ــ أن يرفض (السعادة). إنهم جميعاً في الشرفة ويلقون على الشعب خطبة مؤداها أنهم يزعمون أن يحمله إلى الجنة سواء أراد أم لم يرد.

وأنا لا أزمع أن أقول إن رغبة السياسة في إسعاد الشعب هي الكارثة، ولكني أريد أن أشير إلى تاريخ العالم بأسره وأقول بأعلى صوتي أن السياسة

أخطأت على الدوام وتسببت ــ أحياناً ــ في كوارث إنسانية قاتلة ونهائية ومليئة بالشقاء لمجرد إصرارها على (سعادة الشعب).

لقد فعل أدولف هتلر ذلك.

وفعله المدعو موسوليني والرئيس ليندون جونسون والملك إدريس الأول ومئات الملائكة السياسيين الذين وقفوا في الشرفة وفتحوا أذرعتهم المليئة بالحب وقرروا أن يحملوا (الشعب) إلى الجنة بقرار نهائي واحد دون أن يخطر ببالهم أن الله نفسه لم يقرر أن يحمل أحداً إلى أي مكان.

إن (الحرية) الحقيقية لن تبدأ من هذه النقطة أبداً.

فالفلسفة السياسية لا تستطيع أن تعرف على وجه الضبط، ما الذي يؤدي إلى سعادة الشعب أو إلى شقائه ما دامت مجرد دهليز جاهز للعمل. ووقوع الخطأ محتمل على الدوام، فالمرء لا يجوز أن يزعم أنه وحده يعرف كل شيء بالتفصيل، ويعرف أين يجد سعادة الشعب وأين يتحرك العالم، وكيف تتم خطة العمل. إنه ــ عندما يفعل ذلك ــ يتورط أحياناً في فخ الغرور الأسود الذي سقط فيه ذات مرة المدعو أدولف هتلر بجانب مئات العباقرة الآخرين.

فاللعبة من الداخل أن الرجل السياسي يعتبر نفسه مثل ربان سفينة الركاب يعرف وحده أين تذهب السفينة وماذا تستطيع أن تحمل ومتى يجوز لها أن تغير خط سيرها. وهذا الاعتقاد يبدو عادلاً لو كانت الإنسانية مثل المحيط الهادئ

بالضبط مجرد حوض مائي واضح المعالم محدد بالخرائط وأجهزة القياس. ولكن الإنسانية ليست كذلك بأي حال.. إنها ــ في الدرجة الأولى ــ نمو متواصل بهدف إلى تغيير المعالم والأبعاد تغييراً مستمراً لإيجاد الأفضل على الدوام، والمرء لا يستطيع أن يضع خريطة لعملية النمو دون أن يضطر إلى إيقافها مرة واحدة أو يكتشف ذات يوم أن خريطته لم تعد تشبه في الواقع شيئاً على الإطلاق. لقد حدث ذلك لقيصر روسيا الذي فاجأته الثورة كما يفاجأ المرء برؤية رجل كامل النمو لم ير سوى صورته عندما كان طفلاً.. أعني كما يعود المرء الآن لكي يتعرف على مدينة طرابلس بخريطة مطبوعة في القرن الماضي.

إنه لا بد أن يبدو مضحكاً، ولكنه أحياناً يبدو مثيراً للذعر إذا كان يملك البنادق المطلوب لفرض فكرته المتأخرة بالقوة. وليس ثمة فرصة واحدة لتجنب هذا الفخ ما دامت الفلسفة السياسية تسمح لنفسها بحق بناء الدهاليز على مسرح الفكر الإنساني.

➢ **إن مشكلة (الحرية) لا بد أن تجد حلاً سليماً.**

ولا بد أن يبقى ذلك الحل داخل نطاق الفكر الواعي الخالي من ألعاب الرومانسية والأشعار المريضة والنظريات غير العاقلة التي تتبرع دائماً بإيجاد الحلول على الورق وحده، وأنا أعني أن أقول بذلك إنه لن يجدينا في نهاية المطاف أن نثبت أن (الحرية) هي حق التصرف من أجل السعادة أو الشقاء، إذا كان كل ما نستطيع أن نحدده بعد ذلك لا يتعدى العمل النظري المحض.

➢ **فالمرء لا يأكل النظريات.**

وليس من المحتمل أن تتوقف الفلسفة السياسية عن العمل بمجرد أن نثبت لها أن (الحرية) ــ نظرياً على الأقل ــ لا تستطيع أن تلتقي معها في أية نقطة، لأن ذلك بالضبط هو السقوط في فخ الفوضى.

وما دمنا نهدف حقاً إلى إيجاد سبل العمل الواعي، فنحن مطالبون في الدرجة الأولى بإلغاء التنافس بين الفلسفة السياسية وبين (الحرية) المطلقة بإيجاد الخلفية الواحدة المشتركة بينهما معاً.

➢ **وذلك العمل ليس صعباً بأي حال. وليس جديداً أيضاً.**

إن نقطة الانطلاق أمام فلسفة السياسة ومفهوم الحرية أيضاً هو الإنسان وحده. والقاعدة العامة أن كل شيء يبدأ من هذه النقطة لا بد أن يهدف إلى (احترام حق الإنسان في الاختيار) بغض النظر عن فكرة الدهليز السياسي الجاهز للعمل. وإذا كان هذا الاتجاه سوف يلغي أسباب الصراع الفكري كلية فإنه أيضاً ــ وهذه في الواقع هي الورقة الرابحة ــ يستطيع أن يحقق معظم ملامح الديموقراطية الصحيحة.

فالفلسفة السياسية مضطرة هنا إلى التخلي عن لعبة (سعادة الشعب).

والملائكة الذين يقفون في الشرفة لحمله إلى الجنة بخطبة واحدة مضطرون أيضاً إلى التزام جانب الواقع التزاماً كلياً. لأن الخطبة لن تسقط من الشرفة بل تصل إليها من كتلة الشعب، ولأن الرجل السياسي لن يلعب دور المهندس بل دور المقاول وحده.

ذلك يعني أن الشعب هو الذي سيتولى الحكم بطريقة ديمقراطية.

ويعني أيضاً أن الفجوة القائمة بين مقعد الحاكم وبين عملية النمو المتواصل داخل القاعدة سوف تقف كلية بوسائل الديموقراطية في النقاش والعمل. فالحاكم قد يضطر إلى الوقوع في الخطأ نظراً لعجزه عن متابعة ملامح النمو، ولكنه بالتأكيد لن يترك ذلك الخطأ قاعدة للعمل لأن وسائل النقاش تستطيع أن تسلط الضوء فوقه على الفور.

إن الطريق الوحيد أمام فلسفة السياسة لكي تتجنب ظاهرة الصراع المؤدي إلى استعمال العنف هو في الواقع أن ترفض منذ بداية الطريق كل مناهج الدكتاتورية الواعية أو غير الواعية وتضع الغرور جانباً، وتختار البداية من (الإنسان) وحده.. أعني من حيث بدأ الله.

هذا المنهج يستطيع أن يحل مشكلة الحرية بطريقة عادلة.

ويستطيع أيضاً أن يمنح قاعدة الانطلاق نقطة ثابتة واضحة المعالم يمكن الرجوع إليها في أي وقت، فالمنهج الإنساني بسيط التركيب إلى حد يدعو إلى الثقة.

إنه مجرد ثلاث نقاط مضيئة على مدى العالم بأسره:

- الإنسان يقول رأيه كما يشاء.
- الإنسان يختار عقيدته كما يشاء.
- الإنسان لا يخاف من الأذي الجسدي إلا إذا قام بإيذاء إنسان آخر إيذاءً جسدياً.

والمنهج السياسي الذي يستطيع أن يضمن توفر هذه القاعدة بداخله هو المنهج الوحيد القادر على تجنب مزالق الفلسفة العميقة الغور. فالشعب يبدأ من هنا في ممارسة الإشراف الواعي على عملية النمو، وتنقية معتقداته من التشويه وإطلاق إمكانيات الفكر الخلاق القادر على تحقيق النقد والعمل معاً.

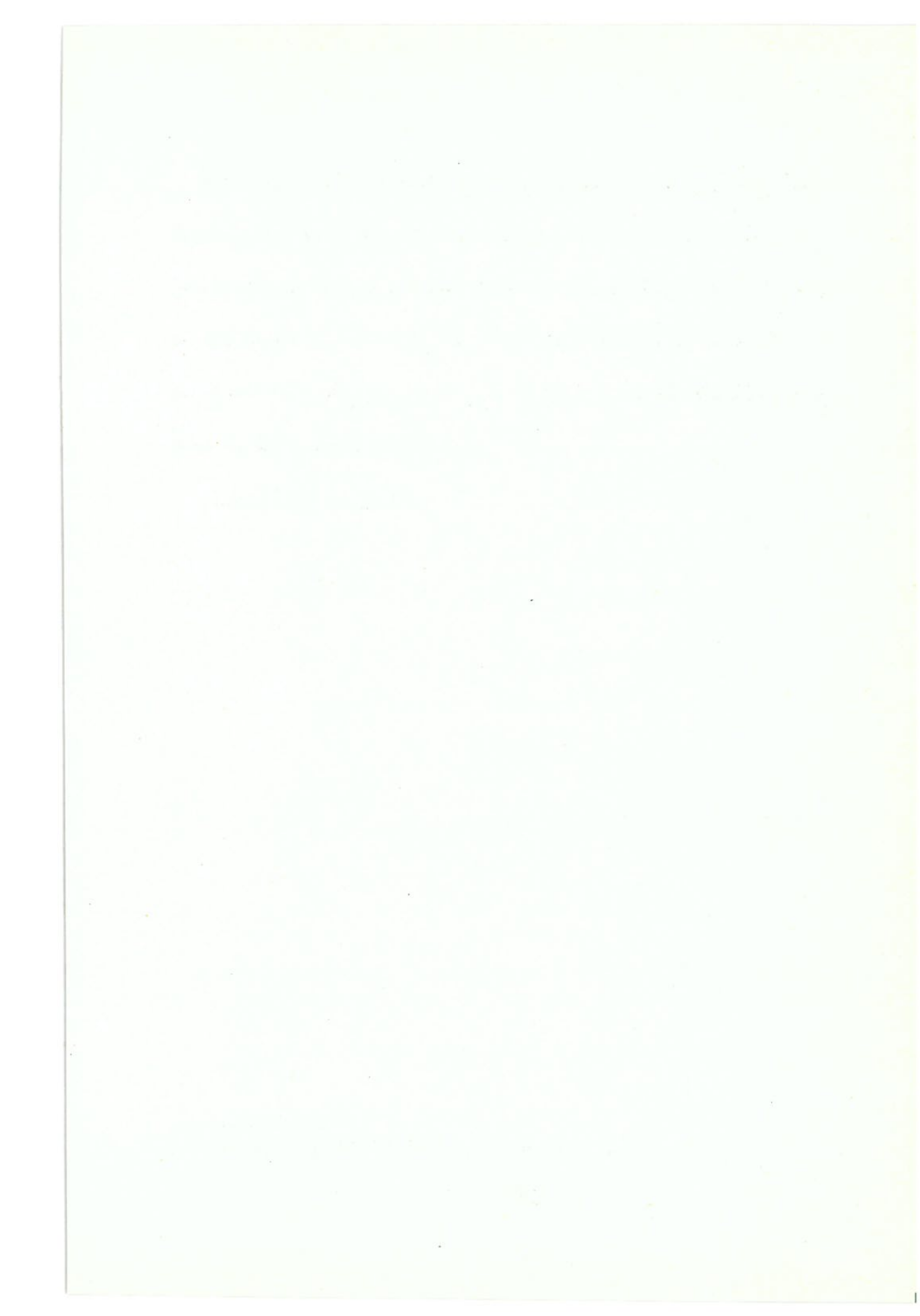
- والشعب يبدأ من هنا لكي يمارس إنسانية بطريقة عادلة.

ولكن المرء لا بد أن يتذكر على الفور أن وجود هذا المنهج شيء، وقدرته على ضمان الفعالية شيء آخر، فليس ثمة فلسفة سياسية في العالم لا تزعم أنها مليئة بالإنسانية إلى حافتها.. وليس ثمة فلسفة سياسية أيضاً ـــ بما في ذلك الديموقراطيات الحديثة في الغرب ـــ لا تتورط هنا في رذيلة الكذب المحض.

فالإنسان ما يزال مضطهداً في جميع الفلسفات. وما يزال مثل كلب الزينة ــــ مجرد شعار على الترف الفكري. وما دامت السياسة عاجزة عن احتواء مناهجه العظيمة وحمايتها حماية تامة بقدرة القانون الفعال الموثوق به، فإن فلسفة السياسة ستظل على الدوام مجرد قاطع طريق مسلح بالبنادق يذرع هذا العالم لكي يبني زنزانة وراء كل باب يفتحه الله للإنسان، ويضع أمامه شرطياً مسلحاً، وعلامة مرور.

وأحياناً أيضاً مشنقة.[1]

1- كلمات الحق القوية ص 244 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .



كل خطوة في الاتجاه الخطأ ندفع ثمنها مرتين.[1]

والسؤال هو: ما الذي تحتاجه (بلادنا) من المرأة والرجل على السواء[2]؟

لو كان الفقر رجلاً لمات من الجوع... ولكن الجهل...[3]

رسالة الصادق وتجربته وحكمه وتأملاته

بصائر تدل على وعي عميق وتفرقة بين الوهم والحقيقة وبين الخيال والواقع إنه الصادق بكل شغبه ومباشرته وتأملاته".

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 151 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .
2- الحديث عن المرأة والديانات ص 127وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .
3- كلمات الحق القوية ص 285 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .



➢ **ادرس خطوتك:**

كل خطوة في الاتجاه الخطأ ندفع ثمنها مرتين.[1]

➢ **إملأ رأسك:**

ويحك المرء رأسه.[2]

➢ **المكتوب على الجبين :**

وأنا كتب الله على جبيني أن أعيش في الوسط بين الناس الذين يؤمنون بالغولة وبين الناس الذين لا يؤمنون بكلمة واحدة عنها.. بين محرر يقول لي بالحبر الأحمر «أيها الأخ.. احترس من العفاريت العضاضة» وبين صاحبة البيت التي تقول لي بالعين الحمراء «إلزم الهدوء قبل أن أكسر رأسك».

إن الرأس بالذات ليس شيئاً بالنسبة لمن يعيش مثلي في الوسط.. إنه مجرد مصدر للألم سواء كسرته صاحبة البيت أو شقّه الصداع إلى نصفين حتى الصباح.. كل ما في الأمر أن الصباح السخيف لا يشرق بسرعة إذا عرف أنك خائف من الغولة.

إنه ينتظر مائة عام على باب البيت.. ينتظر ويضحك في سره ويتركك للظلمة المثيرة للريبة.. وتنتظر أنت مفتوح العينين وترى الظلال تتلاعب أمامك كالقطط، وترى الكرسي يتسكع في الغرفة على هواه وظل معطفك

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 151 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

2- كلمات الحق القوية ص 186 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

ينبت رأساً وقدمين والسقف يزدحم بالمارة وتسمع قلبك يدق مثل ناقوس المطافئ وتحس بشفتيك المتيبستين من الرعب وتبللهما بقليل من البصاق.. وتعرف إذ ذاك إنك وحيد.. وأن أحداً على مد العين لا يشاركك وحدتك.

الناس الذين يسكنون معك في البيت، والناس الذين يقيمون معك في المدينة أو في القارة بأسرها، كل مخلوق منهم مشغول بحياته وعالمه. كل مخلوق منهم ينام ملئ جفنيه بدون صداع. وإذا داهمه الصداع يذهب هادئ البال إلى الصيدلية ويشتري لنفسه علبة أسبرين.. أنت وحدك تنتظر الصباح وترتجف رعباً أمام ظل معطفك.. أنت وحدك لأنك ليبي وحيد وتقرأ الصحف الليبية.

ذلك أمر مؤلم...

أعني أن تجلس وحدك وتترك دماغك يعمل كحصان مجنون يذرع بك الدنيا والناس والمسافات ويتركك تحس بأنك ضئيل وعقيم مثل برغوث عاقر ذلك أمر مؤلم جداً..

أعني أن تعرف..

وتعرف بالذات أنك تعرف حقاً وأن الله لم يخلق غولة واحدة تستطيع أن تمنعك من الذهاب إلى الصيدلية وأن الله أيضاً لم يخلق جنباً واحداً يستطيع أن يخبطك أو يحرك كرسيك من مكانه أو يمارس تجاهك أية حيل

غير مرئية. أعني تعرف أن عالمك آمن وطبيعي إلى حد الملل، وأن الله لم يملأه لك بالمخلوقات السرية، وأنه إذا كان قد ملأه حقاً لسبب ما فإن هذه المخلوقات ستبقى سرية إلى الأبد ولن تحاول الاحتكاك بك ولن تطاردك في الظلمة أو في وضح النهار ولن تشج رأسك بحجر لأن الذي يطاردك ويشج رأسك لا يبقى مخلوقاً سرياً بل فتوة مطلق السراح. ولأن الله لا يصنع هذا العالم البديع ثم يطلق فيه سراح القنوات لكي يعبثوا بعبادة المرئيين. يصبح ذلك مؤلم جداً جداً.

أن تعرف وجه الحق.

وتعرف بالذات أن الله العادل لن يصيبك بالصداع ثم يضع لك غولة في طريق الصيدلية ولن يلزمك بمد المجاري ويملأ لك الخرارة بملوك الجن ولن يقبض نفس إنسان ثم يترك غولته تتسكع في دار الفناء على هواها وتقذف المارة بالطوب. تعرف أن الله العادل قد أعطاك فرصة عادلة لكي تمد رجليك الماديتين في عالمه وتنعم بحياتك هادئ البال وتدافع عن نفسك تحت ظروف مادية بحتة، مؤلم أن تعرف ذلك ومؤلم أكثر أيضاً أنك ما تزال عاجزاً عن الدفاع عن نفسك حتى ضد الصداع.

وإنك تجلس وحيداً في انتظار الصباح فيما ينام بقية عباد الله، وإنك إذا أصابك الطيش وقررت الذهاب إلى الصيدلية فسوف تقابل غولة حقاً وسوف تطلع لك بدون رأس وتركض وراءك بالأحجار وتقرض قطعة من أذنك. ذلك مؤلم أكثر.

أعني أن تعرف.. ولا تعرف.

أن تعيش بعقلك في نصف العالم المرئي وتعيش بغرائزك البدائية في نصفه الآخر المظلم، أن تحشو دماغك بمعارف هذا العصر المتناهي الوضوح وتحشوه أيضاً بمعارف الكتّاب الليبيين عن الجن وأخواته.. أن تعيش في الوسط مثل الحبل. واحد يشدك من أذنك ويقول لك إنك خليفة الله في الأرض، وإنك سيد هذا الكون بدون منازع، والآخر يشدك من أذنك الأخرى ويقول لك بالحبر الأحمر «احترس من الخرارة، ورد بالك من الأسياد» أعين ذلك مؤلم وغير معقول جداً.

أن تكون سيد العالم وتكون أيضاً تحت رحمة خرارة البيت، أن تعتبر نفسك سيداً ثم تدعو مخلوقاً آخر من سكان البالوعات والمراحيض باسم «الأسياد» أن تهبط فوق القمر وعينك على البالوعة. أن تكبر حتى تحس رأسك يناطح حذاءك عندما تقرأ عن هزائمهم المتلاحقة أمام العفاريت وقبائل الجن البدائية في صحفنا المتشائمة، إن هذه اللعبة المؤلمة لا بد أن تصيبك طبعاً بالصداع. وتصيبك بالملل في انتظار الصباح وتجعلك أضحوكة في أفواه الجيران وتجعل صاحبة البيت تقول عنك لأطفال الحارة من باب التشهير «هل تعرفون العبد الأسود الذي يقطن في بيتي.. حسناً هل تعرفونه.. هل رأيتم جسده الضخم مثل جسد الحمار. حسناً إنه يخاف من الغولة، ويخاف أكثر من الخرارة!..».

ذلك يحدث عندما تعيش في الوسط مثل الحبل. يشدك العالم إلى أعلى في اتجاه القمر ويشدك إخوتك الكتّاب في ليبيا إلى أسفل في اتجاه مملكة الجن.. ذلك يحدث ويجعلك تشعر بأنك حبل حقاً وأنك لا تختلف عن بقية الحبال إلاّ في نقطة واحدة. أنت حبل يحتاج إلى الأسبرين وتشهر به صاحبة البيت ويعيش وحيداً بين معشر الإنس ومعشر الجن على السواء لأنه مجرد حبل حقاً.

الصناعة في هامبورغ والحلفا من ليبيا.[1]

➢ **كن صاحب موهبة .**

لحظة يا أصدقائي..

فأنا ملزم هنا بأن أظهر مدى عجز كلماتنا وحدها عن أن تقول شيئاً نافعاً وإنها تظل ملقاة على الورق، بلهاء، سوداء الأنوف مقززة مثل القملات، لا تستطيع أن تقول شيئاً واحداً حتى تتدخل الموهبة لإنقاذها.[2]

➢ **مسؤولية المثقف :**

أنا مازلت أحس أنني أحاول إيجاد زاوية جديدة أنظر منها إلى المشكلة بطريقة أكثر وضوحاً.[٣].

1- فرسان بلا معركة ص 164 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر .

2- الكلمة والصورة جمع سالم الكبتي - تالة للطباعة والنشر- ط1- طرابلس دون تاريخ ص 7

3- الكلمة والصورة جمع سالم الكبتي - تالة للطباعة والنشر- ط1- طرابلس دون تاريخ ص 10

➢ **ثقة بالنفس :**

إنني أعيش جيداً.

وأسير عبر أيامي برضاء حقيقي.. وأنا أبذل جهدي لكي أكون صالحاً أيضاً.. وإذا كانت الأخطاء تحدث أحياناً.. فهي تحدث بنفسها وبدون أن أدري حقيقة.. وقد بدأت أحس بقلبي.. أحس بدقاته البطيئة.. وبدأت أجد أبعادي وأفكر بصفاء أكثر.. وبدأت أهز رأسي وأنتفض مثل جرو سمين ولطيف ومبتهج.. وعبر الأيام القادمة أنا أتوقع كثيراً من الحياة..[1]

➢ **الإخلاص :**

أنا أصدع رأسك دائماً بكلماتي المزعجة.. أقول لك دائماً أردأ الكلمات عن بضعة أشياء تحبها، فدعني أعتذر بإخلاص..فأنا لا أقصد أن أسبب لك الحزن.[2]

➢ **فكر معي :**

أريد أن أعرض عليك بضعة تجارب.. وبضعة أخطاء لأنني أؤمن بك..

أريدك أن تعيش بكل شيء لديك.. بما وهبك الله الطيب ولا أريدك أن تفقد شيئاً في ممارسة الأخطاء والحزن..[٣]

1- نوارس الشوق والغربة -ب من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ - ص31

٢ نوارس الشوق والغربة -بعض من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ - ص31

٣- نوارس الشوق والغربة -بعض من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ - ص32- 33

➢ **القوة :**

الإنسان قوي ما دام يعرف ذلك.[1]

➢ **التجربة :**

التجربة ليست أصل الكلمة الدقيقة.. التجربة العاهرة بنت العاهرة ليست أصل أي من الكلمات الدقيقة.. ولكنها قلب المشكلة ذاته.. إنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً بالتجربة وحدها.. ولا تستطيع أن تفعل شيئاً بدونها.. وهي أكثر أسلحة الكلمات حدة وفعالية في مخادعة الأصدقاء.. إن الشيطان نفسه لم يقم بتضليل عدد من الناس أكثر مما فعلت الكلمات باسم البحث عن التجربة.. باسم النظرية الخاطئة الممتلئة بالعار وأكبر الكذبات على الإطلاق التي تقول: (عش أكبر قدر ممكن من التجارب قبل أن تشرع في الكتابة).. لأنه لا وجود لما يسمى (أكبر قدر من التجارب) كما أنه لا وجود (لقدر غير قاتل من الموت..)، ومن الثابت أنك لا تستطيع أن تكتب تجربة عشتها أنت، لأن ذلك بكلمة واحدة: مستحيل، فأنت لن تخرج من جلدك أبداً.. ولكنه يمكنك أن تتحدث عنها ببرود كامل بالنسبة لك نفسك، لأنك وحدك تعرف مدى حرارة الحقيقة وصدقها.. وليلعنني الله ألف مرة إن كنت لا أعرف ذلك تمام المعرفة..[2]

1- نوارس الشوق والغربة -بعض من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ - ص48

2- نوارس الشوق والغربة -بعض من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ - ص58

➢ هوية كتابتي :

لمن أكتب أنا؟ سأقول لك: لبداية النحاس المتينة، لأربعة آلاف ميل معبأ بالشوق والأمنيات.. للجزار وباعة العظام وسائقي عربات الأجرة والنقل.. وللخفراء.. والطلبة، أنا أكتب لكل من أعرفهم.. وليس ثمة ما يخيفني من أي اتجاه، فالنقد لا يشعرني بالارتباك.. وإذا كان أحد لا يفهمني الآن.. فسوف يأتي رجل آخر ويفهمه كل أحد على الفور.

أنا لا أريد أن أحقق شيئاً، سوى أن أهيىء مكاناً لذلك الرجل القادم في الطريق، أجعله أكثر ألفة.. وأعطيه فرصة لكي يقترب خطوتين، ما يمدني بالقوة: أنا أعرف أنه قادم.. وأنت تعرف ذلك أيضاً.[1]

➢ الحفر على الكلمات :

إن مهنة الحفر على الكلمات مهنة قراءة لانقطاع فيها.. اقرأ حتى تصاب بالدوار.. وعندما تصاب بالدوار اقرأ مرة أخرى.[2]

➢ الاعتماد على الله :

الطريق الوحيد أمامي أن أعتمد على الله.[3]

1- نوارس الشوق والغربة -بعض من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ ص121

2 نوارس الشوق والغربة -بعض من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ ص154

3 نوارس الشوق والغربة -بعض من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ ص163

➢ **ضد لغة الشتم :**

أما الفقهاء، أعني الشيوخ الذين يتبرعون بشتمي من أجل نعجة العيد فإنهما مجرد عجوزين بائسين لا يملكان في هذا العالم سوى قوقعتين من النحاس الخردة، وهما يعتقدان أنني أهدف إلى إيذائهما في الداخل، ولعلني فعلت ذلك حقاً، وأنا آسف من أجلهما، ولكنني لن أتورط في أي نقاش مع قوقعتين بائستين، فأنا يا صديقي أؤمن إيماناً ثابتاً بأن الدين ليس حرفة في وزارة الأوقاف، وأؤمن بأن الله لن يقبل هذه اللعبة إلى الأبد، فالإنسان سيجد طريقه ذات يوم، وتفتح النوافذ على الشمس، وتعيش نعجة العيد لكي ترضع صغارها رغم أنف الهلال.[1]

➢ **صناعة النفس :**

إن الدراسة عمل جيد ولكنه يحتاج إلى صبر وإلى نية حسنة، ورغبة أكيدة في القراءة.. فافعل ذلك وسوف ترى أن الأبواب تفتح أمامك، وترى أنك صنعت نفسك.[2]

➢ **الإيمان بالله :**

لست حكيماً، ولا صاحب سلطان، ولكن إيماني بالله يجعلني دائماً أحس بأنني سأظفر بصداقة كثير من الرجال الطيبين، وقد حدث ذلك كما ترى، وما يزال يحدث كل يوم[3].

1- نوارس الشوق والغربة -بعض من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ ص169 ص171

2- نوارس الشوق والغربة -بعض من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ ص188 ص189

3 -نوارس الشوق والغربة -بعض من رسائل الصادق النيهوم - جمع سالم الكبتي-تالة للطباعة والنشر طرابلس دون تاريخ ص197

➢ **أضئ عقلك**

إن الإنسان المقلوب على رأس، يخسر رأسه ورجليه معاً. [1]

➢ **ـ رسالة الصادق 1:**

حب الوطن:

إن المرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً بعود ثقاب سوى أن يشعل به لفافته ويحرق رئتيه بالتبغ.

وكذلك الكلمات، إنها تعذبك مثل القطط المتوحشة لكي تخلقها، ويقرأها الآخرون في ((الأوتوبيس))، ويتركونها عند المحطة القادمة.

إنني لا أستطيع أن أجعل تجربتي تقودني بعيداً عن ليبيا، إنني أجمع كلمات من أرصفة العالم، وأجثو على ركبتي لكي أنسقها في الخيوط قم أعرضها للبيع بالتجربة.

أنا يربطني بوطني: قلبي وساعي البريد)).[٢]

الحب:

اعذرني أنا.. إذا كنت أبدو مثل واعظ أحمق يوالي نصائحه هكذا بلا تجربة.

فأنا أحبك يا أخي.. أحبك بعمق وتدفق.. وأنا أؤمن بك.. ولا أريد

---

1 -الإسلام في الأسر ص 169

٢-لكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص ٩

أن أراك تضيع.. وتبقى في (السفح مع الغبار والحزن) لتنظر إلي أنا فوق القمة.. لقد هزني ذلك وجعلني أختنق، فإذا قلت ذلك لي (تبقى في السفح وتصلي من أجلي لكي أصل إلى القمة).. وأنت ألا تريد شيئاً.

ألا تستحق أن تكون هناك أيضاً، أخي إني أقول للأقزام النتنين.. لوحوا لي من السفح فقط.. ولكنني لا أقبل مطلقاً أن أسمع ذلك من خليفة.. لأنه يقتلني..[1]

معية الله وسلام القلب :

وليكن الله معك.. وليهبك القوة لكي تثبت.. ويملأ قلبك بالسلام والأمل.. ويعينك الخالق.. على مواجهة الحزن المتدفق من قلبك ويأخذ بيدك.[2]

ثابت الخطو :

إن طريقاً طويلاً مليئاً بالأقزام أمامك.. وعليك أن تعبره كله بثبات.. وسوف ترى منهم آلاف التفا هات المؤلمة.. وترى أنهم سخيفون جداً.. ولكن عليك ألا تبالي بهم.. دعهم يلعقون أنوفهم وسر أنت بثبات فإن هذا العالم الواسع يحتاج إليك.. وثق أنك كبير..[3]

١-لكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص٢٥
٢-لكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص٢٦
٣-لكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص٢٦

نعم للحياة :

أنا أعيش حياة جديدة بالتأكيد.. ولكنني لا أدري أي نتيجة لهذا كله.. والتغير يحدث داخلي باستمرار.. وأنا نصف ميت ونصف حزين، وليس ثمة شيء أعرف أنه سيحدث.. ولدي فيروز.. ولدي كتابك الصغير.. وبضع رسائل أخرى.. وثلج وقلق.. وأفكار متمردة مليئة بالرعب والفلسفة.. وعالم واسع يحتاج إلى معرفة.. ولدي نقود ومسجل.. وأنا أحن إليك..[1]

الشعور الحزين :

إن المرء يشعر بالحزن وباليأس وبالعار قبل أن يتعلم كيف يبدو وجه الحياة الحقيقي، وأعتقد أنني أمر الآن بمرحلة اليأس.. اليأس من كل شيء حتى من الذهاب إلى الجحيم..[2]

العار :

العار عار الحزن. [3]

السوء :

ما أسوأ أن يحس الإنسان بالغربة في بلده.[4]

ضياع الهدف :

وإن المرء ليفقد أبعاده جميعاً عندما يضيع نقطة البداية.. ويتحول ببطء

1-الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ .ص26
2-الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص70
3 الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ-ص71
4- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص94

إلى مسخ مروع، مقلوب في جميع الاتجاهات مثل مروحة الطاحونة، ثم يقف مشدوهاً حيث تختلط الألوان وتلتقي جميع الطرق الصاعدة والهابطة.. حيث كان من المفروض أن يقف الشيطان وحده.[1]

➢ **في الثقافة :**

المشكلة :

إن مشكلة ليبيا ليست هي الأمية ولكنها ((العزلة الثقافية)) بين أفراد المجتمع الواحد.

إن بلادنا مصابة بمرض ((الإقفال)).[٢]

رسالة الصادق :

لمن أكتب أنا؟ سأقول لك: لبداية النحاس المتينة، لأربعة آلاف ميل معبأ بالشوق والأمنيات.. للجزار وباعة العظام وسائقي عربات الأجرة والنقل.. وللخفراء.. والطلبة، أنا أكتب لكل من أعرفهم.. وليس ثمة ما يخيفني من أي اتجاه، فالنقد لا يشعرني بالارتباك.. وإذا كان أحد لا يفهمني الآن.. فسوف يأتي رجل آخر ويفهمه كل أحد على الفور.

أنا لا أريد أن أحقق شيئاً، سوى أن أهيىء مكاناً لذلك الرجل القادم في الطريق، أجعله أكثر ألفة.. وأعطيه فرصة لكي يقترب خطويتين، ما يمدني بالقوة: أنا أعرف أنه قادم.. وأنت تعرف ذلك أيضاً.[٣]

1- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص105

2- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص119

3- الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص121

➢ **تجربة الصادق :**

شجار الأشباح :

دعونا نتذكر أن الشجار مع الأشباح فوق الصحف عمل لا يتسم بالقدرة على البناء أو الهدم، إنه مجرد إفراغ شحنة من الضيق.(١)

نقد البدائية :

عندما قلت أنت ذات مرة إن مجتمعنا البدائي ليس معداً لاحتمال ذلك النقاش، وإنه يستطيع أن يستدير ليخنقنا بيديه إذا حاولنا أن نجعله يرى أخطاءه حقاً، بدا ذلك بالنسبة لي مجرد عذر واهن تلتمسه لنفسك لكي تتجنب متاعب مهنتك.

فقد كنت لا أصدق شيئاً من مخاوفك الوهمية، وكنت أعتقد أن الأمر كله مجرد مبالغة من جانبك في تصور رد الفعل، وقد خيل لي أنني أستطيع أن أثبت لك ذلك إذا أتيحت لي فرصة نقاشك عن قرب. (٢)

حقائق ونقاش :

كل ما في الأمر أنني أحاول أن أعرض أمامكم الآن بضعة حقائق أخرى أكثر قبولاً للنقاش:

الحقيقة الأولى: أن المشاكل مثل الأمراض تتفاوت من الإصابة بالسرطان الذي يسبب الموت على نحو بشع ومؤكد إلى الإصابة بصداع جزئي يحدث نتيجة الإفراط في السهر وينتهي حقاً بحبة أسبرين.

1-127 الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ

2-134 الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ

والمرء لا يعالج أمراضه على نحو سواء، أعني أن المرء لا يترك السرطان يأكل قلبه، ويكتفي بعلاج الزكام وحده.. إنه في أسوأ الحالات لا بد أن ينسى زكام ريثما يعرف أن السرطان لن يقتله غداً.

الحقيقة الثانية: أن علاج المشاكل ـــ والأمراض أيضاً ـــ يبدأ دائماً بالتشخيص.. بالدراسة والمقارنة ومحاولة التنبؤ لتحدي منقطة العمل. والمرء ـــ عندما يرتكب خطأ هنا ـــ يحكم على نفسه بالموت على نحول خالٍ من فضيلة الشجاعة.

الحقيقة الثالثة: أن المشاكل مثل الأمراض لا يمكن علاجها بالنوايا الطيبة أو أكياس الطعام أو الخطب الفصيحة. إنها لا تنتهي قط إلا إذا وجدت نهاية عملية محددة.

أليس كذلك؟[1]

➢ ـــ رسالة الصادق2 :

الطريق الوحيد أمامي أن أعتمد على الله.[2]

➢ ـــ رسالة الصادق3 :

لغة الشتم :

أما الفقهاء، أعني الشيوخ الذين يتبرعون بشتمي من أجل نعجة العيد

1 - كلمات الحق القوية ص 197 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

2 - الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص163

فإنهما مجرد عجوزين بائسين لا يملكان في هذا العالم سوى قوقعتين من النحاس الخردة، وهما يعتقدان أنني أهدف إلى إيذائهما في الداخل، ولعلني فعلت ذلك حقاً، وأنا آسف من أجلهما، ولكنني لن أتورط في أي نقاش مع قوقعتين بائستين، فأنا يا صديقي أؤمن إيماناً ثابتاً بأن الدين ليس حرفة في وزارة الأوقاف، وأؤمن بأن الله لن يقبل هذه اللعبة إلى الأبد، فالإنسان سيجد طريقه ذات يوم، وتفتح النوافذ على الشمس، وتعيش نعجة العيد لكي ترضع صغارها رغم أنف الهلال.[1]

➢ حكم الصادق :

المراكب لا تبحر في الرمال.[2]

➢ الطموح والإيمان :

إن الطموح يستطيع أحياناً أن يحيل الملح إلى لؤلؤ، ولكن الإيمان وحده يستطيع أن يبيعه[3].

➢ الحق أولا :

ليس ثمة دين ولا قانون ــ مهما كان ــ لم يتم تحويره في عصور الجهالة.. أو لم يسأ فهمه.. ولكن الحق يبقى في النهاية أكبر..أكبر من الرجال.. ومن الجهل.. ومن المظالم التي ترتكب في حق النساء..[4]

---

1 - الكلمة والصورة ، جمع سالم الكبتي ، تالة للطباعة والنشر ، ط 1 طرابلس ،بدون تاريخ ص169 ص171

2- من قصص الأطفال . ص 20 ط 1 2002 تالة للطباعة والنشر ليبيا

3- من قصص الأطفال . ص 30 ط 1 2002 تالة للطباعة والنشر ليبيا

4- كلمات الحق القوية 48ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

➢ ادرس :

العالم كله سعيد لأن العرّافين أخطأوا الحساب.[1].

➢ لاعبرة واختبار:

التاريخ مثل سجلات البلدية كله أسماء..[2]

➢ نهاية مؤلمة :

يا إلهي ماذا يستطيع العناد أن يفعل بأحد المواطنين.[3]

➢ مرارة الكلمات :

«كلماتنا أصبحت أكثر مرارة نظراً لارتفاع ثمن السكر[4]+

➢ الحرب :

حكاية الحرب بدأت بالصدفة مثل معظم الحكايات الإنسانية. فمنذ مليون سنة تقريباً لم يكن الإنسان يملك ثمة ما يقاتل من أجله. لم يكن يملك بيتاً أو مزرعة أو أبقاراً أو نساء بل كان يهيم على وجهه في الغابة ويتعقب الضباع لكي يأكل ما تتركه وراءها ويصطاد لنفسه امرأة في فصل الربيع لكي ينجب منها قرداً لآخر ثم يهيم على وجهه في الغابة. لم يكن

1- كلمات الحق القوية ص 80 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

2- كلمات الحق القوية ص 189 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا

3- فرسان بلا معركة ص 88 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر .

4- فرسان بلا معركة ص 107 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر .

لديه ثمة ما يدافع عنه سوى فروة رأسه وكان يؤدي هذه المهمة معتمداً على ساقيه.

ثم قرر أحد ما أن يحتفظ بامرأته بدل أن يتركها تركض وحدها في الغابة ببطنها المنتفخ. امسكها من شعرها وجرها وراءه إلى أول كهف صادفه في الطريق وانطلق فوراً لكي يحضر لها ثمة ما تأكله. وعندما عاد ذلك القرد محملاً بالأرانب البرية الميتة واكتشف أن امرأته قد أنجبت له قرداً، أدرك على الفور أنه لم يعد بوسعه أن يعتمد على ساقيه في النجاة بنفسه. كان الكهف والمرأة والطفل قد ربطوه بجانبهم إلى الأبد وكان لا يستطيع أن يدافع عنهم بالجري.

تعلم الإنسان «الدفاع عن الحمى»..

تعلم أن يقف عند فوهة الكهف ويقاتل الضباع دفاعاً عن أطفاله ومخزونه من الطعام. لم يعد بوسعه أن يلوذ بالفرار ويترك الضبع تأكل امرأته أو أطفاله أو أرانبه المجففة.. أصبح الفرار فضيحة خلقية وأصبحت الشجاعة أن يموت المرء واقفاً عند فوهة الكهف.. من هنا استمدت الحرب أخلاقياها التي نقرأ عنها في الأشعار.

بعد نصف مليون سنة كان الإنسان قد استعمر الأرض بفضل نظامه الجديد وكان قد تكاثر أكثر من أي حيوان آخر واحتل جميع الكهوف القابلة للسكن وطرد جميع الحيوانات إلى داخل الغابة وصار يعيش في مجتمع

قبلي متكامل العدد و لم يعد يملك عدواً واحداً يجرؤ على مهاجمة كهفه سوى جاره الإنسان..

إذ ذاك ولدت الحرب. كان القتال ــ هذه المرة ــ يحدث بصورة مختلفة، فلم يعد الخصم مجرد ضبع أخرق يعتمد كلية على أسنانه الخرقاء أو مجرد عقرب ينوي أن يكسب معركته بقليل من السم، بل أصبح إنساناً يحمل في جمجمته عقلاً هائل التعقيد والإمكانيات وأصبحت الحرب مبارزة ضارية بين العقول وحدها.. عبر هذا الطريق وصل إنساننا المعاصر إلى قنبلته الذرية.

فقد كان بوسعه أن يحقق انتصاره على بقية الحيوانات الأخرى بالحربة والسهم. لم يكن يحتاج إلى أي سلاح معقد لكي يقتل ضبعاً أو نمراً بل كانت تكفيه سلة من السهام أو حربة من الحجر لكي يدافع عن كهفه بكفاءة ضد أقوى حيوان في الغابة.. لم يكن الإنسان في حاجة إلى القنبلة الذرية لولا أنه فوجئ ذات مرة بأن سهامه لم تعد تكفي لقتال خصمه الجديد..

حدث ذلك منذ نصل مليون سنة تقريباً. مرَّ قطيع من أنصاف القرود بمنطقة غنية بالأرانب والكهوف. وقف قائد القطيع فاغراً فمه أمام هذه الجنة. كان في حاجة ماسة إلى الطعام والمأوى وكان يحتاج إلى كهف وأرانب مجففة، لكن المشكلة بالطبع أن جميع الكهوف كانت تخص قروداً آخرين.

خلال الليل انشغل قائدة القطيع بدفتر حساباته. لم يكن يختلف في شيء عن أي تاجر معاصر يدرس أحوال البورصة لكي يعرف فرصته في المضاربة، ولم تكن عملياته الحسابية تحتاج إلى إرهاق ذهني خاص. لقد وجد كل شيء واضحاً أمامه مثل الشمس.

فأنت لكي تستولي على الكهوف تحتاج أولاً إلى أن تقتل الساكنين فيها أو على الأقل تدفعهم إلى الهرب. ولكي تحقق هذه الأمنية سوف تحتاج بالطبع إلى أن تقاتلهم لبعض الوقت. ولكي تقاتلهم سوف تحتاج إلى معظم الأفراد الأقوياء في قطيعك. ذلك يعني أن تضحي ببعض مواطنيك مقابل الكهوف والأرانب المجففة.

الصفقة رابحة في دفتر قائد القطيع.

فالإنسان يمكن تعويضه فوراً. إنك لا تحتاج إلى شيء آخر لكي تعوض خسائرك من الناس سوى أن تمارس بعض الحب مع أمهاتهم ثم تنتظر تسعة أشهر.. إذ ذاك سوف تلد لك النساء رجالاً جدداً، تلد لك رجالاً على عدد شعر رأسك لكي تنال بهم مزيداً من الكهوف. إن المرأة لا تستطيع بالطبع أن تلد كهفاً أو أرنباً مجففاً ولكن قائد القطيع ـــ بقليل من الدهاء ـــ سوف يحصل على هذه البضاعة بطريق المقايضة.. إن الحرفة جاهزة للممارسة بدون رخصة.

الإنسان ـــ أعني رأس مال الحرب ـــ يحصل عليه المرء بالمجان يطعمه ويربيه مثل العجل، ثم يحمله معه إلى ساحة الحرب، وهي سوق عادية للبيع والشراء بطريق المنافسة، وهناك يقايضه بأرنب مجفف أو كهف أو شارع في مدينة ويدفنه في احتفال صاخب ويقيم له نصب الجندي المجهول ويدعوه شهيداً في طريقه إلى الجنة.

الإنسان عملية نقدية من فئة القرش أو المليم حسب الظروف.

وقائد القطيع يقايضه في كل عصر بأي شيء يؤكل. أحياناً بكيس من الشعير.. أحياناً ببيدر البرتقال في يافا ويقيم له النصب التذكارية إذا التزم جانب الأخلاق الفاضلة ومات طبقاً للأوامر ويربط عينيه بمنديل أسود ويعدمه رمياً بالرصاص ـــ بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية ـــ إذا قرر العجل أن يعرب من المجزرة.

قلت لك إن قائد القطيع يقايض مواطنيه في كل عصر بأي شيء يؤكل. معذرة، هذه الحقيقة لا تنطبق على عصرنا الحالي. إننا لم نعد نقتل من أجل القوت. بل من أجل «المبادئ» فقط.. موشى دايان يقايض مواطنيه بخرافات التوراة.. الرئيس نيكسون يقايض مواطنيه ببعض الديمقراطية.. هتلر خسر مدخراته في المضاربة على أسهم الجنس الجرماني.. روديسيا سوف تخسر مدخراتها في المضاربة على العجول البيضاء.. فليس بالخبز

وحده يباع الإنسان بل بالفلسفة أيضاً وبعض فصول التوراة.. إن حرفة الحرب لا تستحق أن تنقرض لمجرد أننا لم نعد نحتاج إلى الكهوف والأرانب المجففة.

فكم قرشاً يساوي الإنسان؟..

سأقول لك، وأرجو أن يعتريك العار ذات مرة، لقد جمعنا ثمن الكهوف الموجودة في العالم وأضفنا إليها أثمان الأرانب المجففة والخنازير وقطعان الماشية وكتب الفلسفة والتوراة وحقول القمح والمدن. جمعنا كل ما مات الإنسان من أجله وقسمناه على عدد القتلى في تاريخنا الدموي فظهر لكل ميت مبلغ قدره تسعة ملاليم! يأخذها ويقلع بها إلى الجنة بمثابة تذكار من حرفة الحرب التي اخترعها الإنسان — كما اخترع بقية الحرف — لكي يكسب بها قوت عياله ثم صار مع عياله مجرد قوت للحرب.[1]

➢ **مسمار**

«الرجاء من المواطن ز. د. ألّا يتعرف على نفسه هنا[2]+.

➢ **الاسلام**

نحن شعب مسلم، ونحن نؤمن بالروح، ونؤمن بأن موتانا يذهبون حقاً إلى لقاء الله[3].

1- فرسان بلا معركة ص 111 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر .
2- فرسان بلا معركة ص 113 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر .
3- فرسان بلا معركة ص 124 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر .

➢ الدين ليس قضية فردية :

لم يكن الحديث دعوة إلى إلغاء الشعائر ــ كما اعتقدت أنت ــ وليس من مهمتي، أو من حقي، أن أذهب في هذا الاتجاه خطوة واحدة. فكل مخلوق حرّ في أن يفعل بنفسه ما يشاء. لكن علينا أن نتفق على أن الشعائر وحدها لا تحل مشكلتنا، وأن الدين ليس قضية فردية، يترافع فيها كل مواطن على حدة، بل جهاد جماعي موجّه لضمان العدل، وهو لا يتحقق أصلاً من دون جهد الجماعة كلها التي لا تتكون من رجال طوال القامة يعتبرون أنفسهم أبناء الله لمجرد أنهم مسلمون ملتحون، بل تتكون من نساء وأطفال ومراهقين وعجائز وطوائف دينية ونحل ومذاهب ومواطنين يشغلهم البحث عن الله ومواطنين لا يشغلهم وعدو يحتل الشوارع والطرقات ودينا لا ينتظر، ولا ترحم أحداً ومجتمع مقهور ويائس وبائس يريد أن يخرج من زنزانة القرن السابع التي حبسه فيها الفقه والإقطاع باسم الحفاظ على الدين بالذات.[1]

➢ رسالة الصادق 4 :

دع الأكاذيب :

إذا كنت تملك الدليل على ما تزعمه، فأرجو أن تنشره على الملإ، بأي طريقة تختارها. ودعنا نعرف متى وظفت قلمي، وأين هو ثرائي المزعوم.

1- إسلام ضد الإسلام – شريعة من ورق ص95 ط3 2000- رياض الريس .

أما إذا كنت تقول ما لا تعلم، فدعني أذكرك بأن اختلاق الأكاذيب لتشويه سمعة الرجال الشرفاء، فكرة سهلة جداً، لكنها لا تكفي لإدانتهم حتى في محكمة يرأسها قاض غير عادل مثلك.[1]

➢ **حكم :**

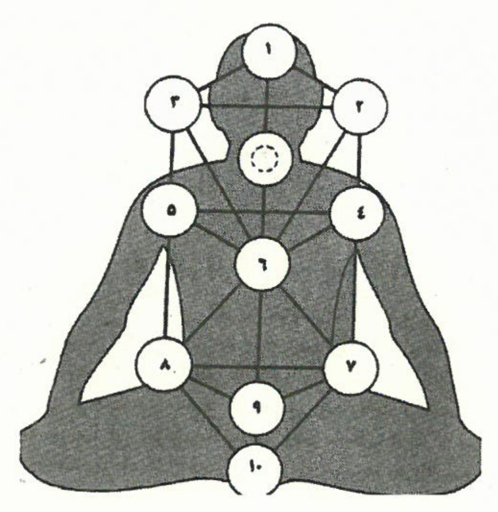
الدين قبل أن يخضعه السحرة لأهواء السياسة.

ربع سور القرآن تقريباً، تبدأ بحروف هجائية منفصلة تسمى (المقطعات) مثل: عين سين قاف، حاء ميم، ألف لام راء. وهي حروف لا تعني شيئاً في ظاهر اللغة، مما أطلق خيال المفسرين للبحث عن معانيها السرية، في محاولات تراوحت بين إعادة توزيعها في تنبؤات ملفقة مثل (نصر حكيم قاطع له سر)، وبين إخضاعها لحساب الجمل، سعياً وراء تفسيرها بطريقة سحرية بحتة. وآخر ما جرى في هذا الشأن، تمثل في قيام أحد «الباحثين» بحشد الحروف في برنامج إلكتروني، آملا أن يقوده الكومبيوتر إلى مفتاح هذه الشيفرة الإلهية. إن الأمر ــ لسوء حظ السحرة ــ لا يحتاج أصلا إلى مفتاح.

فالحروف ليست ألغازاً، بل علامات مألوفة، في مذهب صوفي مألوف، يعرف باسم (القبّالة). وهي كلمة عبرية ذات أصل آرامي مستقة من ((ق ب ل) بمعنى (تقبل وارتضى وأخذ وأطاع)، ومنها (حال القبول) في لغة التصوف الإسلامي.

1- إسلام ضد الإسلام – شريعة من ورق ص103 ط3 2000- رياض الريس .

صفة هذا المذهب، أنه يرتكز على نظام تدريبي خاص، يعرف باسم شجرة الحياة معدة لكي تطابق جسم المريد في وضع التأمل، وتضم عشر دوائر للمقامات التالية:



(1) الحكمة

(2) الإشراق

(3) الرحمة

(4) العزم

(5) التجلي أو القلب

(6) التجلي أو القلب

(7) العقل

(8) الشعور

(9) الضمير

(10) الأرض

أما الدائرة غير المرقمة، فهي مقام النفس التي يرمز لها بالتنفس.

(شجرة الحياة[1])، أو أعمدة الحكمة السبعة. وهي خطوط معدة لكي يتطابق جسم المريد في وضع التأمل، وتتكون من ثلاثة مثلثات رئيسية، بالإضافة إلى إحدى عشرة دائرة مرقمة، تمثل المقامات الروحية التي يسعى المريد لبلوغها عبر مسالك محددة:

المثلث الأعلى، يشير بقمته إلى السماء، ويضم ثلاث دوائر، هي مقامات التاج والحكمة والإشراق. ويمثل الذات العليا التي تتجلى في وحدة الوجود.

المثلث الأوسط، يشير بقمته إلى موقع القلب، ويضم ثلاث دوائر، هي مقامات الرحمة والعزم والتجلي. ويمثل النفس الذاتية التي انفصلت عن الكل، لكي تتجسد في الفرد.

المثلث السفلي، يشير بقمته إلى الأرض، ويضم ثلاث دوائر، هي مقامات العقل والشعور والضمير. ويمثل (الشخصية) التي تتقمصها الروح لكي تتجلى فيها.

أما الدائرة الأخيرة، فإنها تقع خارج نطاق المثلثات، لأنها لا تمثل مقاماً روحياً، بل تمثل كوكب الأرض، وتسمى (المملكة) ـــ وأحياناً ـــ (البوابة) باعتبارها مدخل الطريق إلى التجربة الصوفية.

1- اسم [شجرة الحياة]، مستمد من قول سليمان في كتاب الأمثال: (طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة، وللرجل الذي ينال الفهم. هي أثمن من اللآلئ، وكل جواهرك لا تساويها. طرقها طرق نعم، وكل مسالكها سلام. هي شجرة الحياة..) الإصحاح الثالث. أما اسم (أعمدة الحكمة السبعة)، فمستمد من قوله في الإصحاح التاسع: (الحكمة بنت بيتها. نحتت أعمدتها السبعة..) والمعروف أن كتاب الأمثال، كتاب تعليمي موجه للصبيان، ولعله يضم النسخة الكنعانية المبكرة للقبالة. إن رسم]شجر الحياة] قد ظهر في نقش فرعوني منذ الألف الثاني قبل الميلاد، كما ظهر اسم (شجرة الحياة) للدلالة على الشجرة التي تقتات منها الآلهة المصرية التي تنال الخلود.

الخطوط التي تربط بين المقامات، تسمى (المسالك)، وعددها اثنان وعشرون مسلكاً، أي بعدد حروف الأبجدية الكنعانية التي تم تحديدها في تشكيل ثابت، لإرشاد المريد إلى المسار المطلوب:

فحرف الألف مثلاً، يربط الدائرة الأولى بالثانية. وحرف اللام يربط الدائرة الخامسة بالسادسة. وحرف الميم يربط الدائرة الخامسة بالثامنة. وجمع هذه الحروف في تشكيل واحد مثل (ألف، لام، ميم)، يعني أن يبدأ المريد رحلة التأمل من مقام التاج إلى مقام الحكمة، ثم من مقام العزم إلى التجلي، ومنها إلى مقام العقل، حيث يتوقف لكي يحلل نتائج رحلته، التي تتم عادة طبقاً لخطة معدة سلفاً، تحت إشراف معلم مؤهل.

والظاهر هنا، أن المقطعات القرآنية، موجهة لكي تطابق هذا التشكيل الكنعاني بالذات. فالأبجدية الكنعانية تفتقر إلى حروف الغين والخاء والضاد والظاء والثاء والذال، مما يفسر غياب هذه الحروف عن المقطعات القرآنية أيضاً. أما بقية التشكيل، فإنه يطابق مسالك القبّالة على المقاس:

فمثلاً: ألف لام راء، تشكيل يرشد المريد إلى العبور من مقام التاج إلى مقام الحكمة. ومن مقام العزم إلى التجلي. ومنهما إلى مقام الضمير. وهي رحلة تغطي شجرة الحياة من الدائرة رقم 1 إلى الدائرة رقم 9، في ثلاثة مسالك متوازية.

ومثلاً: ياء سين، تشكيل يبدأ من مقام الرحمة، وينطلق إلى القلب في الدائرة السادسة، ومنه مباشرة إلى الضمير. وهي رحلة تربط بين ثلاثة مقامات بحرفين.

ومثلاً: حاء ميم، تشكيل يسلك في خط مستقيم، من مقام الإشراق إلى مقام العزم، ومنه مباشرة إلى مقام العقل في الدائرة الثامنة. وهي رحلة مسارها على جانب الشجرة الأيسر، وتتكرر سبع مرات في ما يعرف باسم (الحواميم السبعة).[1]

ومثلاً: طه (طاء هاء)، التي يزعم المفسرون أنها أحد أسماء النبي عليه السلام، تشكيل يربط مقام الرحمة بمقام العزم، في مسلك معترض، ويربط مقام الحكمة بالقلب في مسلك الرأسي.

وبالطبع فإن المريد لا يعبر هذه المسالك على هواه، بل يتقيد بنظام تدريبي خاص، يرشده إلى المسار الصحيح خلال التجربة، بتمارين معدة سلفا، تحت إشراف معلم مؤهل.

ويلفت النظر في هذه التمارين أنها بدنية بحتة، وليست صلوات أو تلاوة لنصوص مقدسة، مما يشير أنها ظهرت قبل ظهور المؤسسات الفقهية في حضارات الشرق القديم.

فالتمرين الخاص بإدراك العالم الحسي، أو عبور البوابة كما تسميه القبالة يهدف إلى تطوير قدرة المريد على التمييز بين الإحساس بالواقع وإدراك الحقيقة.

1- إسلام ضد الإسلام – شريعة من ورق ص110 ط3 2000- رياض الريس .

وهي مسألة عقلية معقدة تعالجها مناهج التصوف بالصيام وقراءة الأوراد والنوم على المسامير وتعذيب الجسد لفترات طويلة جداً.

أما القبالة، فإنها تختار الخطاب البسيط التالي:

باب عبور البوابة:

1- معاناة الحس:

- اجلس في وضع مريح.
- أغمض عينيك.

تنفس بهدوء .

اشبك يديك الآن بأي طريقة تختارها.

حاول أن تكتشف نقاط التماس واحدة بعد الأخرى.

لاحظ ما يجول في خاطرك.

فلعلك تفكر في وضع المصلي أو لعل تلامس اليدين يثير لديك إحساساً بالإبتهال.

لا تهتم ولا تشغل بالك بمثل هذه الأفكار، لإنها ليست ذات علاقة بالبوابة حاول فقط ان تعيش تجربة التلامس بين يديك فهذه التجربة وحدها هي بابك الحقيقي إلى منطقة العبور.

2- معاناة النظر:

استعد الآن للمرحلة الثانية وافتح عينيك لتدخل تجربة النظر.

تأمل أي صورة أو مشهد يقابلك ولاحظ أنك بمجرد أن تفكر بموضوع الصورة، أو تحس اتجاهه بأية مشاعر، فإنك تخرج من البوابة وتصبح مجرد متفرج لا تهتم بما تراه عيناك بل بقدرتهما على الرؤية.

تأمل هاتين النافذتين اللتين تعكسان عالم بأكمله.

3- معاناة السمع

تكلم بصوت مسموع ومن دون أن تهتم بمعنى الكلمات نفسها. قل ما تشاء. اقرأ ما تشاء، من دون أن تشغل بالك بما تعنيه اللغة. انصت لصوتك فقط. اسمع نطق الكلمات مفرغة من كل معنى، كما تسمع لغة لا تفهمها.فهذه هي تجربة الدخول عبر البوابة. وكل شيء عدا صوت الكلمات وحدها سوف يقذف بك خارج (المملكة) ويحيلك إلى مجرد (مستمع) وحيد.

4- تذكر : أنت لست موضع تجربة، ولست مجرد متفرج أو مستمع. تذكر أنك (هو) ذلك الذي يحس وينظر ويسمع.

تذكر أنك أنت (المصدر)

والواضح من لغة هذا التمرين، أنه ليس صلاة أو ابتهالاً. ولا يضم تسابيح أو تلاوة لنصوص مقدسة. ولا يدعو إلى أداء أية مناسك. ولا يتبنى مصطلحات الفقه،ولا يبشر أحداً بالجنة أو يهدده بالنار. ورغم أنه نص روحي له غاية تربوية محددة ، فإنه ليس نصاً فقهياً، يستند إلى سلطة فوقية. ولا يخاطي الإنسان لكي يقنعه بعظمة الرب، بل لكي يرشده إلى موقع المعجزة في الجسد الحي الذي يدعوه باسم (المملكة)، معتمداً أن يعمل من خلال المحسوس للوصول إلى المجرد. وهي علامات تشير بوضوح إلى أن (القبّالة) لم تولد بمثابة مذهب صوفي، بل بمثابة منهج تربوي محرر من هيمنة الصوفية بالذات. وإنها قد تكون النسخة العذراء لمفهوم الدين، قبل أن يخضعه السحرة لأهواء السياسة بعمليات الإرهاب الفكري وغسيل المخ.

أما لماذا فشلت هذه الحركة التربوية فجأة؟ وكيف تحولت (القبّالة) إلى مذهب سري مسخر لخدمة السحرة والمشعوذين فذلك إنجاز لا بد أن يضاف إلى منجزات اليهود الذين استحلوا لأنفسهم حروف الأبجدية

الكنعانية، وظهروا على مسرح الشرق الأوسط خلال الألف الأول قبل الميلاد بمثابة الوريث غير الشرعي لحضارة الكنعانيين وأراضيهم معاً.[1]

إننا نرعف أحداث الغارة بالتفصيل، ونرعف اليهود تبنوا حروف الأبجدية الكنعانية بعددها ورسمها ونطقها، فيما ظهرت (القبّالة) مرتبطة بالتوراة تحت اسم (الحكمة الخفية) في قصة ملفقة مؤداها، أن الملائكة تلقوا أسرار هذه الحكمة من الرب شخصياً، ونقلوها إلى آدم بعد طرده من الجنة، حيث عاش الناس في ظلها ينعمون بالسلام والعدل جيلاً بعد جيل.

بمرور الزمن، نسي الناس أسرار القبّالة، وشاعت بينهم الحروب والمجاعات، مما دعا الرب إلى إعادة نشرها ضمن العهد الذي عقده مع النبي غبراهيم، وعلّمه بموجبه سر (الحكمة الخفية) ملخصلً في اسم (يهوه)[2]. وهو اسم ظهر فجأة في تاريخ اليهود، ويقال إنه يحوي جميع أسرار القبّالة، لأنه يتكون في صيغته العبرية من أربعة حروف، تربط مقام الرحمة بالقلب، ومقام الحكمة بالقلب، ثم مقام الحكمة بالرحمة، لكي

1- بشأن غارة اليهود على تراث الكنعانيين، راجع الأعمال الهام والمثيرة التي قدمها جورجي كنعان ، ومنها كتابه تاريخ الله. إن التجاهل الذي يلقاه هذا الباحث من منظمات الثقافة العربية قد دعاه إلى أن يقول: ((سأعتبر اي كتاب من مؤلفاتي، قد كوفئ بسخاء إذا ما استرعى انتباه فضلاء الناس إلى موضوع مهم ومهمل بشكل يثير الدهشة والاستغراب))، تاريخ الله 346

2- النبي ابراهيم لم يعرب الرب باسم (يهوه) العبري، بل باسم(ايل) الكنعاني. وهي حقيقة يثبتها لقب ابراهيم (بالخليل) أي (خل ايل)بمعنى حبيب الله. أما قول القبّالة، إن ابراهيم استلم الحكمة الخفية، ملخصاً في اسم (يهوه)، فهو تلفيق مهمته أن يطمس الأصل الكنعاني للقبّالة.

تعود فتربط مقام الحكمة بالقلب في دائرة ذات رموز سحرية خاصة. من إبراهيم، انتقل سر (الحكمة الخفية) إلى ابنه إسحاق، ثم إلى حفيده يعقوب، ومنه إلى يوسف الذي مات مغترباً في مصر، واضطر إلى أن يحمل السر معه إلى القبر، مفضلاً أن يترك شعبه من دون حكمة، على أن يفشي سرها للمصريين. وبذلك كادت القبّالة أن تندثر، لولا أن إبراهيم كان قد سجلها في كتابه دعاه (سفر التكوين) وأخفاه في كهف.

هذه النسخة الأخيرة، احتفظ بها الرب في الخفاء، متعمداً أن لا يبديها، حتى يظهر الحكيم الأكبر ـــ أو الإمام الغائب ـــ الذي يطلع على نبع المعرفة، ويدرك معنى الأسماء، وينكشف له كتر (الحكمة الخفية). وقد طال الانتظار بضعة قرون، قبل أن يظهر الإمام المطلوب. وهو النبي صلى الله عليه وسلم موسى الذي تعلم من أسرار السحر ما أتاح له أن يحيل النيل إلى دم، ويغرق مصر في القمل والضفادع، ويفلق مياه البحر الأحمر بضربة من عكازه.

على يد موسى الذي يتكون اسمه من ثلاثة أحرف، تمثل الماء والنار والريح، أعيد عصر الوحي المباشر، وجاء الرب شخصياً لمقابلة هذا المعلم الذائع الصيت، في جلسة انتهت بمنحه كتابين مقدسين، أحدهما (علم الظاهر) ملخصاً في الوصايا العشر والثاني (علم الباطن) ملخصاً في القبّالة. وقد بادر موسى إلى تسجيل هذين الكتابين، في صيغة واحدة خاصة،

تصف التعاليم الظاهرة من جهة، وتصف الأسرار الخفية من جهة أخرى، بوسائل الرمز والتورية والشيفرة. وهي الصيغة المسجلة في الكتب الأربعة الأولى من التوراة.

فكلمة (في البدء) مثلاً، التي تفتتح سفر التكوين، لها معنيان. أحدهما ظاهري، وهو مفهوم الكلمة في اللغة. والثاني باطني لا يطلع عليه إلا من يعرف شيفرة الأبجدية العبرية، ويعرف أن هذه الكلمة لها ترجمة محددة واحدة هي (براشيت) التي تتكون من ستة حروف، كل حرف منها له الرمز السري التالي:

الباء= الكون.

الراء= الشمس.

الألف= الثنائية.

الشين= الروح.

الياء= آدم.

التاء= حواء.

ومن مجموع هذه الرموز، تتحلل كلمة (في البدء) إلى الجملة السرية التالية: (من الكون انبثق ضوء الشمس الذي تجلّت فيه الثنائية لكي تعبر عن الروح بخلق الذكر والأنثى). وهي قراءة واحدة من بين عدة قراءات محتملة.

من هذه الصيغة اليهودية القائمة على الإيمان بالسحر و«العلم السري»، نشأت جميع المذاهب الباطنية في المسيحية والإسلام على حد سواء. وظهر منهج التفسير الباطني، لكشف الحجاب عن (الحكمة الخفية) في الكتب المقدسة، مفترضاً أن الإنجيل والقرآن ــ مثل التوراة ــ لهما صيغة سرية خاصة، يمكن الكشف عنها بأعمال الشعوذة والسحر.

ورغم أن أهل السنّة، هم الذين افتتحوا مسيرة هذه (القبّالة) الإسلامية، منذ عصر الشيخ ابن عربي على الأقل، فإن الشيعة ما لبثوا أن أظهروا تفوقاً ملحوظاً في تطويرها إلى مذهب حلولي متطرف، على يد معلمين متخصصين من مقام السهروردي، فيما تكفل رواة الحديث بتوفير النصوص الشرعية المطلوبة، لاعتماد القبالة رسمياً، منها حديث (الخرقة)[1]. وهي جبة مرقعة ــ مثل جبة الصوفي الدرويش ــ يزعم الرواة أن الرسول ﷺ أحضرها من السماء في ليلة المعراج، وأعطاها لعلي بن أبي طالب، بمثابة رمز (للولاية)، ثم (أن علياً ألبسها ابنه الحسن من بعده، ولبسها بعده الحسين، ثم ذرية الحسين الواحد بعد الآخر، حتى انتهت إلى المهدي المنتظر، وما تزال عنده حتى الآن..).

1- جاء في حديث الخرقة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:]عندما أصعدت ليلة المعراج إلى السماء ودخلت الجنة، رأيت في وسطها قصراً مبنياً بحجارة من الزمرد، ففتح لي جبريل الباب، فدخلت. وشاهدت في الداخل بيتاً مبنياً. بحبات اللؤلؤ. فإذا في وسطه صندوق مصنوع من نور، ومقفل بقفل من نور. فقلت يا جبريل ما شأن هذا الصندوق؟ وماذا في داخله؟ فقال جبريل: يا حبيب الله، إن فيه سر الله الذي لا يظهر إلاّ للذي يحبه..]. وكلمة سر الله، ترجمة صريحة لكلمة الحكمة الخفية التي لا يبديها]يهوه[حتى يظهر أمام الغائب. أما السر نفسه فقد تمثل في] الفقر والمرقعة]، أي البؤس ولبس الجلابيب المرقعة، باعتبار أن المؤمن الصالح هو الصوفي الدرويش الذي يحبه الله لمجرد أنه جائع وعريان!!

وكلمة (الولاية) هي الترجمة الإسلامية لمصطلح (القديس) عند النصارى، ومصطلح (المسيح الغائب) عند اليهود، وتعني(صاحب السر الإلهي القادر على تغيير سنن الطبيعة)، أي صاحب الحكمة الخفية التي دعاها التصوف الإسلامي باسم (مبدأ العرفان).

إن الإسلام الذي بدأ بمثابة رسالة لتحرير الدين من هيمنة السحر والكهنوت، يتحول على يد الصوفيين إلى رسالة مسخّرة لخدمة مذهب يهودي متطرف، قائم على الإيمان بالعلم السري، وتعدد مراتب المعاني في الكتب المقدسة. وهي كارثة، اضطر الصوفيون إلى تنفيذها متنكرين في جلابيب الدراويش، بسبب المعارضة الصريحة والعلنية التي يبديها القرآن لنظرية القبّالة اليهودية بالذات.

فالملاحظ أن القرآن اعتمد نص التوراة، باعتبارها (كتاب الله)[1]! ولخص معظم الرواية اليهودية عن تاريخ العبرانيين منذ عصر إبراهيم، مشيراً إلى نظرية (الحكمة الخفية) التي منحت لهذا النبي ﷺ وأهل بيته معاً، في آيات منها قوله في سورة النساء: ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ..﴾ [النساء/ 54].. وفي سورة البقرة بشأن داود: ﴿ وقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ والْحِكْمَةَ وعَلَّمَهُ ممَّا يَشَاءُ.﴾ [البقرة/251]. وفي سورة ص: ﴿ وشَدَدْنَا مُلْكَهُ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخِطَابِ﴾[ص/20]. وفي سورة المائدة، بشأن المسيح: ﴿ وإذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنجِيلَ﴾[المائدة/ 110].

1- كلمة (كتاب الله) مثل كلمة (بيت الله)، مصطلح يتوقف فهمه على إدراك العلاقة المعقدة بين المضاف والمضاف إليه.

والملاحظ أيضاً، أن (الحكمة) التي يعنيها القرآن تشبه (الحكمة الخفية) التي ترتبط في القبالة بالقدرة على تغيير سنن الطبيعة، فالنبي ﷺ إبراهيم ألقي في النار من دون أن يحترق.. وموسى أحال عصاه إلى ثعبان. وداود تطيعه الطيور. وسليمان يتحكم في الريح ويسخر ملوك الجن في خدمته. والسيد المسيح يحيي الموتى ويبرئ الأعمى والكسيح والأصم.

لكن الفرق الحاسم بين مفهوم (الحكمة) في القرآن، وبين نظرية الحكمة الخفية عند اليهود، أن القرآن لا يعتبرها علماً سرياً، ولا يستعمل كلمة (خفية)، ولا يقرن الحكمة بالسحر، ولا يدخر وسعاً في تقريع اليهود على هذه المزاعم بالذات، مشيراً إلى أن القبالة اليهودية نسخة منقولة عن الكهنة البابليين، في قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾[البقرة/102]. وكلمة (ماروت) مصطلح كلداني مشتق من (م ر و ت) بمعنى سيادة، ولعله يعني كلمة الأسياد (الأسياد) التي تتردد حالياً في قاموس المشعوذين، باعتبارهم نوعاً من ملوك الجن. فالقبالة اليهودية ـــ في نظر القرآن ـــ ليست علماً ظاهراً أو سرياً، وليست فكرة يهودية أصلاً، بل مجرد شعوذة منقولة عن بابل، تقوم أساساً على الإيمان بقوة السحر، الذي يعتبره القرآن خدعة بصرية بحتة في نصوص منها قوله عن سحرة فرعون في سورة الأعراف: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾[الأعراف/ 116]. وفي سورة طه:﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[طه/66]، وبعض ذلك في سورة طه أيضاً: ﴿ إِنَّمَا

صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[طه/69]. والكيد في اللغة هو الحيلة القائمة على الشطارة وخفة اليد وخداع البصر.

إن (الحكمة) التي يعنيها القرآن، ليست علماً سرياً، كما يزعم اليهود والصوفيون، بل منهج تربوي قائم على (إدراك الأحكام)، أي معرفة الشرع بما يضمن إقرار الحق. وهو منهج للتوعية الجماعية، يتلقاه الناس علناً، على يدي معلمين ووعاظ ومصلحين وأنبياء، صفتهم الأولى ــ والأساسية ــ أنهم ضد الشقاء الإنساني في جميع صوره، وضد الخرافة والجهل والسحر وتغييب وعي المواطن، بما يشغله عن حقه في السلام والعدل. ومن دون الإقرار بهذا المفهوم السياسي المحدد لكلمة (حكمة)، يصبح الدين نفسه مجرد نوع من السحر.

إننا لا نملك كل التفاصيل، لكن الظاهر أن المقطعات القرآنية، تشير إلى نسخة خاصة من القبالة، تختلف عن القبالة اليهودية في مضمونها السحري. وقد تختلف عنها في عدد مقاماتها وشكلها أيضاً. ولعلها هي النسخة الأصلية التي أغار عليها اليهود خلال الألف الأول قبل الميلاد، ونسبت إلى سليمان الحكيم في كتاب الأمثال.

صفة هذه القبالة الضائعة، أنها ليست مذهباً صوفياً، بل منهج محرر من هيمنة الصوفية بالذات، يتوجه لتنمية وعي المواطن بتدريبه على اكتشاف قدراته العقلية، وتحريضه على استثمار هذه القدرات، في تحرير نفسه ــ وعالمه ــ من قيود الخرافة والخوف والجهل. وهو هدف لخصه القرآن بقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[البقرة/ 269].

أما من حيث الشكل، فالملاحظ أن المقطعات القرآنية، ناقصة بمقدار ثمانية حروف، لكي تستكمل الربط بين جميع مسالك القبالة، كما نعرفها في النسخة اليهودية، والحروف الناقصة هي:

1- حرف الباء بين التاج والإشراق (1- 3).

2- حرف الجيم بين التاج والقلب (1- 6).

3- حرف الدال بين الحكمة والإشراق (2- 3).

4- حرف الواو بن الحكمة والرحمة (2- 4).

5- حرف الزين بين الإشراق والقلب (3- 6).

6- حرف الشين بين العقل والبوابة (8- 10).

7- حرف التاء بين الضمير والبوابة (9- 10).

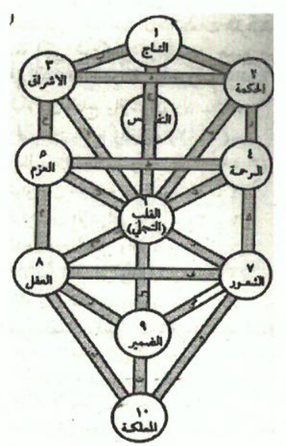
8- حرف الفاء بين المشاعر والعقل (7- 8).

والتفسير البديهي لهذا النقص أن الحروف اختلطت على كتبة القرآن بسبب غياب النقاط التي تميز بين الياء مثلاً وبين الباء والتاء والنون، أو بين الحاء والجيم، والراء والزين، والفاء والقاف، والسين والشين. لكن ذلك لا يعني استبعاد بقية التفسيرات المحتملة، ومنها أن الحروف سقطت من سور أخرى، أو أن نسخة القبالة التي يشير إليها القرآن، تختلف عن النسخة الحالية في عدد مقاماتها ومسالكها معاً، أو أن المصادر المبكرة، تعمدت أن تهمل هذا الموضوع لأسباب خاصة.

جميع الاحتمالات واردة، وقابلة للنقاش، ما عدا احتمال واحد فقط؛ ذلك أن يقال إن الله يخاطب مخلوقاته بالألغاز، وأن المقطعات القرآنية [بالكتاب المبين]، أي الكتاب الذي لا رموز فيه ولا أسرار، ثم إن الألغاز بالذات، لغة لا يتكلمها الله، بل يتكلمها ساحر صعلوك، يريد أن يفتح منجماً بكلمة، ويقرأ الغيب في كف الشيطان.

شجرة الحياة كما تبدو طبقاً للحروف الأبجدية المتوفرة، في مطالع سور القرآن. وهي حروف ناقصة بمقدار الثلث، مما يلغي ثمانية مسالك من مسالك النسخة الكاملة. والحروف الباقية أي حروف مطالع سور القرآن هي:

ألف. هاء. طاء. حاء. ياء. لام. كاف. ميم. عين. صاد. قاف. سين. راء. نون.[1]



1- إسلام ضد الإسلام – شريعة من ورق ص121 ط3 2000- رياض الريس .

إنه ليس عريضة شكوى بالنيابة عن المرأة.

ليس عرض حال للمطالبة بحقوقها في عنبر الركاب.

ليس استغاثة مسجوعة لكي تتبرعوا لها ببعض الشفقة. إنني لا أعتقد أن المرأة الليبية في حاجة إلى شفقة من أحد ولا أعتقد أيضاً أنني أستطيع أن أؤدي لها خدمة معقولة إذا طالبتكم بالبكاء من أجلها فوق هذا الورق. إنني أختار زاوية أفضل للنقاش.

أختار أن أحكي لكم كيف بدأت الحكاية.

الصادق النيهوم





➢ هل هي أصل الخطيئة ؟ رؤية دينية مقارنة :

اعتبرت التوراة مهمة المرأة في إنجاب الأطفال كفّارة عن الخطيئة الأولى التي حدثت في الجنة، ومن الواضح أن مسؤولية تلك الخطيئة قد وضعت كلها فوق عاتق المرأة، والنص الديني يبدأ بخطابها – لأول وآخر مرة في التوراة – قبل الرجل مشيراً إلى إدانتها بالإثم، وإذا كانت (الحيّة) قد اعتبرت ملعونة لأنها قامت بخداع حواء، فإن حواء نفسها قد استحقت العقاب لأنها كانت (جسر) الخطيئة إلى آدم، وهذا كله يبدو على الطرف الآخر لما جاء في القرآن، فالخطيئة الأولى اقترفها آدم، والنص القرآني صريح في هذا الشأن:

﴿وإذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَة اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ ولِزَوْجكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّة فَتَشْقَى إنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا ولا تَعْرَى وأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا ولا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إلَيْه الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لاَّ يَبْلَى فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن ورَقِ الجَنَّة وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[طه ١١٦-١٢١].

فالمعصية اقترفها آدم، ولكن زوجته أشركت في العقاب باعتبار أنها مكمل للوحدة المنتجة على الأرض، ومسؤولية ذلك الإثم احتملها آدم وحده طبقاً للنص القرآني، وقد حاول (لودفيج فينتر) – وهو مترجم ألماني غير أمين – أن يترجم هذا النص كله باعتبار أن (آدم) هو الأنثى لكي

يتمكن من متابعة التوراة معتقداً أن النبي صلى الله عليه وسلم محمد لم يكن يحسن التمييز بين الأسماء غير العربية، وأنه خلط بين الأنثى والذكر، وقد نسي المستشرق كلية أن اللغة العربية – بعكس كل اللغات الأوروبية – قادرة على إظهار التذكير والتأنيث في الفعل والاسم على السواء، وأن الفعل ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ يدل على أن الفاعل مذكر بغض النظر عن الاسم نفسه.

ومن ناحية أخرى، فإن القرآن يختلف عن التوراة في نقطة جوهرية بالنسبة لتفسير النص على أساس أنه نص رمزي، فالتوراة تسمي (الشجرة المحرّمة) شجرة المعرفة، بينما يسمّيها القرآن (شجرة الخلد) أو شجرة الحياة، وذلك يعني أن الإنسان – طبقاً للتوراة – قد نجح في أن ينال شيئاً لم يكن (الرب) يريده أن يناله، وهو المعرفة والتمييز بين الخير والشر، وأنه فعل شيئاً ضد إرادة ذلك الرب واحتفظ به، فالخطيئة أثمرت طيبة على أي حال.

أما القرآن، فإنه إذا يسمي تلك الشجرة (شجرة الخلد) فإنه يشير إشارة واضحة إلى أن الخطيئة لم تؤت ثمارها، لأنها لا تستطيع أن تؤتي ثمارها ضد إرادة الله ولذا فإن الإنسان ما زال يموت رغم أنه أكل من شجرة الخلود، وأن الإنسان لم ينل شيئاً من وراء خطيئته سوى العقاب، لأن إرادة الله أكبر من أي شيء يفعله الإنسان.

وهذا يذكر المرء بأسطورة بروميثيوس، الذي سرق النار، رغم أرباب الأولمب، وأوقدها على الأرض ضد إرادهم فإن التوراة ترى الخروج من الجنة على هذا الأساس، وقد قام (النضال) بين بروميثيوس وبين الآلهة وانتهى بحصول الإنسان على النار، كما انتهى (النضال) في الجنة بحصول الإنسان على (المعرفة)، أما القرآن فقد قرر طرد الإنسان من الجنة باعتباره عاصياً، وقرر أن طرده قد تمّ بإرادة أكبر من أن يحقق الإنسان أي كسب من وراء عصيانها.

ونقطة الخلاف – كما هو واضح – جوهرية بالنسبة للكتابين المقدسين ولا يمكن أن يلتقيا في أي نقطة حول هذا الموضوع بعد ذلك، ولذا فإنه من الواجب أن أقرر هنا مرة أخرى، أن اعتبار المرأة مسؤولة تجاه ارتكاب الخطيئة الأولى هي نقطة البداية للبحث القادم في نظرة العهد القديم والجديد إلى المرأة. وقد ترتب على ذلك أن اعتبر (الحمل) عقاباً للمرأة على عصيانها، وأصبحت (فترات الحيض) نجاسة يجب التطهر منها، ونظرت التوراة إلى ولادة (البنت) باعتبار أنها نجاسة تستحق فترة أطول للتطهر، أقل حدّ لها شهران وستة أيام، ثم حرّمت التوراة على المرأة دخول المعبد أو الاقتراب من الهيكل أو لمس قدس الأقداس إلاّ إذا تخلصت من كل آثار الحمل وما يتعلق به. وفي مقابل ذلك قرّر القرآن أن قيام المرأة بمهمة الحمل يوجب طاعتها على باقي أفراد الأسرة، ووصف الحمل نفسه باعتبار أنه مهمة نبيلة لتجدد الحياة في طريق أكثر صلاحاً:

﴿هُوَ الَذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ وجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[الأعراف/١٨٩].

ثم قرر النص القرآني أن فترة الحيض ليست نجاسة ولكنها أذى، وهذه نقطة فاصلة: (فالأذى) يحدث في الجسد، أما (النجاسة) فتحدث في الجسد والروح معاً.

وقال قال القرآن:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾[البقرة/٢٢٢].

فالأمر باعتزال النساء يشمل التحذير من الأذى الجسدي الذي تسببه المادة المفرزة، وهو أذى يصيب المرأة والرجل على السواء، دون أية إشارة خاصة إلى حالة النجاسة التي تعتبرها التوراة سبباً في وجوب التطهر.

وفكرة التطهر ذاتها فكرة فاصلة أخرى بين النصيين المقدسين، فبينما ترتبط الطهارة في التوراة بالزمن (سبعة أيام فما أكثر)، وبالاغتسال (غسل الجد والملابس في الماء)، وبتقديم القرابين (حمامتين على الأقل)، تظل تلك الفكرة في القرآن شيئاً بالغ التجرّد والسمو لا يرتب بالزمن ولا الاغتسال ولا القرابين، بل يخضع لشيء واحد جوهري في القرآن كله وهو النية في التطهر، وقد تمثل ذلك في فكرة (التيمم) التي انفرد بها القرآن عن باقي النصوص المقدسة.

فالغسل بالماء واجب حيثما كان ذلك ممكناً، ولكن التطهر لا يرتبط بالغسل وحده لأن (تجرده) يقع فوق نطاق مادة الماء، ولذا فقد قال القرآن:

﴿وإن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وإن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ولَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة/٦].

ومن الواضح أن التيمم مجرد تجسيد للنية ذاتها، وأن المرأة لم تستثن لأي سبب يختص بطبيعتها كامرأة.. فيما حددت التوراة فرائض التطهر بالنسبة لها على هذا الأساس وحده.

وأنا لا أريد أن أدخل في نقاش الاستنتاج المحتمل لتفسير النصين طبقاً لنظرتهما إلى المرأة، فإن ذلك كله لا يقود إلى فكرة حقيقية، ولكني مضطر إلى أن أشير إلى أن النص القرآني يواصل معاملة المرأة – فيما يختص بمسألة التطهر – باعتبار وظيفتها الإنسانية، فيما يعاملها العهد القديم باعتبار أنها مخلوق ذو حاجة أكثر إلى التطهر.

وإذا كان المترجم (فينتر) قد اعتبر فكرة التيمم مجرد دعوة إلى تقديس الحجر، وبنى على ذلك مجموعة من الافتراضات العجيبة، فإن ذلك المترجم في الواقع كان يحاول أن يجد منفذاً للطعن في نص ديني، لا يحق الطعن

فيه بأي حال، تمهيداً لإقرار فكرة (الغسل بالماء) على أساس أنها الفكرة السماوية الوحيدة.

وفينتر مجرد مترجم رديء، وقد نسي أن (التيمم) جاء تلبية لرغبة حقيقية في إلغاء (الحرج) عن طريق الإنسان، فليس المهم أن يغسل المرء جسده بالماء لكي يصبح متطهراً طبقاً لرغبة الله، لأن الماء لا يعني شيئاً بالنسبة لله، إنما المهم أن يخلص المرء (نيته) للتطهر ويحاول تجسيد تلك النية ما دام ذلك ممكناً، وقد سمح الإسلام للمسلم العاجز أن يصلي بعينيه، لكي يعلمه أن الشعائر ذاتها مجرد إظهار لنية باطنة.

وهذا مفترق الطرق بين القرآن والعهد القديم، وهو من ناحية أخرى جوهر الخلاف بين النصّين الدينيين فيما يتعلق بموقف الإنسان على الأرض، وموقف الله من الإنسان، وقد اتضحت فكرة التوراة عن المرأة.. فلنر كيف قرّرت معاملتها في مسائل الزواج والطلاق والميراث، وما الذي طلبته التوراة من المرأة باعتبارها إنساناً يملك حلق الاختيار والرفض، ثم لنر كيف قرر القرآن معاملتها في مقابل أفكار التوراة، ولنر مقدار الحق فيما تقوله أوربا عن الإسلام، فقد ظلّت تلك القارة – وهي تقرأ العهد القديم في معظم كنائسها – تتهم الإسلام بالقسوة في هذا الميدان، ثم اتسع نطاق الحكم ونسيت أوروبا في لحظة غضبها أن الأديان شيء والشعوب شيء آخر، ثم نسيت أن تقرأ لنفسها ما تقوله التوراة، فلنحاول ذلك هنا، بأكثر ما نقدر عليه من الحياد والدقة[1].

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 15 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

➢ حق الميراث في النص القرآني :

القرآن يبدأ آيات الميراث بتقرير حدين مهمين جديدين لم يشر إليهما أي نص ديني سماوي سابق وهما:

1ـــ حق المرأة في الميراث سواء كان المورّث قد خلف ذكراً أم لم يخلف.

2ـــ ثم حق الوالدين في نصيب من ذلك الميراث.

والنص نفسه مباشر ودقيق:

﴿يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً﴾[النساء/11]

وهذا الجزء يتعرض لقانون القسمة فيما يتعلق بالأبناء والآباء، ثم يتفرغ الجزء التالي للحديث عن نصيب الأزواج، وأنا أريد أن أشير إلى قول القرآن: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾[النساء/11]، باعتبار أنه ردّ على التوراة التي أسقطت نصيب الوالدين من الميراث كلية، وإذا كان ذلك الرد لم يتحدد تماماً، فأنا لا أشك أن القرآن قد أشار إليه لإيفاء غرض حقيقي.[1]

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 27 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

➢ قضية التعدد :

الرجل المسلم لا يستطيع أن يتزوج امرأة مسلمة بدون رضاها، وسواء كان يملك زوجة أخرى أو اثنتين أو كان عازباً، فشرط موافقة المرأة للخطوبة لا بد منه، وهي تستطيع أن ترفض مباشرة وفي أي وقت تشاء. والذي ينساه المستشرقون دائماً أن المرأة لم تكن تملك هذا الحق قبل أن يعطيه لها القرآن، وكانت ترغم على الزواج بأي رجل يختاره ولي أمرها، ولذا فقد كانت فرصة التخلص من فكرة تعدد الزوجات فرصة مستحيلة، أما بعد أن أصبحت المرأة طرفاً لا بدّ من الحصول على موافقته فإن الطريق قد فتح أمامها لكي ترغم الرجل على التخلي عن فكرة تعدد الزوجات كلية عن طريق رفض الزواج به ما دام يملك امرأة أخرى، وهذه حقيقة لا يمكن الخصام حولها أما إذا المرأة رفضت أن تستعمل هذا الحق، أو أنها لم تستطع استعماله لأن الرجال ما لبثوا أن عادوا إلى إرغامها على الزواج دون موافقتها، فإن تلك مشكلة أخرى لا علاقة لها بالقرآن، وهي مشكلة هؤلاء الرجال وحدهم، الذين لا يملكون اعتبارهم ذوي شأن في تقدير قيمة القانون ذاته، فهم يستطيعون القيام بذلك تحت أي قانون آخر، ويستطيعون إرغام المرأة على الزواج بمن يشاءون ــــ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين ــــ ما دام الأمر كله يخضع لمبدأ القوة وحدها.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد اشترط القرآن في الرجل الذي يرغب في الزواج بأكثر من واحدة شرط القدرة على العدل، وهو شرط لا يمكن

تحقيقه إلا بنسبة واحدة في المليون تحت أحسن الظروف، وقد قال النص صراحة:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[النساء/3].

ثم قال مشيراً إلى عظمة هذا الشرط واستحالته:

﴿ولَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ ولَوْ حَرَصْتُمْ﴾[النساء/129].

فما الذي يرغب المرء في سماعه أكثر من ذلك، لكي يعرف أن الزواج بأكثر من واحدة ليس مرغوباً فيه من قبل الله نفسه، ولكي تعرف المرأة أن موافقتها على الزواج برجل يملك امرأة أخرى سوف تعرّضها للكثير من الظلم والأخطاء، فإذا اعتبر المرء هاتين النقطتين: موافقة المرأة، وقدرة الرجل على العدل، يجد أن الطريق قد أغلق فعلاً أمام فكرة تعدد الزوجات، وهذا منهج القرآن الذي لا يستطيع المستشرقون تتبعه، وقد اتخذ القرآن نفس هذا المنهج في إلغاء فكرة الرق، فالإلغاء لم يتم مرة واحدة، ولم يتم بأمر سماوي حاسم، فقد كانت مظاهر الحياة في العالم ـــ حتى بداية القرآن السابع عشر ـــ غير قادة على الاستجابة لمثل هذا الأمر، ولكن النصوص السماوية تتابعت طبقاً لمنهج معين يهدف إلى إغلاق مسارب العبيد إلى أبعد حد ممكن، وفتح الطريق أمام تحريرهم إلى أبعد حدّ ممكن أيضاً فجعل تحرير العبد كفّارة لكثير من الذنوب، وأعطاه الحق في شراء نفسه، وزاد من مهمة سيده في العناية به، وفتح أمامه الطريق لكي يجد فرصته إلى

الحرية، فيما كانت المسارب التي تزوّد المجتمعات بالعبيد تنضب تدريجياً ودون أن يلاحظها أحد، فإذا حدثت النكسة بعد ذلك، فقد قام بها التجار الهنود الذين عملوا في صيد العبيد من إفريقيا والهند والصين، والتجار الأوروبيون الذين أغرقوا أسواق العبيد في بغداد والقسطنطينية على السواء، ثم في أمريكا بعد ذلك.

والمرء يلاحظ في يسر أن القرآن يستعمل نفس المنهج للتخلص من فكرة تعدد الزوجات، وهو إذا يبيح التسري للرجال في بقية الآية:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[النساء/3].

فإنه يشير إشارة حقيقية إلى أن الاقتصار على زوجة واحدة هو الأصل، أما الجواري والزوجات الأخريات فسوف ينقرضن مع الزمن، وهذا ما حدث بالضبط، فقد انتهى عصر الجواري على أي حال، كما أراد القرآن، وانتهى عصر الرجال الذين يجمعون بين أكثر من زوجة إلاّ في بضعة حالات لا يعتد بها.

وليس ثمة شك أن القرآن كان يهدف إلى ذلك وكان يقوم بتحقيقه طبقاً لمنهج لا جدال في دقته فقد كانت كل الظروف التي تخص النساء والعبيد قد ساءت إلى حدٍ مذهل، وبنيت مجتمعات بأكملها على هذا الأساس، وكان القرآن يقدم الحل الوحيد الممكن للتخلص من تلك الظروف.

هذا فيما يخص النصّ القرآني نفسه، أما ما يفعله الناس، فإن ذلك شيء آخر، من العبث نقاشه هنا، وأنا لا أستطيع أن أبدأ الآن في الحديث عن

عادات، صنعها الجهل والتاريخ، لكي أحدد أي هدف من وراء ذلك، وبالنسبة لي، فإن كل مجتمع لا بدّ أن يتحمل مسؤولية أخطائه بطريقة ما، وسوف يدفع ثمنها كلها مرغماً، بغض النظر عن الظروف الأخرى.

فلندع ذلك جانباً.

ولنشرع في تتبع النصوص وحدها، فإن ذلك قادر على أن يقودنا عبر الطريق بيسر، ولنر كيف تمّ إخضاع المرأة للرجل منذ البداية، فهذا السؤال لا مناص من الإجابة عليه الآن[1].

➢ تحرير الرجل :

لم يعد الرجل قادراً على الحصول على طاعة المرأة مقابل مدّها بالغذاء والمأوى، بل أصبح يحتاج إلى إقناعها عقلياً ثم اعتبارها شريكاً في كل شيء والعمل معها جنباً إلى جنب دون أي رغبة في الاحتفاظ بمميزات خاصة، وهذا حدث في جميع الأقطار الصناعية بلا استثناء رغم اختلاف دياناتها، وحدث في بلدان المسلمين والمسيحيين على السواء ممّا يدل بوضوح على أن سجن المرأة لم يتم لسبب ديني بل لسبب اقتصادي بحت. أما نتيجة هذا التغيير، وهل حدث في صالح الحضارة أو ضدها، وهل نفع ذلك المرأة أم زاد مهمتها تعقيداً، وماذا كان أثر ذلك على الرجل وأطفاله معاً؟

فإن تلك أسئلة لا يمكن نقاشها الآن لسببين مهمّين:

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 36 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

أولهما: أن تحرير المرأة قد لازمته تغيرات جذرية أخرى في مجرى الحضارة نفسها، وظلّت الصناعة ــ التي أخرجت المرأة من وراء الجدران ــ تبني جدراناً من نوع آخر حول الإنسان ذاته وبصورة أكثر ثباتاً.

وثانيهما: أن المرأة ارتكبت من الأخطاء عبر طريقها الجديد ما جعل موقفها شديد الحرج أمام الأجيال القادمة، ووصم هذا العصر بوصمة من الصعب تجاهلها كلية فيما يخص تاريخ المرأة.

وكلا السببين يجعل نقاش هذه الأسئلة عملاً من اختصاص الذين يعيشون ظروفاً واحدة فقط، باعتبار أن ما حدث في أوروبا حدث في أوروبا وحدها ويجب ألا يتم نقله لأي شعب آخر، وأنا لا أريد أن أواصل الحديث عن هذه النقطة أكثر من ذلك الآن إلا من خلال دراسة مفصّلة لكل جزء من المشكلة.. فثمة أشياء جانبية أخرى أحتاج إلى نقاشها بالتفصيل، ولكن أريد أن أشير إلى أن الإجابة على السؤال العام، كيف تمت سيطرة الرجل على المرأة. قد اكتملت من جانبين مهمّين:

الأول: يتمثل في الظروف الدينية للتوراة والإنجيل.

والثاني:يتمثل في ظروف الحياة نفسها فيما يخص ظاهرة النمو الاجتماعي.

وإذا كان ثمة نظريات تعتبر السبب الاقتصادي وحده هو الطريق إلى تفسير الظاهرة بأكملها، فأنا لا أريد أن أقول ذلك هنا، لأنني ــ في الواقع

ـــ أبذل جهداً خاصاً لمواجهة الأمر بالطريقة التي حدث طبقاً لها، وإذا كانت الحاجة الاقتصادية بداية لقبول سيطرة الرجل، فمما لا شك فيه أن ملايين أخرى من النساء قد قبلن هذه السيطرة باعتبارها فريضة دينية مقدسة وباعتبارها إحدى وصايا الرب نفسه.

وقد وهب هذا الاعتقاد السلام للمرأة، وأعطاها التعويض النفسي التي كانت تحتاجه لكي تواصل الحياة داخل السجون الممتدة بلا انقطاع بين الكهوف المظلمة في بداية العصر الحجري وبين البيوت المظلمة الأخرى في العصر الذي ما زال حجرياً، وكان ذلك التعويض شيئاً مهماً جداً في حياتها، وليس ثمة بد من أن يتذكر المرء قبل أن يقع في فخ النظريات المادية وحدها ويرتكب خطأ فظيعاً لا يمكن تفسيره، فمن الواضح أن المرأة المسلمة ـــ على الأقل ـــ قد أُقنعت إقناعاً كافياً بأن تعتبر سجنها أمراً من الله نفسه، وأن تتقبل ذلك السجن باعتباره إرادة سماوية لا فكاك منها جاءت للمحافظة على طهارتها وعفتها إلى النهاية.

وقد ظلّت النساء في هذا السجن منذ أواخر القرن الخامس الهجري حتى غدت معتقدات اعتقاداً كافياً متكاملاً بأن ما حدث كان كله من اختصاص الدين، ولم تظهر أي من النساء تمرداً حقيقياً على هذه الإرادة المقدسة، ولم تحاول اعتبارها قراراً صادراً من ظروف الرجال بل ظلّت المرأة تعتبر سجنها فريضة لا بدّ من أدائها، واعتبرت كل من ترفض السجن متمردة على الدين، وتمّ ربط الألم الدنيوي بأمل من الله والجنة عند نهاية المطاف ربطاً محكماً.

وقد ماتت العجائز دون أن يفقدن هذا الأمل، دون أن يفكرن للحظة واحدة أن سجنهن ليس أمراً من الله بل مجرد عادة قديمة خلقتها الظروف الاقتصادية. وهذا ما كنت أحاول أن أشير إليه عندما استعملت كلمة ــ التعويض ــ الديني الصادر من نظريات التفسير المادي للتاريخ، فالاقتصاد لم يكن كل شيء ولم يكن سلاح الجزارين الوحيد، بل إن الدين نفسه سخّر لتأدية هذا الغرض منذ خمسة وثلاثين قرناً كاملاً، وقد تمّ تسخيره بطريقة لا يمكن أن يتصور المرء بشاعتها إلا إذ عاد بنفسه إلى المصادر الطيبة الأولى، ورأى الفرق بين الأصل الذي يأتي من الله وبين التفسير الذي يتقدم به الرجال متطوعين ممتلئين بالتقوى مثل الملائكة.[1]

➢ جذر الاضطهاد :

الصناعة ميدان لا نهاية لخصوبته، يستطيع أن يمد النساء والرجال على السواء بالمال الذي يحتاجون إليه للقيام بأي شيء، بما في ذلك الإنفاق على مربيات الأطفال والخادمات، وابتكار الآلات للمساعدة في أداء شؤون البيت، ثم جاء الجيل التالي ووجد المرأة أمامه في الشارع والمقهى والمرقص والعمل والقطار وخنادق القتال، واعتقد أن المرأة كانت هناك منذ البداية، وقد تقبلها بطريقة طبيعية في أدق تفاصيلها، وتمّ إلغاء التاريخ، وانحرف مجرى الحياة انحرافاً طفيفاً في اتجاه جديد، ولكنه كان انحرافاً حاسماً في

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 46 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

تاريخ العالم كله، فقد اختلت وظيفة الأسرة تدريجياً حتى أصبحت ــ لأول مرة، منذ أن تمّ تكوينها ــ خلية زائدة لا وظيفة لها، فالطفل ينشأ في دار الحضانة أو تحت إشراف إحدى المربيات، والزوج يقوم بعمله ثم يعود ليطبخ طعامه بنفسه، فيما تذهب زوجته لتكسب عيشها بدورها ودفع أجرة المربية حتى تلد الطفل التالي.

وفقدت الأسرة وحدة المصير ثم فقدت وحدة المشاعر، وبدأت مشكلة الجنس تشوّه لون الحياة، وتمّ إعلان النتيجة: إن الأم لم تعد مركز الأسرة بل مجرد طرف فيها.. فهل كان ذلك ما أرادته المرأة.. أم أن ثمة خطأ ما، قد حدث، عبر زحمة الحرية والمساواة، وأرغمها على قبول الهزيمة النهائية ممتلئة اليدين بالنقود والفراء.. وأين حدث ذلك الخطأ؟

أنا أعتقد أن فلسفة بناء الأسرة في أوروبا تستطيع أن تقدم إجابة كاملة عن السؤال كله، فثمة شيء نشأ في الداخل، وظلّ نفسها هيكل سفينة عجوز، وكان ذلك الشيء أكبر من الفلسفة والعلم اللذين طلبت أوروبا حمايتهما على نحو موصول... كان قانوناً حقيقياً لا مجال لإلغائه أو لتفادي تدميره، وقد عرفت أوروبا ذلك الآن، ولكنها تأخرت قرناً كاملاً ثميناً.[1]

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 55 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

➢ الوضع الأوربي :

أما الدين فقد وضع فوق الرف، وألغت مدارس أوروبا (حصص الدين) إلغاءً كاملاً، معتبرة الإنجيل نفسه كتاباً رجعياً من كتب الكنيسة لا شأن للأطفال به، واقتصر الأمر على الفلسفة وحدها للخروج من المأزق المتزايد الخطر، وكان ذلك خطأ آخر لا يمكن إصلاحه.

فالفلسفة لا سند لها بغير الدين الأخلاقي، والفضائل التي يهدف المرء لتحقيقها على الأرض، ليست بالضرورة فضائل عملية، بل أن الإنسان ظلّ يتمسك بها منذ البداية دون أن يدرك قيمتها العملية إدراكاً واضحاً، مستمداً إيمانه من الكتب المقدسة وحدها، وقد كانت (العقد الجنسية) إحدى هذه الفضائل التي عجزت فلسفة أوروبا عن إعادة خلقها، فقد تطورت أفكار الفلسفة لكي تحدد فضيلة العفة في قيمتها العملية التي تحفظ المجتمع من الفوضى، وعندما تقدم (العلم) بحبوب منع الحمل وحبوب الإجهاض فقدت الفلسفة منطقها، وانهار السد بطريقة لم يسبق لها مثيل، وكانت المدارس أكبر مظاهر هذا الخطأ، فقد تحددت أهداف التعليم في تحقيق أهداف المرأة في المساواة و لم تكن مناهج التعليم ولا المرأة يدركان من (فكرة المساواة) سوى أنهي (تحقيق حرية الأنثى في كل شيء)، وإعطاءها حق الرجل في حمل مسؤولية الأسرة وتحديد مصيرها، وكانت المرأة لا تملك أية فلسفة لموقفها.. لم تكن لديها القدرة على أن تفعل ذلك، كانت مجرد إنسان ثائر على جلاديه، يريد أن ينال: (كل ما لديهم، لكي يكون

جلاداً مثلهم) دون أن تحدد نوع الحلم الذي يجذبها إليه. ونالت المرأة ذلك الحق، وأعطتها المدارس ــ العلم! ــ الذي تبحث عنه، أعطتها الهندسة والطب ومعادلات الكيمياء وكل ما لديها، ولكنها لم تعطها ــ الطابع الحقيقي ــ ولم تعطها القدرة على فهم موقفها، فلم تكن المدرسة نفسها تملك ذلك على أي حال.

وكانت النتيجة:

سبعون في المائة من أطفال الأسر الأوروبية تربيهم دور الحضانة.

ثلاثون في المائة من حالات الزواج تنتهي بالطلاق في السنة الأولى.

تسعون في المائة من بنات أوروبا غير عذراوات 4% لم تتح لهن فرصة.

اثنتان وعشرون في المائة من حالات الزواج تحدث بعد علاقة جنسية طويلة.

ثمان في المائة يتزوجن وهن في حالة حمل ظاهر.

ستون في المائة من رجال أوروبا وأمريكا يخونون زوجاتهم.

ثمانون في المائة من النساء عرفن رجالاً غير أزواجهن.

واثنتي عشرة في المائة يقمن بخيانة أزواجهن الآن(عند إعداد الدراسة).

ثم قالت الإحصائيات: مدينة لندن وحدها شهدت عشرة آلاف طفل غير شرعي في العام الماضي(1965)، وباريس ثلاثة آلاف، وجنوب ألمانيا

مائة ألف، وثمانون في المائة من الأسر تعيش في حالة شجار دائم حول مصروفات الزوجة، وسبعون في المائة من حالات الطلاق تحدث بسبب عدم التفاهم رغم مدة الخطبة الطويلة، وكل تسع من عشر نساء في أمريكا يشكون من معاملة أزواجهن لهن.

وهذا كله مجرد جزء صغير من المشكلة، فقد أغلق الطريق أمام المرأة لكي تتراجع، وأصبح من مهمتها أن تواصل الصراع في جميع الاتجاهات، فهي مطالبة بأن (تجد) زوجاً في السوق المزدحمة. مطالبة بأن (تفوز) بزوج ــ كما اعتادت أوروبا أن تقول ــ عبر قطعان النساء الأخريات المتجمعات في كل مكان، وهي تضع فوق وجهها مختلف الأصباغ، وتتابع نماذج الموضة يوماً بيوم، وتضطر لقبولها مهما كانت بشعة لكي تقاتل الأخريات بنفس السلاح، ثم تنطلق ــ حاملة كل ما لديها ــ باحثة عن حظها في أحد المراقص المختنقة بالذئاب. وهي لا تستطيع أن ترفض أياً من مطالب الرجل، إنها ليست حرة، فطبيعة الصراع لا تهتم بأكذوبة الفلسفة وعندما يطلب منها صديقها أن ــ تذهب معه ــ تضطر لأن تفعل ذلك فوراً، وإلا أخذت امرأة أخرى مكانها في نفس الليلة، وتتبدى ــ الحرية الجديدة ــ في النهاية لكي تعيد المرأة إلى عصر الجواري مباشرة، وهذا مصير محزن تافه.

ولكنه مصير نهائي، وليس ثمة فرصة واحدة للإفلات منه، فقد نشأ منذ البداية في طبيعة المساواة نفسها، التي أساءت المرأة التعبير عنها إساءة

بالغة. فالمرأة لم تكن تهدف إلى أن تصير رجلاً، ولكنها كانت تريد أن تلغي (الاضطهاد) الواقع فوق رأسها في الحريم، وبدلاً من أن تتجه إلى تحقيق ذلك اتجهت إلى نفس مكان (الحريم) من الطريق المعاكس، وكان الرجل يضطر لشرائها من سوق العبيد، فأصبحت تأتيه الآن مثل متسوّل جائع وتبيعه كل ما تملك، وكانت المدارس تقف عاجزة طوال الوقت، فلم يكن ثمة من يعتقد أن (العلم) يمكن أن يسيء إلى المرأة، ولقد نسيت هذه المدارس أن ما تقدمه للمرأة ليس (علماً) بل (مجرد معلومات) تفتقر إلى القدرة على خلق الشخصية في المرأة والرجل على السواء، وأن (العلم) شيء آخر لا يمكن تقديمه بدون فلسفة.

فالفتاة التي تتعلم أن الماء يغلي عند درجة مائة، والفوسفور مادة مضيئة، والمطر ظاهرة من ظواهر الضغط الجوي، لا تتعلم شيئاً حقيقياً مجدياً بالنسبة للسنوات القادمة. إنها تستطيع أن تعيد بيع هذه المعلومات مقابل راتب معين تشتري به أدوات حلاقة لزوجها أو بدلة أو عمارة كاملة، ولكنها لا تستطيع أن تستعمل هذه المعلومات لإعادة التوازن بين مظاهر الحياة نفسها.

إنها تفتقر إلى الشخصية، وقد تعلمت كما تعلم الرجل ولا تستطيع أن تكون سوى رجل، وهذه ــ بصورة عامة ــ هي المشكلة، فقد خرجت المرأة من بيتها، وأحدثت تغييراً جذرياً في بناء مجتمعها، دون أن تبتكر مكانها القادم، وكانت النتيجة أن قدم لها الرجل مكانه، وجلس فوق أكتافها.

وهذه مسؤولية مناهج التعليم وحدها، مسؤولية المربين الحمقى الذين رفضوا أن يجشموا أنفسهم عناء دراسة المشكلة الحقيقية لإعطاء المرأة ما تحتاجه فعلاً، وتركوها تمضي في الطريق الخطأ، أو لعلهم أرغموها على ذلك الطريق، فلم يكن ثمة شيء آخر سواه، وقد تباهت أوروبا بذلك في البداية، وأعلنت حماسها المنقطع النظير (للقوة الجديدة الخالقة) التي وصلت إلى مجتمعاتها مبدية سخطها تجاه شعوب الشرق ذات التقاليد المشينة في حبس المرأة، وكتبت آلاف الكتب العجيبة للسخرية من هذه الشعوب ومن العرب بوجه خاص، وتمّ اعتبارنا في ذيل قائمة العالم البربري الذي يتحتم إصلاحه.

ولكن أوروبا اكتشفت بعد ذلك، أننا لم نكن أسوأ منها في معاملة نسائنا، وإذا كانت المرأة العربية قد اضطهدت داخل العباءة والحريم وأهينت بصورة مبتذلة، فإن أوروبا لم تنل شيئاً حقيقياً من وراء فكرتها سوى مخلوقة بلهاء شقراء الشعر تطوف الشوارع طوال اليوم وراء أحد الأولاد منتفخة البطن، غارقة في أوهام الفلسفة، وخالية خلواً تاماً من أي قدرة على الخلق.

ثم اكتشفت أوروبا أننا عندما حرمنا نساءنا من (العلم)، لم نكن أكثر بربرية من مدارسها التي أغرقت المرأة في ذلك (العلم)، فالمدرسة ـــ بوصفها الحالي ـــ لم تعمم لمساعدة المرأة في شيء، وسواء حرمت المرأة منها، أو ذهبت إليها، فإن ذلك لن يمدها في النهاية بغير الألم المتولد عبر التناقض بين

أهداف التعليم وبين أهداف المرأة، وباستثناء معاهد الممرضات والمدارس الصناعية فإن الإنسان لم يقدم حلاً واحداً لذلك التناقض، وأوروبا تعرف أن هذين النوعين من المدارس قد تمّ إنشاؤهما في الشرق قبل أن يولد المسيح بألف عام.

فالفكرة ذاتها أقدم من أوروبا، ولكن تلك القارة نالت شرف التجربة، وغامرت بحضارتها لكي تقدم للآخرين الطريق الذي يجب أن يتجنبوه في المرة القادمة، وهو طريق واضح المعالم تحدد الإحصائيات كل شبر فيه.

ولعل المرء مطالب بأن يذكر بأنه لو كان ثمة أمل واحد، أمل واحد ليس غير، في إنقاذ المرأة عن طريق المدارس الحالية، لحدث ذلك الإنقاذ في أوروبا، فقد كانت تملك كل شيء لإحداث المعجزة، وكانت طاقاتها الهائلة تفوق ما لدى شعوب العالم مجتمعة مئات المرات، ولكن الخطأ كان غير قابل للإصلاح، كان ــ مثل الموت ــ يحدث مرة واحدة فقط.

وأنا أريد أن أتوقف هنا لكي أشير إلى أن خطأ المرأة الأوروبية لم يعتبر خطأ بين جميع الشعوب، بل أن كثيراً من نساء الشرق ما زلن يهدفن إلى تحقيق المساواة كما فهمت في أوروبا، وما زلن يعتبرن تلك المرأة مثالاً يجب احتذاؤه مباشرة، ولعلهن يعتقدن أهن قادرات على احتذاء (الفضائل) وحدها، وتجنّب الأخطاء التي حدثت خلال الصراع، وهذا اعتقاد لا يملك سوى النوايا الطيبة، لأن (فضائل) المساواة كما فهمتها أوروبا كانت

ترتبط ارتباطاً كاملاً بباقي الأخطاء، كانت وجهها الآخر بالضبط وكانت مثل إحدى الأسطوانات لا يمكن شراء وجه واحد منها دون أن يحمل المرء الوجه الآخر معه.

فالخطأ حدث في طبيعة الهدف ذاته، ومن ذلك الهدف يجب أن يبدأ الطريق كله الآن.

وأنا أعتقد أن تلك ليست مهمة المرأة وحدها، بل هي مهمة الرجال الذين يتولون تربية الأجيال القادمة. إنهم مطالبون ـــ أكثر من كل الآخرين ـــ بأن يجدوا الحل الصحيح فوراً.

وبالنسبة ـــ للدين ـــ فإن المرء مطالب بأن يعلن براءته من ذنوب الرجال تجاه النساء، فقد وضع ـــ الدين ـــ دائماً في غير مكانه الصحيح طوال أيام الصراع، وهذا ما أريد أن أتحدث عنه الآن، فذلك يشعر المرء بحقيقة المشكلة أكثر[1].

➢ **المرأة:**

عار التقاليد:

حدث الخطأ الحاسم عندما أعفت (التقاليد) الرجل من العقاب، ووضعت الإثم على عاتق المرأة، دون اعتبار لمسألة العدالة في هذا القرار، ورغم أن القرآن أعاد صياغة القانون بطريقة أكثر وضوحاً، إلا أن الفقهاء الفاطميين ما لبثوا أن أحيوا تقاليدهم البدائية مرة أخرى، ووضعوا المرأة

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 64وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

المسلمة موضع الشك ثم قرروا (تحصينها) ضد الإثم بحبسها في البيت والعباءة أحد عشر قرناً بلا انقطاع، ونمت الفلسفة ــ خلال عصور انحطاطها ــ لتربط المرأة بفكرة الشرف ربطاً خالياً من الفهم.[1]

مفارقات التقاليد :

المرأة الآثمة عار لا بدّ من غسله، أما الرجل الآثم فليس عاراً، بل فخراً للعائلة بأسرها، تتحتم حمايته إلى أبعد الحدود، والأنثى تستطيع أن تهين شرف الرجل، أما الرجل فإنه لا يهين شرف المرأة، بل يزيده قيمة عندما يتمكن من إغراء إحدى النساء الأخريات.[2]

بين الأهداف والوظيفة :

الحياة لا تهتم بالمرأة ولكن بوظيفتها، ولا شك أن الخلق نفسه قد تمّ على هذا الأساس وحده، فالمرأة تستطيع أن تكون ما تشاء، ولكنها لن تتمكن من تحقيق أهدافها إلا إذا حدث الاتفاق بين الأهداف وبين الوظيفة، فإذا لم يحدث ذلك الاتفاق فلا مناص من الدمار الشامل، ولأن الحياة لا تدمّر نفسها فقد قرّرت أن تدمّر الإنسان، وكان المسرب الخفي الذي تسرّب منه العطب جزءاً من البناء نفسه، جزءاً من الحضارة والإنسان، فقد حملت فكرة المساواة بذرة العطب معها وتركتها تكبر في داخلها بطريقة طبيعية.

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 66وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .
2- الحديث عن المرأة والديانات ص66 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

المرأة تريد أن تلغي اضطهاد الرجل لها، فترتكب خطأ خفياً عندما تصرّ على توجيه الثورة إلى وظيفتها، وتعلن طريقاً لإيقاف الاضطهاد.. بل طريقاً للإخلال بنظام وظيفة النوع، وعندما تتحقق المساواة تكتشف المرأة ذلك، وتدرك أنها قد وقعت في فخ من نوع آخر، فبدلاً من أن توقف سيطرة الرجل عليها، أعطته فرصة أخرى لجرّها وراءه بلا انقطاع، فهي مطالبة بأن تخرج معه إلى ميدان الصراع، ومطالبة بأن تفعل كل شيء يفعله لكي تحقق مساواتها المطلقة، ثم هي مطالبة بمنافسة زميلاتها فهمها السيئ لمعنى المساواة، فهنا يبدأ العطب، لأن المساواة ليست للحصول على (زوج) من أحد المراقص أو الحفلات، فالرجل لم يعد يبحث عن المرأة، بعد أن جاءت المرأة للبحث عنه، وذلك يعني أن تكون مستعدة للدخول في السباق في أي لحظة، وأن تهتم بزيادة مواهبها وإبرازها لكي تضمن فوزها عندما يطل الرجل في النهاية، فإذا وصل الصيد المطلوب ألقت المرأة كل شباكها في طريقه وغالباً ما تنتهي الحفلة بسقوط المرأة نفسها، فهي مضطرة إلى تلبية مطالب الرجل مهما كانت، وإلا تحولّ إلى امرأة غيرها.

فإذا تمّ الارتباط بالزواج، فإن كلا الزوجين يقضي كثيراً من سني حياته في فزع من أن يتخلى الآخر عنه، ويقع في فخ جديد فالفخاخ منصوبة على الدوام، وليس ثمة ما يحفظ المرأة أو الرجل من الوقوع فيها سوى وازع أخلاقي كبير، ولكن الأخلاق وحدها لا تكفي دائماً لخلق الطمأنينة في قلب الزوجين ولذا فإن مشاكل الطلاق ــ إلى جانب مشاكل التربية

ــ تشكل خطراً في أوروباً أكثر من خطر المجاعة في الهند مئات المرات، اختصاص الفلسفة أو العلم الذي بدأ الآن في محاولة إلغاء المرأة كلياً عن طريق ــ تفريخ ــ الأطفال في أنابيب الاختبار، لأن المرأة لم تكن تتعمد خلق المتاعب لنفسها ــ إنها ــ ببساطة ــ ضحية سوء الفهم لنوع وظيفتها ذاتها، وضحية لا يمكن إنقاذها لقانون كبير شامل يهدف إلى السير بالفضائل في اتجاه الإنسان، لا مضاعفة الرذائل عن طريق ارتكابها مرتين.

ولكن المرأة في أوروبا فعلت ذلك، وضاعفت (عدد) كل شيء، وكان لا بد أن ينهار البناء كله تحت الثقل المفاجئ انهياراً نهائياً.. وليس ثمة من يستطيع تفسير ما حدث إلا باعتباره إرادة عليا لا يمكن قهرها، فقد كانت أوروبا تملك كل الفرص لتحقيق المعجزة، لو كان ثمة أمل واحد في تحقيقها. ومرة أخرى أثبتت الحضارة أنها مجرد حقل للتجربة، وقد فشلت تلك التجربة في أوروبا، وأصبحت مهمة الشعوب الأخرى أن تتجنب ارتكاب الخطأ للمرة الثانية... فهل يمكن ذلك؟..

هل ثمة طريق إلى تحقيق نتيجة أفضل في المرة القادمة؟

أنا أعرف أننا نريد أن تفعل ذلك، ولا أشك قط أننا قادرون على تحقيق هذه الإرادة إذا توفرت لنا فرصة لفهم النظام الذي تسعى الحياة لتحقيقه على أرضنا.

فأين يجب أن نبدأ؟

وعبر هذا السؤال: أنا أريد أن أشير إلى اقتراح خبراء التربية فيما يختص بمناهج التعليم التي أتيحت للمرأة حتى الآن، فإن المدرسة الحديثة كانت جزءاً آخر من المشكلة، وكانت أفظع مسارب الدمار في عقل الحضارة ذاتها[1].

(البراءة من الآلام)

المرء مطالب بأن يعترف ببراءة النصوص من كل الآلام التي عاشتها النساء منذ اعتماد التحريف داخل الكنائس المريبة، فقد فعل الرجال ذلك وحدهم، وسلبوا المرأة حقوقها البسيطة وجعلوها عبداً لهم، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك باسم الدين، فإن الأمر كله مجرد خداع مزر، وقد فعلوا كل شيء باسم الدين، وكتبوا صكوك الغفران، ودعوا الملوك بظل الله، وجبوا الضرائب من الفلاحين لكي يبنوا قصورهم المرمرية، وصنعوا لأنفسهم تماثيل من الذهب، ولم تكن المرأة سوى ضحية واحدة من ضحايا هؤلاء الرجال، مجرد صليب صغير في الطريق العامر بالصلبان.

أما أحكام الله فقد أبعدت نهائياً.. نسبت خلال الحفلة المشينة العامرة بالسلب، وقد حدث هذا بصورة متواصلة وفي وضح النهار من أورشليم إلى قلاع القراصنة في آخر العالم ثلاثة آلاف سنة بلا انقطاع.. وكان كله مسيحياً أو يهودياً.

1 - الحديث عن المرأة والديانات ص 71 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

أما المسلمون فقد سلكوا طريقاً آخر للظلم، طريقاً أكثر إثارة للألم، وإذا كانوا لم يستطيعوا أن يقوموا بعملية التحريف للنص الديني نفسه فقد وجدوا حلاً آخر اسمه سوء الفهم.. هذا الحل وجده الإنسان دائماً لكي يبرر مظالمه.

فلنر ماذا فعل هؤلاء الرجال.. ومتى أصيبوا بالعجز عن الفهم حقاً.[1]

مصادر الافتراء الذكوري :

المفاجأ، أن المرء يستطيع أن يبدأ الآن، وفي ثقة بالغة بتحديد المصادر التي استمد منها الرجال (عاداتهم) الحالية، دون أن يضطر إلى ترك أي فجوات وراءه، فكل جزء في وضع المرأة المسلمة الحالي، كل عادة، وكل بدعة لها أصل يمكن دراسته بالتفصيل.

وأنا لا أريد أن أتجاوز القول بأن انحراف الرجال إلى هذه المصادر كان انحرافاً متعمداً لا شك فيه، فقد كان لديهم القرآن، وكانوا يعرفون بالضبط مدى الاختلاف الهائل بين تعاليم هذا الكتاب وبين مصادر عاداتهم، ولكنهم أغمضوا أعينهم بطريقة ما، واختاروا أن يواصلوا طريقهم القديم.

وسواء حدث هذا الانحراف نتيجة الجهل أو نتيجة ظروف أخرى، فهو يظل دائماً انحرافاً متعمداً، وليس ثمة من يتحمل مسؤوليته سوى الرجال المسلمين، الذين ورثوا القرآن ليكتبوه في الأحجبة والتعاويذ وحدها، معلقين مصيرهم الخاص في كفّ الشيطان والتوراة ومعابد الوثنيين المعتمة.

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 79 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

وأول مصدر (لعاداتنا) عمرة ثلاثة آلاف وستمائة وأربعة وتسعون عاماً، واسمه قانون حمورابي (ملك بابلي سابق لعصر التوراة)، وقد قال في الجزء الخاص بالزواج:

1ــ يدفع العريس المهر الذي يحدده والد العروس بالذهب والفضة والأبقار، (وقد استعار المسلمون ذلك حرفياً، وسمّوه في ــ ليبيا ــ حليب، وتعلّم الآباء كيف يحدّدون مهر بناتهم بقيمة تلك المعادن، فيما يجعل الإسلام ذلك المهر مجرد رمز صغير قيمته خمسة وعشرون قرشاً.

2ــ قال حمورابي: رب العائلة له الحق أن يفعل ببناته ما يشاء وذلك يعني أن يزوجهن أو يبيعهن للمعابد أو يتزوجهن بنفسه، وإذا كان الرجال المسلمون يجعدون وجوههم تقززاً من بربرية هذا القانون، فليذكروا أنهم يستمدون منه حقهم في عقد قرن بناتهم الآن على رجال لا يعرفنهم قط، والإحصائيات تقول أن سبعاً من كل عشر نساء في بلدان المسلمين يتزوجن طبقاً لرغبة آبائهن!!

أما القرآن فقد ربط شرعية الزواج بموافقة المرأة ــ وذلك يعني موافقتها وليس إرغامها على ذلك ــ وإلاّ اعتبر الزواج نفسه باطلاً، أي مجر حالة اغتصاب.

3ــ قال حمورابي: الرجل وحده سيد العائلة، وله الحق أن يفعل بأطفاله ما يشاء، وليس للأم ذلك الحق.

وهذا قانون عام استعاره الرجال المسلمون كله، و لم يتخلوا عنه بعد ذلك قط رغم إصرار القرآن على بناء العائلة فوق أسس (الشورى) والتفاهم بين الوالدين، فالرجل هو الذي يزوج ابنته، ويختار زوجة ابنه، ويضع امرأته داخل عباءة، ويحدد واجبات كل فرد في الأسرة، بغض النظر عن قدراته هو على فهم واجباته الخاصة.

4ـــ قال حمورابي: والدا العروس مطالبان بأن يرسلا معها هدية العرس التي تحدد طبقاً لقيمة المهر، ثم وصل هذا القانون إلى منطقة الشام وشمال إفريقيا بإضافة جديدة تحتم أن توضع تلك الهدية فوق رؤوس صديقات العروس ويطفن بها في الشوارع ليعرف الناس قيمة المهر ذاته، وعندما زار البرتغاليون مدغشقر في منتصف القرن السادس عشر وجدوا النساء المسلمات (يحملن القفف المغلقة فوق رؤوسهن، ويطلقن أصواتاً حادة ـــ يقصد الزغاريد ـــ ملوحات بالثياب الحريرية التي أحضرها العريس، سائرات في صف طويل حول المدينة!).

وهذا ما زال يحدث بيننا، وليس مصدره القرآن:

5ـــ قال حمورابي: الزنا عقوبته القتل بالنسبة للمرأة، أما الرجل فلا عقاب عليه إلا إذا ارتكب ذلك الإثم مع امرأة متزوجة (وقد تبنى الرجال المسلمون ذلك القانون فوراً ـــ بعد أن أسقطوا منه عقاب الرجل كلية ـــ وجعلوه مصدر العدل الوحيد، أما القرآن فقد اعتبر الإثم مشتركاً، والعقاب مشتركاً، فالنصوص لا ترتكب الظلم قط، ولكن الرجال يسيئون الفهم بطريقة محيرة).

6ـــ الاحتفال بليلة الزفاف وفضّ بكارة المرأة ـــ عادة ـــ وصلت إلى شمال إفريقيا بعد ألف عام من نشوئها في منطقة الفرات والأردن، وقد كانت مدينة جيروشيا ـــ وهي مدينة أردنية غزاها النبي صلى الله عليه وسلم يوشعيا في الألف الثالث قبل الميلاد ـــ تتبنى قانوناً بعرض العروس على الراهب، (لكي يعرف مدى طهارتها عن طريق اختبار غشاء البكارة، قبل أن يبت في أمر زواجها ثم وصل هذا القانون إلى التوراة). واعتمده أول نص ديني ينتسب إلى السماء اعتماداً نهائياً، فيما اعتبرت قبائل الرعاة المجاورة مشكلة البكارة من اختصاص والد البنت وحده، وما زال حتى اليوم ثمة قبائل في منطقة جنوب غرب العراق تهتم أن يقف الأب على سرير ابنته ليشرف على إجراء الاختبار، أما في ليبيا فإن الأب يقف خارج الباب ممسكاً عذراته في يده منتظراً نتيجة ذلك الاختبار بقلب راجف.

أما القرآن فقد اشترط أن يشهد أربعة شهود عيان لكي تتهم أي امرأة بتهمة الزنى، ولو كان ـــ غشاء البكارة دليلاً حقيقياً ـــ لما أهمله القرآن.

ولكن الرجال يسيئون الفهم.

7ـــ عادة الوشم وصلت إلينا من الفراعنة، الذين كانوا يستعملون لتمييز طبقات الخدم في القصر الملكي، ثم اتخذته القبائل البربرية وسيلة من وسائل الرجال والنساء على السواء. وكان هنود أمريكا يوشمون جلودهم من القدم إلى الرأس عندما زارهم كولمبس سنة 1492، وما زال ثمة قبائل

في العراق والأردن وليبيا تَشِمُ رجالها بعلامات مميزة، فيما تحول الوشم بالنسبة للمرأة من وسيلة زينة إلى عادة مستحكمة لها طقوسها الخاصة مثل كل العادات الأخرى.

وليس الوشم من وصايا القرآن، بل إنه لم يذكره قط.

8ــ تغطية وجه المرأة، ولفّها داخل عباءة، عادة أخرى ذكرها التاريخ أول مرة في مدينة (موهنجو دورو) ــ وكانت تقع في منطقة الباكستان منذ ستة آلاف سنة، ثم وصلت إلى بابل في بداية الألف الرابع قبل الميلاد، وكانت مقتصرة على المتزوجة، وعندما عاد (دارا) الفارسي إلى عاصمته (سوسا) بعد إخضاعه بابل، حمل معه تلك العادة لكي يميز بها النساء الأسيرات، ثم حمل الفرس فكرة الحجاب إلى مصر، ومنها إلى شمال إفريقيا، وكان البربر مستعدين لتقليد أي شيء يأتي من الشرق، خصوصاً فيما يخص المرأة، وعندما جاء القرآن كان (الحجاب والحذر) شيئين معروفين في مدن المنطقة كلها، ولم يأمر القرآن بأن تغطي وجهها ولكن الحاكم بأمر الله ــ وهو سلطان فاطمي ــ أمر بذلك معلناً عودته إلى تقاليد البربر المعروفة في المغرب الذي جاء الفاطميون منه.

ومسخت النساء إلى خيمات قبيحة متحركة لآخر مرة، ولم يفعل القرآن ذلك بل فعله الحاكم بأمر الله، وهو سلطان مجنون كان يصدر أوامره بطريقة محيّرة، وقد أمر أصحاب الحوانيت أن يناموا بالنهار، ويعملوا

بالليل، وأمر موظفيه أن يلبسوا صنادل النساء، وأمر النساء أن يغطين وجوههن، ثم شعر باليأس وركب حماره وانطلق إلى الصحراء المحيطة بمدينة القاهرة.. ولا يدري أحد أين ذهب!!

ومن ذلك الرجل نستمد نحن طريقة معاملتنا لأمهاتنا!

والواقع أن المرء يستطيع أن يتابع هذه الدراسة إلى نهايتها لكي يحصي مصادر عاداتنا، ويحدّد الطرق التي سلكتها إلينا، فليس ثمة (عادة قبيحة واحدة) تركها الرجال تسقط ــ فيما يخص المرأة ــ سوى عادة (وأد البنات) ــ وإن كانوا ما زالوا يمارسونها بطريقة أخرى ــ وليس ثمة مصدر ديني واحد لتسعين في المائة من هذه العادات.

وقد كان القرآن بين أيدي الناس طوال الوقت، وكان لا يحتاج إلى ترجمة، أو دراسة من نوع خاص، ولكن أحداً لم يتخل عن حماقات الإنسان التي ارتكبها عبر تاريخه الحافل بالحماقات، وهذا ما كنت أرغب في الإشارة إليه عندما قلت إننا مطالبون بأن نعلن براءة (الدين) من ذنوب الرجال تجاه المرأة، فإن الدين لم ينل فرصته قط، وقد قام الرجال بتحريفه فيما يخص التوراة والإنجيل، وأعادوا كتابة النصوص على النحو الذي يلائمهم، مفترضين في أنفسهم القدرة على تنظيم الأمور تنظيماً جيداً، وكانت نتيجة ذلك أن اضطرت الأجيال التالية إلى إلغاء النصوص المقدسة إلغاءً كلياً غير خالٍ من الأخطاء السيئة.

أما بالنسبة للقرآن، فإن أحداً لم يستطع تحريفه ولكن وضعه موضع التنفيذ لم يتم بصورة مرضية فيما يخص موقف المرأة المسلمة، وكانت النتيجة أن تحولت المرأة إلى أيقونة مشوّهة بالوشم توضع فوق السدة حتى تحمل في نعش دون أن ترى وجه السماء إلا خلال عباءة الصوف البشعة، وتعطى لمن يستطيع إرضاء والدها بالذهب كما يحدث في سوق البقر والخنازير.

وهذه لحظة مهمة، فلا بد أن يعرف المرء أن الظلم من عمل الإنسان وحده، وأن ــ الدين ــ لا يمكن أن يتسبب في إيذاء المرأة أو غيرها، ولا بد أن يوجه الحديث إلى الجهة المسؤولة حقاً، أعني الرجال الرائعين مثل الملائكة الذين لا يتورعون لحظة واحدة عن الافتراء على نفسه.[1]

خصوصية التعليم :

ثم إن نظام التعليم عندنا يقوم على أساس إصدار الشهادات، بمعنى أن البنت والولد والعامل ملزمون باجتياز امتحان واحد في النهاية لكي ينالوا شهاداتهم، والامتحان الواحد لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق المواد المشتركة، وهيئات التعليم تؤدي واجبها في هذا الاتجاه، وليس ثمة فرصة لأن تفعل غير ذلك.. فأوروبا لم تمدها بشيء آخر على أي حال.

فلنر الآن هذه الحقائق الصغيرة:

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 87 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

ـــ إذا كانت (المساواة في كل شيء)، هي الديمقراطية فلا بد أن (الطبيعة) ـــ دكتاتور مطلق ـــ لأنها لم تحاول في يوم من الأيام أن تحقق هذه المساواة بين نوعين في العالم، وبالذات بين الرجل وبين المرأة.

ـــ إذا لم تكن (المساواة في كل شيء) هي الديمقراطية، فلا بدّ أن الديمقراطية الحقيقية تتمثل في هذا التعريف الموجز، (أن ينال كل مخلوق فرصته لبناء الحياة بصورة أحسن) لأن ذلك ـــ في الواقع ـــ هو القانون الوحيد الذي تسير المخلوقات بمقتضاه في الطبيعة.

ـــ ما دامت (المساواة في كل شيء) ليست هدف الخلق، فلا بدّ أنها ليست هدف الحياة أيضاً.. وإذا حاول الإنسان أن يحققها، فإنه في الواقع يخلّ بأحد قوانين العالم الهامّة، ويغامر ببقائه، مقابل لا شيء، كما حدث في أوروبا مثلاً.

ولنفترض هذا المثال المادي، الذي يثير السخط:

لنفترض أن هيئات التعليم لا تعطي شهاداتها لمن يجتاز الامتحان، بل لمن يصل أولاً خلال إحدى مسابقات العدد.. فتقف البنت والولد والعامل على خط واحد ويقطعون المائة متر القادمة عدّواً، ثم ينال الشهادة من يصل أولاً!

مثال سخيف أليس كذلك؟!

لأن العامل وحده سينال كل الشهادات.. فلنبحث عن مسابقة أخرى في صالح المرأة أو مسابقة جديدة في صالح الولد، فالأمر كله سواء.

وهيئات التعليم تملك فرصة السخرية بهذه الأمثلة، فهي لا تعطي شهاداتها لمن يثبت تفوّقه الجسدي بل لمن يثبت قدراته العقلية، والعقل منحة الله للجميع، فلنر الآن ما إذا كان العقل منحه الله للجميع:

ـــ الثابت أن الحياة نفسها تقوم على أساس (تأدية الأنواع لوظائفها).

ـــ والثابت أن فساد العالم يبدأ عندما تختل وظائف الأنواع.

والثابت أن الله أكثر عدلاً منا جميعاً، فإنه قد زوّد كل مخلوق بما يحتاجه لكي يؤدي وظيفته، سواء كان ذلك عن طريق الغريزة وحدها، أو العقل والغريزة معاً.

وذلك يعني:

أن (الوظيفة) سابقة على العقل، أي أن الإنسان لا يملك عقلاً لأنه يجب أن يملكه، بل لأن وظيفته مضطرة إلى حماية بقائها عن طريق تجمع الخبرات فيما يعرف في النهاية باسم (القدرات العقلية).

لا تجهدوا أنفسكم، فما زال لدينا فرصة للشرح:

عندما تتوقف حياة الإنسان على الصيد فإن خير ما يفعله هو أن يجمع كل الخبرات الممكنة عن تلك المهنة ويشرع في مزاولتها محاولاً عن طريق صراعه مع الواقع أن يجد مستقبلاً أفضل، فإذا جلس تحت شجرة وشرع في قراءة كتب الفلسفة مات من الجوع.

وذلك يعني أن (العقل) مضطر إلى أن يجاري حاجة الوظيفة إلى البقاء ويتعلم ما تحتاجه وظيفته الآن محاولاً دائماً أن يجد لنفسه منفذاً أكثر اتساعاً، وهو ما يسمى بالقدرة على التكيّف، وهذا ما منحه الله للجميع حقاً بدون تفرقة، وهو سلاح ذو حدّين، فالتكيّف ليس بالضرورة تكيّفاً مع الخير فقط إلاّ إذا تمكن الإنسان عن طريق معارفه وخبراته من توجيه هذه الميزة إلى الفضيلة، ولأن الإنسان وحده هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع توجيه (قدراته)، فقد حمله الله مسؤولية العالم، وقال القرآن:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإنسَانُ﴾[الأحزاب/72].

فلنضع الآن هذا السؤال: لنفرض أن شعباً من الصيادين الذين عاشوا في عصر سابق قد قرر أن يتبنى نظام تعليم المجموعات، ألا تعتقدون أن معظم مواد منهجه سوف تكون مختصة بخبرات الصيد؟

وإذا كان شعباً من المزارعين، ألا تختص المناهج بالزراعة؟ ألا يعني ذلك أن المنهج يتابع نوع الوظيفة دائماً، لا نوع المقررات.

وإذا كان الأمر كذلك فمتى تقرر في أذهانكم أن البنت والولد يؤديان وظيفة واحدة، ولماذا تصرّ مناهجكم على أن تقدم لهم (خبرات من نوع واحد)، أم أنكم ما زلتم تعتقدون أن كل امرئ سوف يكتشف وظيفته بنفسه في النهاية ويجد طريقه بمعزل عن معارفه؟

وإذا حدث ذلك، فما جدوى سنوات التعليم وحشو دماغ المرء بالتفاصيل، ثم لنفترض أن الولد يستطيع أن يستفيد من مناهجكم طبقاً لحاجات وظيفته، فالبنت لن تستفيد منها إلا إذا كانت ستؤدي وظيفة مشابهة، أي تصبح رجلاً، كما حدث في أوروبا أليس كذلك؟

ولنتحدث ببطء...

أنا لا أقول هنا إن الرجل يملك شيئاً لا تملكه المرأة، ولا أقول إن المرأة عاجزة عن شيء، إنني أحاول فقط أن أقرر أن وظيفة تلك المرأة بصورة عامة تختلف عن وظيفة الرجل بصورة عامة، أو يجب أن تختلف عنها طبقاً لقانون العالم المتجدد..

أما ما يقال عن (الأحسن والأصلح) فتلك فكرة بدائية معتمة لأن الأنواع لا تفاضل بينها تحت أية ظروف، والأمر كله معادلة تثير الرثاء، فما دام الرجل والمرأة يؤديان وظيفتين مختلفتين، وما دام الرجل والمرأة لا يتلقيان منهجين مختلفي الخبرة بل منهجاً ثابتاً واحداً، فلا بدّ أن ذلك المنهج يظلم أحدهما.

أما من وقع عليه الظلم، فأنا لا أتردد في أن أقرر أن المرأة هي التي عوملت بغير عدالة فقد كانت تلك المناهج مخصصة للأولاد الذكور وحدهم، وكان الحل الوحيد أمامها أن تتخلى عن وظيفتها بقدر الإمكان، وهذا ما فعلته في أوروبا، ودفعت ثمنه جاثية على ركبتيها.

فقوانين هذا العالم لا تغفر الأخطاء المتعمدة أو غير المتعمدة، ولا تعرف فكرة الغفران أصلاً، فهل ثمة حل آخر؟

أنا لا أشك في ذلك، إذا أدركت مناهج التعليم أن نظام الامتحانات المشتركة والشهادات لم يأت من السماء بل ابتكره الأوروبيون وبدأوا يدفعون ثمن نكباته الآن.

ثم لا تدرك تلك المناهج أن نظام تعليم المجموعات لا يمكن تحقيقه بنتائج مرضية، إلاّ إذا استطاع أن يوفر العدالة للفرد داخل المجموعة، بحيث ينال كل امرئ ـــ سواء كان ذكراً أو أنثى ـــ فرصته كاملة.

فالفصل الذي يحوي خمسين طالبة يجوز أن تتخرّج منه طبيبة ومهندسة ومعلمتان، ولكن تلك النتيجة قد تحققت بعد (عصر) الفصل كله في منهج واحد، كما يعصر رطل من الزيتون لإنتاج زجاجة من الزيت، ثم تلقى الحثالة طعاماً للثيران، وتخرّج باقي الطالبات بشذرات متشابكة من المعارف التي لا تمت إلى عالمنا بصلة.

ومهمة المناهج الجيدة أن تكفل عدم حدوث ذلك، بأن تتيح للفرد ـــ داخل المجموعة ـــ فرصة عادلة طبقاً لأهدافه وقدراته، وإلا فإن الفتاة الأمية التي تعلمت الطهو وغسل الملابس سوف تكون أفضل من الفتاة التي تلقت تعليماً عالياً و لم تستطع أن تجد عملاً تؤديه، فقد أضاعت وقتها لكي تجيد خبرات وظيفة لم تنلها، وأصبح من المتعين عليها أن تبدأ في تعلّم

خبرات وظيفتها الجديدة في البيت، وهو عمل لن تتمكن من أدائه كما تؤديه الفتاة الأميّة التي لم تضع وقتها في إتقان شيء آخر.

وهذا يعني أن مناهج المدرسة الحديثة لا تهدف إلى إيجاد (أم أو زوجة أو زوج أو أب) صالح أو غير صالح، بل تهدف إلى إيجاد (مهندس وطبيب وطبيبة ومعلمة وموظف)، أي أن (التعليم وسيلة لأكل العيش) وهذا هو الوهم الذي خلق فكرة الشهادة، والذي قامت هيئات التعليم من أجله، واجتمع الطلبة.. وافتتحت المدارس.

فمتى كانت وظيفة المرأة الأصلية تنحصر في أن تكسب عيش العائلة فقط؟

وإذا كانت العائلة ليست محتاجة إلى تلك الخدمة، فما الذي تستطيع المرأة أن تفعله بخبراتها المدرسية؟

وإذا كان ثمة امرأة لا تريد أن تتلقى تعليماً يؤهلها لكسب عيشها، فأين تستطيع أن تجد من يرشدها إلى ذلك التعليم؟

هل هذه مشكلة ليبيا أصلاً، أم أنها مشكلة شعوب أخرى؟

أنا أعتقد أنني مضطر للبحث عن إجابة هذه الأسئلة بعيداً عن ليبيا، وبالذات في أوروبا وحدها. فقد نشأت هناك فكرة مؤداها (رفع مستوى الأسرة المادي عن طريق إتاحة فرصة العمل للمرأة)، وكانت فكرة القرن الحالي (القرن العشرون) كله.

فلنر قصة العاملات من أولها، قصة بيع المعرفة للمواطنين، فإنه يبدو من الواضح أن شعب ليبيا ما زال يخلط بين المتعلم وبين حامل الشهادة، وما دامت مهمة المدرسة هي إعداد المواطن لكسب عيشه، فلا شك أن (شهادة المدرسة) مجرد شهادة على أن ذلك المواطن نفسه يحسن مهنته.

أي أن الشهادة مجرد رخصة لمزاولة مهنة ما، وكما تصدر البلدية رخصة أحد الجزارين، فإن المدارس تصدر رخص الأطباء والمهندسين والمعلمين وباقي الموظفين وجميع لابسي أربطة العنق.

والسؤال الآن: أي رخصة تحتاجها المرأة، فمناهج التعليم ليس لديها سوى الرخص.[1]

➢ الدكتاتور الفظيع :

لا بدّ أن يشير المرء إلى أن ــ أفكار الموضة ــ لم تكن لعبة لخدمة الشعر أو الجمال ــ كما قيل في البداية ــ بل «دكتاتور فظيع» يقود وراءه قطعان النساء بلا توقف، وكل من تخرّج من الصف أو تعلن اعتراضها يحكم عليها بأن تموت عانساً محرومة من لحظة حب ــ متوحدة مثل وحش بربري إلى النهاية.[2]

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 120 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .
2- الحديث عن المرأة والديانات ص 122 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

➢ أخطاء العصر الطيب :

العصر الطيب النوايا الذي اندفع في حماس ـــ لينقذ المرأة من عصور الجهالة ـــ لم يحقق في الواقع سوى مزيد من الأعباء المؤلمة التي تهدف إلى متعة الرجل في المقام الأول، ثم حدث الخطأ المتوقع وانهارت الأسرة مرة واحدة، وأعلن (جرين) في بداية الحرب الماضية[1]) ـــ أن العالم يحتاج إلى هذه الحرب لكي يرى نتائج الفلسفة الغربية في فهم العلاقات بين البشر ـــ ثم تبعه (ولسن) ـــ معلناً سقوط الحضارة الغربية بطريقة مزرية لعجزها عن إدراك علاقة الإنسان بالإنسان.[2]

➢ الافتقار إلى الأهداف :

وضع المرأة الحالي بدأ بثورة، بدأ موجهاً إلى (القديم) مباشرة بغض النظر عن فكرة المنفعة والضرر، وبدأ فاقداً وعيه منذ البداية، واصطلاح (المساواة) ذاته دليل حقيقي على انعدام شخصية هذه الثورة، وافتقارها إلى الأهداف.[3]

➢ جذر مشاكل المرأة :

استقالة الدين :

مشكلة المرأة الحالية هي ثمرة ثقافة عصر سابق، ونحن لا نستطيع أن نحلها إلا عن طريق خلق ثقافة من نوع آخر، وقد بدا من الواضح أن

1- بقصد الحرب العالمية الثانية (1939 \ 1945).

2- الحديث عن المرأة والديانات ص 122وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

3- الحديث عن المرأة والديانات ص 124 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

(الدين) لم يكن (موضع التنفيذ) في كل العصور، وأن الثقافة التي قررت وضع المرأة في الحريم لم تكن تستمد أفكارها من (القرآن) بل من بقايا الحضارات البربرية المعقدة عبر قرون طويلة من الجهل وسوء الفهم في وقت واحد، فالرجل الذي يصر على أن تظل المرأة تحت تصرفه، مجرد ضحية لأفكار تلك الحضارات، وليس ثمة فرصة لإنقاذه من نفسه إلاّ بأن نقدم له أفكاراً أكثر رقياً ووضوحاً عن العالم.. أو ننتظر حتى يموت.

والمشكلة أننا اخترنا أسوأ ما في الحلّين معاً، وعجزت مدارسنا عن أن تقدم للرجل الليبي فكرة جديدة عن المرأة غير تلك الفكرة المرفوضة مقدماً التي يعرفها عن أوروبا، ثم عجزت عن أن تصل إليه بطريقة ما وقررت أن تنتظر حتى ينقرض جيل الأميين في النهاية[1].

➢ الثقافة المعاصرة :

وإذا كان ثمة نقطة تستحق النقاش بعد ذلك، فلا بدّ أنها تنحصر في تحديد مسؤولية (الثقافة المعاصرة) تجاه فشل المرأة النهائي، فقد كان من الواضح أن كل ما حدث منذ البداية ثمرة حامضة لثقافة العصور الماضية، وأن (الدين) لم ينل فرصته دائماً، رغم أن الأحكام كانت تصدر باسمه تحت كل الظروف، فالأمر كله مجرّد حالة قتل غير متعمدة، كأن يقتل حيوان حيواناً آخر عن طريق الخطأ.

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 130 وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

ولكن الثقافة المعاصرة رفضت هذا العذر البسيط، واعتبرت أن ما حدث جريمة لا غفران لها، وكان قرار الإدانة: (العنوا عصر الجهل وأعطوا المرأة كل حقوقها وحقوق الآخرين)، وجاءت النتيجة بعد أربعة وثلاثين عاماً فقط في تقرير إحصائي:

(لقد فقدت المرأة كل شيء. فقدت حتى أسرتها التي وهبتها عصور الجهل!).

فهل تعرفون كيف تمّ ذلك؟

إنها قصة سرقة عادة خالية من الأبطال.. قصة تدمير الأسرة، وبيع الأطفال لدور الحضانة والمربيات.[1]

➢ إبداء الزينة :

الجدير بالملاحظة أن «إبداء الزينة» قد ورد مرتين متتابعتين.. فالمرة الأولى كانت أمراً بعدم إبداء الزينة إلا ما ظهر منها.. ثم سمح بإبدائها في المرة الثانية للأزواج والمحرمين بدون إلزام أو تعمّد بالطبع.. وإذا فإبداء ما ظهر من الزينة لغير المحرمين ليس حراماً.. هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فإن الزينة يمكن فهمها باعتبار أنها موضع للإغراء.. وهذا كله يقود إلى فكرة واحدة هي أن المرأة ترتكب إثم المعصية عندما تتعمّد إبداء مفاتنها للإغراء.. وحده.. لذا ــ أيها السادة ــ فقد قال القرآن في موضع

1- الحديث عن المرأة والديانات ص 135وما بعدها ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

آخر: ﴿والْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور/60].

فالستر بالثياب مطلوب لتفادي مشكلة الجنس التي تتبدّى بصورة طبيعية عند تعامل الجنسين... ومن الواضح أن الفكرة تتركز على وجوب تفادي الإغراء أو محاولته بأي وجه.. وعندما تتخفى تلك المشكلة بحكم السن ـــ كما في حالة النساء القواعد ـــ فإن القرآن يبيح للمرأة أن تلبس ما تشاء في حدود عدم التبرّج.

فالمشكلة ليست مشكلة الخمار أو اللباس..

بل هي مشكلة «العفة الجنسية» التي لا يمكن تحقيقها إلا بإغلاق الطريق مرة واحدة أمام كل النوايا السيئة بالإغراء بالإثم، وذلك أمر موجّه إلى الرجل والمرأة معاً.. ومخالفته توجب عقاباً واحداً لكليهما معاً.. وإذا كان القرآن يخص المرأة بمسؤوليتها تجاه فكرة المعصية الجنسية فإن ذلك قد حدث لأن المرأة في الواقع مسؤولة حقاً تجاه هذه المشكلة فهي التي تتحمل عواقبها كلها.. وهي التي تحمل الطفل وتعوله فيما يستطيع الرجل أن ينطلق حراً لاقتراف معصية أخرى.. وهذه المسؤولية الملقاة فوق عنق المرأة هي التي تحدد مصدر الإغراء. فالرجل لا يستطيع إغراءها لأنها هي التي تحمل المسؤولية، ولكنها تستطيع إغراءه ـــ في معظم الحالات ـــ إذا رضيت بأن تتحمل العواقب، فالرجل لا يجازف بشيء.[1]

1- كلمات الحق القوية ص 47 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

➢ التهور الجنسي :

وهذه ـــ أيها السادة ـــ حلول القرآن لتلك المشكلة المعقّدة، فهو لا يفرض السجن ولا الحجاب على المرأة، ولكنه يطالبها بأن تفهم عواقب التهوّر الجنسي الذي يقود إلى خسارتها أولاً ثم خسارة المجتمع كله ثانياً.. يطالبها «بالتزام العفة» لكي يتمكن المجتمع نفسه من مواصلة بقائه على الطريق المحددة.. بغض النظر عن أشكال اللباس، فالإسلام دين «النية الأصيلة وليس دين المظهر».. والمطلوب هو تفادي فكرة المعصية ذاتها..[1]

➢ حكاية المظالم :

ومن وجهة نظرنا الحالية تبدو نصف الحقيقة حقيقة كاملة. هذه إحدى العلامات المميزة للفكر المتحيز بكل أشكاله. وأسوأ ما في الأمر أنها علامة تقع دائماً في الجانب الآخر، أعني الجانب الخفي الذي يحب الرجل أن يراه بعينه السليمة ولا يستطيع أن يراه بعينة العوراء. إن مجتمعنا ـــ الذي صمم الرجل وحده كل تفاصيله من طريقة بناء البيت إلى طريقة تربية الأولاد ووضع عليه خاتمه الشخصي كما يضع السلطان خاتمه فوق وجه الدينار لكي يصبح قابلاً للتداول ـــ هذا المجتمع يمثل وجهة نظر واحدة ويحمل ختماً رسمياً على وجه واحد فقط أما الوجه الآخر فإنه في الواقع مجرد ورقة بيضاء.

1- كلمات الحق القوية ص 48 ط2 2005 دار تالة للطباعة والنشر . ليبيا .

ذلك يعني بتفصيل أكثر أننا هنا ـــ وفي جميع الأقطار النامية الأخرى ـــ لم نفهم «المجتمع» باعتباره نظاماً حياتياً لاستثمار طاقات الرجل والمرأة والطفل من أجل الصالح المشترك، بل باعتباره مؤسسة رجالية لاستثمار طاقات المرأة والطفل من أجل صالح المؤسسة. إن مجتمعنا يبدو من الخارج بمثابة قارب يدير دفته الرجال وحدهم ويعبر فيه الأطفال والنساء باعتبارهم مجرد ركاب. والمضحك في الأمر أننا نتقاضى منهم ثم التذكرة إلى آخر مليم.

لم تشارك في تقييم أخلاقياته. لم توافق على مزاعمنا القائلة بأن شرف البنت مثل عود الكبريت وشرف الرجل مثل ولاعة الرونسون. لا تعتقد أن ثمة فرقاً بين هفوة الرجل وبين هفوة المرأة. لا تؤمن بأن أخاها يستحق أن يمتاز عنها بمقدار عقلة إصبع لمجرد أنه يملك بعض الشعر في لحيته. لا نريد مجتمعاً يوزع امتيازاته بين أفراده طبقاً لطول الشنب. لا تحتاج إلى وصاية الرجل لكي تعيش حرة كريمة ما دام في وسعها أن تفعل ذلك تحت وصاية ضميرها وحده. المرأة الليبية تشتغل وظيفة راكب في قاربنا الرجالي وتشغل بالذات وظيفة راكب رغم أنفه.

إنها لم تكتب كلمة واحدة في سفر إخلاقياته.

لم تنل قط فرصة التصويت على هذا السفر، لم تفعل شيئاً طوال المليون سنة الماضية سوى أن تمشي وراء الرجل وتحمل له أطفاله وتتبعه من كهف

إلى كهف ومن بيت إلى بيت وتطبخ له طعامه وتبصم بأصابعها العشرة على كل قرار يخطر بباله بما في ذلك أن يرميها لتماسيح النيل في موسم الفيضان أو يرسلها لكي تخطب له امرأة أخرى. إن المرأة الليبية جلست مليون سنة في عنبر الركاب وما تزال تجلس بصبر في انتظار نهاية هذه الرحلة المضنية. وهذا الحديث يخص حكاية الرحلة.

إنه ليس عريضة شكوى بالنيابة عن المرأة.

ليس عرض حال للمطالبة بحقوقها في عنبر الركاب. ليس استغاثة مسجوعة لكي تتبرعوا لها ببعض الشفقة. إنني لا أعتقد أن المرأة الليبية في حاجة إلى شفقة من أحد ولا أعتقد أيضاً أنني أستطيع أن أؤدي لها خدمة معقولة إذا طالبتكم بالبكاء من أجلها فوق هذا الورق. إنني أختار زاوية أفضل للنقاش.

أختار أن أحكي لكم كيف بدأت الحكاية.

كيف صار الرجل قبطاناً بلا قارب وتنطلق يبحر فوق اليابسة ويشكو من دوار البحر. كيف وقعت المرأة في الأسر ودخلت مع البقرة في عنبر الركاب. كيف أبحر قاربكم بالغنيمة ووصل إلى هنا؟

إن ثمرة الرحلة معروفة لكم جميعاً لأنها ما تزال أمام أعينكم حتى غد مجتمع مثالي من الذكور المثاليين يفتل شواربه في الشوارع والمقاهي وملاعب كرة القدم ويكدح جاهداً لكي يطعم إناثه وصغاره ويطلق على

نفسه الصفات الحلوة ويطلق عليه خصومه معظم الصفات الباقية. هذه ثمرة الرحلة.

وبالنسبة لي ليس ثمة ما يدعو إلى الشكوى.

إنني أعتبر مجتمع ليبيا مجتمعاً عادياً لا غبار عليه وأقبل كل صفة يريد أن يطلقها على نفسه وأفهم أخلاقياته باعتبارها نوعاً من الأخلاقيات، وأصدّق كل كلمة يكتبها عنه المتحمسون لنظمه، وأصدّق أيضاً أن الثمرة مجزية حقاً وأنها تقطر سكراً لكي ذلك كله أمر خارج كلية عن نطاق هذا الحديث.

القضية التي تهمني هنا لا علاقة لها بتقييم مجتمعنا ولا علاقة لها أيضاً بنقد فضائله أو رذائله وليس من شأنها أن تثير سخط أحد أو تنال رضاء أحد. القضية التي أعرض لها هنا سرد تاريخي لأحداث وقعت حقاً وانتهى أمرها وليس بوسعي ــ أن بوسع أحد منكم ــ أن يغير منها شيئاً سوى الرتوش السطحي. وإذا خطر لكم أنني أستغل لعبة الرتوش لكي أجعل الصورة تبدو رديئة أو جميلة أكثر مما ينبغي فالرجاء أن لا تغفروا لي هذا الضعف الإنساني.

إنني ألتزم بواقع الصورة.

وألتزم أيضاً أن أضع بين أيديكم سرداً شبه مفصل للأحداث التي أدت إلى ميلاد مجتمعنا ومنحته شكله الحالي وطبعته بطابع الذكر دون الأنثى..

كل ما أطمع فيه للبدء في هذه الرواية أن نتفق مقدماً على أن الحقائق التي نراها بأعيننا في مجتمعنا هي الحقائق الواقعة وليس ما يهذي به بعض مواطنينا من الأشعار الرديئة عن مجتمع ليبي آخر غير مرئي.

إن مجتمعنا هو الذي نراه كل يوم بأعيننا.

وفي هذا المجتمع يعتبر الرجل نفسه وصياً على المرأة والطفل معاً، أعني أغلبية الرجال على الأقل يحسون بهذه الوصاية وأغلبية الرجال مستعدون للموت أحياناً دفاعاً عنها. إذا اتفقنا على أن هذه الصفة الظاهرة صفة لمجتمعنا حقاً وليست دعاية مغرضة من جانبي أقوم بها لخدمة بعض الجهات المعادية للفضيلة. إذا اتفقنا على هذه النقطة الصغيرة فأنا أملك حكايتي جاهزة للسرد.

إنها ستضع بين يديك حفنة من الحقائق عن مجتمعنا الرجالي. عن وصاية الرجل وكيف بدأت وأين بدأت ولماذا لم تنته حتى الآن. وإذا أحسست أن الأسباب التاريخية لهذه الوصاية لم تعد قائمة، أو لم تعد ضرورية على الأقل، فالرجاء أن تتذكر أن ذلك لا يجوز أن يدفعك أنت إلى التخلي عن شيء من وصايتك على امرأتك أو أختك أو ابنتك. أغمض عينيك واستمر في الإبحار بقاربك على طول زقاقكم. إن هذا الحديث يخص جارك فقط.

الحكاية بدأت منذ عشرين مليون سنة، أعني حكاية قديمة إلى حد ما لكنها بالنسبة لعمر العالم حدثت في الواقع منذ ساعة تقريباً. فقد عاش.

إذ ذاك في سهول كينية نوع من الغوريلا يختلف عن بقية القرود الكبيرة والصغيرة في نقطة واحدة فقط. لقد كان يحمل في جمجمته دماغاً حجمه 7!973 سنتيمتراً مكعباً وكان ذلك الدماغ الهائل ــ منذ عشرين مليون سنة ــ سلاحاً رهيباً لا يقل إثارة للرهبة عن قنابلنا الذرية الحالية. لقد كان الغوريلا العبقري سيد الغابة بلا منازع.[1]

➢ **علاقة مكذوبة :**

أول كذبة في التاريخ وقعت في نهاية هذا العصر.. لقد انطلق قرد ما يطارد قردة ما لكي يقنعها بالزواج منه.. وقال لها ــ فيما قاله ــ إنه يريد أن يحميها من أعدائها. كان يعني الرجال الآخرين بالطبع، وكان قد نسي متعمداً أن الرجال الآخرين ليسوا أعداء المرأة بل أعداؤه وحده فقط. لكن المرأة صدقت هذه الخرافة الطارئة وتعلمت ومنذ ذلك اليوم أن كل الرجال ــ غير زوجها ــ خطر عليها وعلى وجودها وشرفها.. المدهش في الأمر أن الرجل لم يتعلم قط أن جميع النساء ــ غير زوجته ــ خطر عليه وعلى وجوده وشرفه الرفيع. هذه الحقيقة البسيطة لم تخطر بباله حتى الآن لأسباب مجهولة تقريباً..[2]

1- فرسان بلا معركة ص 12 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر .

2- فرسان بلا معركة ص 26 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر .

➢ **في الوصاية المكذوبة :**

اسم العائلة مجرد كلمة صغيرة لكنه بدون هذه الكلمة يفقد الرجل وصايته على المرأة لأنه لن يعرف قط أنها تخصه أو لا تخصه. الحاج الزروق يصبح وصياً على بنت الحاج حمد والحاج حمد يصبح وصياً على امرأة الحاج الزروق. نظامنا ينهار من أساسه فنحن نحتاج دائماً إلى علامة ما نحدد بها ملكيتنا للأشياء بالنسبة للبقرة ـــ التي لا تفهم لغتنا ـــ نضع وسمتنا على الجلد. بالنسبة للمرأة ـــ التي تفهم لغتنا لحسن حظها ـــ تكتفي بلقب العائلة الكريمة لكننا كنا مستعدين لأن نضع وسمتنا فوق جلدها لو لزم الأمر. اللغة أنقذت المرأة من سفود الوسم لكنها وضعتها تحت رحمة سفود أسوأ.

أعني وضعتها تحت رحمة ثقافتنا الرجالية.

أعطتنا فرصة مميتة لكي نفتح دماغها من الداخل ـــ دون إراقة دماء ـــ ونحشوه بكل ما يحلو لنا من المعلومات المرغوب فيها. نغسل مخها بدعاية رجالي غير محايدة. تصوروا ماذا كان بوسعنا أن نفعل بدون اللغة؟

أنا لا أريد أن أجرب، لكن التجربة مفتوحة أمام كل رجل هنا يجلس فوق شنباته صقران. دعوه يحاول أن يقنع عجوزه ـــ بدون لغة ـــ أن الجلوس فوق السدة يعني أنها حرة كريمة.. دعوه يقنعها عن طريق يديه أن بقية الرجال أعداؤها وأن وجهها عار لا يجوز فضحه أمام الناس وأن

مهمتهما في هذا العالم أن تطبخ الحرويسة وتأكل بالهنا وتغسل سراويل زوجها الفاضل.. كيف يقول المرء كلمة «زوج فاضل» بدون لغة؟

الطريق مسدود نظرياً لكنه ـــ للأسف ـــ مفتوح على مصراعيه في الواقع. إننا نستطيع أن نتكلم في أي وقت نشاء ونستطيع بالذات أن نتكلم بفصاحة مهيبة، وقد تكلمنا بلا انقطاع منذ خمسين ألف سنة على الأقل وقادتنا هذه الثرثرة المتطاولة إلى دهليز معقد من التقاليد والأفكار المتوارثة والأخلاقيات والحكم والخدع اللفظية. إن أخلاقياتنا عمل مستحيل بدون اللغة.

فأنت لا تستطيع أن تعبر عن «الشرف» بيديك فقط.

لا تستطيع أن تعبر عن «العفة والعزة والحرية والكرامة وبقية مثلك العليا» باستعمال يديك الكريمتين إنك ـــ بدون اللغة ـــ مجرد مخلوق أخرس، والمخلوق الأخرس يمكنه أحياناً أن يمتلك أخلاقيات على درجة عالية من المثالية لكنه بالتأكيد لن يعبر عن هذه الأخلاقيات بضمير الذكر وحده كما نفعل نحن في مجتمعنا الحالي ولن يكون بوسعه أن يجد ثمة فرقاً بين المؤنث وبين المذكر. إن كل شيء هنا يقاس عندئذٍ بنتائج الأعمال وحدها. هذا لم يحدث في مجتمعنا الثرثار.

عرفنا الفرق بين المؤنث وبين المذكر. عرفنا الفرق بين شرف البنت وشرف الولد. كنا قد انحدرنا من مغارة القرود التي شهدت شيوعية المرأة

وصراع الذكور، وتلقينا درساً مروعاً مقابل شبقنا الجنسي الساذج، وكنا نضع هذا الدرس نصب أعيننا عندما بدأنا في كتابة سفر أخلاقيات. لقد كان أول ما يشغلنا أن توقف المذبحة بين الذكور وكان القانون وحده كفيلاً بتحقيق هذه المعجزة.

فمن كتب القانون؟

أنا لا أرغب في المفاجأة لكني مضطر أن أقول لك إن الرجل لم يكتبه. ليس الرجل الذي نعرفه الآن. ليس إنساننا المهذب بل كتبه القرد القديم وحده. إنك لا تحتاج إلى الجدال معنا حول هذه النقطة فنحن في الواقع نملك جميعاً بصماته على عنق الضحية.

نملك ظاهرة «المهر» التي كانت ــ ذات يوم ــ حلاً لجأ إليه القرد لكي ينقل الصراع على الأنثى من معركة دموية بين الذكور إلى مسابقة اقتصادية في صيد الأرانب أو الدببة طبقاً لمهارة الصياد.

نملك ظاهرة «غشاء البكارة» التي كانت ــ ذات يوم ــ مجرد رمز للذكر على أنه وحده يقوم بإخصاب الأنثى دون غيره من الذكور لكي ينبسط أكثر ويعرف أن نسله الكريم بالذات قد كتب له البقاء.

نملك ظاهرة أخلاقياتنا التي تقيس الرجل من صيده في المصرف والتي انحدرت معنا من مغارتنا القديمة عندما كان القرود يقيسون الصياد بحجم ما يصطاده من الدببة.

نملك مثلنا التربوية التي تهدف إلى تربية الذكور على الفحولة والسيطرة وتربية الأنثى على الخنوع والطاعة، لكي يصبح لدينا أكفأ الصيادين الشداد وأحسن الطباخات في وقت واحد.

نملك إحساس الرجل بالذل الصاعق إذا خانته امرأته وإحساسه بالفخر الخفي إذا خانها هو متناسياً أن ذلك كله مجرد شعور أهوج مترسب في أعماقه عندما كان قرداً صياداً يحب أن يصطاد كل شيء بنفسه، ويكره أن يستولي صياد آخر على حصيلته. قلت لك إننا نملك بصمات أصابع الجاني، ونعرف هويته بالضبط ونعرف أنه مجرد قرد أخرق مفتقر إلى النبالة الإنسانية ومجنون وأناني وساذج لكن ذلك كله لا يساعدنا على أن ننقذ أمهاتنا وبناتنا من فلسفته المريضة. إننا في الواقع لا نستطيع أن نفعل حياله شيئاً بما في ذلك أن نقتله، فالقرد المضحك يموت بنفسه كل يوم ويولد كل يوم أيضاً. إنه يسري في ثقافتنا. أي ثقافة الرجال. الفكر الذي يتكلم دائماً بضمير المذكر فقط. الفكر الذي يتعامل مع العالم من وجهة نظر واحدة. إننا لا نستطيع أن نرى القرد فينا ــ مجرد الرؤية ــ ما دمنا ننظر إليه بعين القرد، ومع ذلك فإن مجتمعنا لا يملك فرصة حقيقية للبقاء على المدى الطويل إلاّ إذا نجح في تحقيق هذه المعجزة. إن الذكر عرّضنا للانقراض ذات مرة من أجل الأنثى وما يزال بوسعه أن يفعل ذلك مرة أخرى.[1]

1- فرسان بلا معركة ص33 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر .

➢ أكذوبة التساوي :

المساواة بين الرجل والمرأة مستحيلة في أي مجتمع لا تتساوى فيه فرص الكسب. ومجتمعنا يتبنى نظاماً معداً لكي يكسب فيه الرجل قوته مستقلاً عن المرأة وتكسب فيه المرأة قوتها معتمدة على الرجل. وما دامت هذه الحقيقة البسيطة قائمة فإن المساواة في مجتمعنا أمر مستحيل وغير منطقي في وقت واحد. إننا نستطيع أن نسمح للمرأة بالتسكع في الشوارع. نستطيع أن نتركها تذرع الدنيا عارية الركبتين وتبيع جسدها على كل رصيف وتفعل كل خارقة تخطر ببالها لكن ذلك كله لن يجعلها تحس بأنها متساوية لنا إلاّ إذا كانت مجرد بنت مجنونة لا تفهم المساواة أصلاً. أما إذا كانت تفهم ذلك بأي درجة من الوضوح فسوف تكتشف فوراً أن تسامحنا تجاهها على هذا النحو لا يختلف في شيء عن تسامحنا تجاه كلبتنا الضالة. إن المساواة الحقيقية لا تبدأ من هنا.

بل تبدأ من إتاحة فرصة عادلة أمام الطرفين لكي يحققا اكتفاءهما الذاتي. يصبح كل طرف منهما مستقلاً عن الآخر كلية. يصبح ارتباطهما ـــ عندما يرتبطان ـــ التقاء حراً بين إرادتين وليس فرضاً قاهراً من إرادة الذكر على إرادة الأنثى. إن ذلك لا يعني في الواقع سوى أن نربأ بعلاقة الرجل والمرأة أن تكون علاقة مصلحة وخبز وشهوة ونقود ونرفعها إلى مكانها الإنساني اللائق بها لكي تصبح ـــ بعد أن حان الوقت ـــ التقاء عقلياً مقاماً على التفهم والإرادة الحرة.[1]

1- فرسان بلا معركة ص 38ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر .

➢ البدعة الأوربية :

إن خروج المرأة للعمل ليس بدعة أوروبية بل حتمية تاريخية لا مفر منها. لكن ما فعلته المرأة الأوربية بهذا الحق الطبيعي هو وحده البدعة الأوروبية ونحن لا نحتاج إلى أن نفعل مثلها. إننا نعرف أخطاءها، ونعرف أنها عاشت تجربة جديدة على العالم و لم يكن بوسعها أن ترى الخطأ إلاّ بعد ارتكابه. لكننا نعرف أيضاً أن الإنسانية لن تلدغ من بدعة واحدة مرتين. إننا سنجد طريقنا بلا عناء. كل ما نحتاج إليه هو أن نبحث في الاتجاه المطلوب. ونرفض خداع أنفسنا بوجهة نظر واحدة ونرفض أن نتهم الرجل بتعمد إذلال المرأة ونرفض أيضاً أن نربت على كتف المرأة ونواسيها بدمعة تمساح. ليس ثمة مبرر لتبادل التهم أو الدموع. إن الطريق يجده المرء بالمشي.

والسيدة تستطيع أن تمشي وتستطيع أن تعرف مقدماً أن أحداً لم يسرق منها حقوقها برضاه وأن أحداً لن يعطيها حقوقها برضاه أيضاً. إن عليها أن تكسب ما تعتقد أنه يخصها بعرق جبينها وعليها أن تتعلم بعض الشجاعة بدل الفصاحة في إلقاء الخطب، فليس ثمة ما يدعو إلى إضاعة الوقت في الكلام. إن الطريق يقع أمام أنفها مباشرة، وهذه حقيقة نستطيع أن نؤكدها لها في أي وقت تشاء ونؤكد لها أيضاً أن رغبتها في الاعتماد على نفسها ليست رغبة فاسقة وليست ضد مصلحة مجتمعنا بل حلٌّ معقول وطبيعي لمشكلة ثقافتنا الرجالية. لكننا لا نستطيع أن نفعل من

أجلها شيئاً آخر سوى أن نتركها وشأنها فوراً. إننا لن نحملها فوق أكتافنا. ولن نتبرع بحمايتها من «الذئاب» لأنه في الواقع ليس ثمة ذئاب غيرنا، ولن نقول لها شيئاً من شأنه أن يعني أن المرأة تملك وصياً عليها غير ضميرها وحده. إننا لا بد أن نثق في المرأة إذا كنا نثق في أنفسنا، أما الزعم بأنها عرضة لخدع الشيطان لأنها أنثى فهذه كذبة رديئة ـــ أو على الأقل نصف حقيقة ـــ لا يجوز أن نتركها تخدعنا.

إن الشيطان يحتاج دائماً إلى رجل لكي يخدع امرأة، وإذا كنا قد نسينا هذه الحقيقة في مجتمعنا الحالي الذي يرى الحقائق بعين الرجل وحده، فإننا نملك فرصة سانحة للشفاء من هذا النقص إذا سمعنا أيضاً وجهة نظر المرأة. إننا لا يجوز أن نصدر حكماً بالغياب.

ولا يجوز أن نعتبر نساءنا شراً محققاً غائباً. إن ذلك يبدو ببساطة مثل كلام الأطفال عن الأشباح. والمرء لا يتوقع هذا السلوك من رجال مثلكم يلعبون بالصقور فوق شنباتهم. انظروا للغولة في عينيها. لا تخافوا، لا ترتعدوا.. إنها قردتكم القديمة التي كانت تسلخ لكم الأرانب في مغارة القرود لكي تنعموا باللحم وتتركوا لها العظام. كل ما حدث أنها لم تعد قردة.

ولم تعد ترضى بالعظام. [1]

1- فرسان بلا معركة ص 41 ط1 2001 دار تالة للطباعة والنشر.

➢ اضطهاد المرأة :

القول بأن الإسلام يضطهد المرأة مغالطة لا طائل من ورائها سوى تبرئة الإقطاع من هذه الجريمة بالذات. لأن الإقطاع هو المسؤول الحقيقي، والمستفيد الوحيد، من وراء اضطهاد المرأة والرجل معاً. وقد دأب على استخدام القوة والحيلة في خدمة هذا الغرض، وعمد إلى تسخير المرتزقة من رجال الدين في تفسير الشرائع طبقاً لمنهج احتيالي قائم على تبرير الظلم تبريراً أسطورياً بحتاً. وهي كارثة وقعت باسم جميع الأديان في جميع العصور. وعرفها تاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام على حد سواء. ولم يوضع لها حد في حضارة الغربيين المعاصرة، بإلغاء نصوص الشريعة، بل بضرب نظم الإقطاع خلال حروب أهلية واسعة النطاق.

والملاحظ، أن ظاهرة اضطهاد المرأة، استندت شرعياً إلى قول التوراة بأن حواء أغوت آدم بأكل الثمرة المحرمة، واستحقت بذلك لعنة الرب الذي ألزمها بالخضوع لسلطة الرجل قائلاً:

(إلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك)[1]

هذه التهمة لم يوردها القرآن، بل أنكرها، ورفض اعتمادها معلناً مساواة المرأة بالرجل في نصوص صريحة، يرددها الفقهاء دائماً من باب الفخر بـــ«روح الإسلام التقدمية». لكن تعاليم الفقه الإسلامي نفسه، لا تعكس شيئاً من هذه الروح، بل تعكس أقوال التوراة، في شهادة واضحة،

1- التوراة، 3/16 تكوين.

على أن مصادرة حرية المرأة، هدف سياسي، يتكفل رجل الدين بتحقيقه في أي نظام إقطاعي، بغض النظر عما يقوله الدين أو لا يقوله.

فمثلاً: دعوة المرأة المسلمة إلى تغطية شعرها، باعتباره عورة لا يجوز كشفها للرجال، فكرة لا تستند إلى نص إسلامي، بل تستند إلى نص الإصحاح الحادي عشر من رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس التي يقول فيها: (كل امرأة تصلي أو تتنبأ، ورأسها غير مغطى، تشان. إذ المرأة، إن كانت لا تتغطى، فليُقص شعرها. وإن كان قبيحاً بالمرأة أن تقصّ أو تحلق، فلتتغط).

أما لماذا تقتصر هذه الوصية على المرأة دون الرجل؟ فذلك أمر مرده إلى أن (الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده. وأما المرأة فهي مجد الرجل).

ومثلاً: استبعاد صوت المرأة من قضايا التشريع والفتوى، وإقصاؤها عن تولي المناصب الدينية بالذات، وترويج أحاديث رجالية مريبة من طراز: «خاب قوم ولّوا أمرهم امرأة» هي تقاليد فقهية ليس لها مصدر قرآني واحد، ولا يمكن تفسيرها إلا في ضوء رسائل بولس الذي يقول:

(لست آذن للمرأة أن تُعلّم، ولا تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت. لأن آدم جبل أولاً ثم حواء. وآدم لم يُغوَ، لكن المرأة أغويت)[1].

1- رسالة بولس الأولى إلى ثيموثاوس، 2/12.

وفي مكان آخر:

(لتصمت نساؤكم في الكنائس، لأنه ليس مأذوناً لهن أن يتكلمن، بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً. ولكن إن أردن أن يتعلمن شيئاً، فليسألن رجالهن في البيت، لأنه قبيح بالنساء أن يتكلمن في كنسية)[1]. وبموجب هذه الوصايا التي استمدها بولس من ناموس التوراة، حرمت المرأة المسلمة ـــ شرعاً ـــ من حق المشاركة في «مسائل الدين»، وتمّ إقصاؤها عن ميدان التشريع الذي سخره الفقهاء لخدمة أمراء الإقطاع على غرار ما حدث في الكنيسة الكاثوليكية. وقبل أن ينتهي القرن الهجري الأول، كانت المرأة المسلمة قد عادت إلى خانة الجارية المعدة للخدمة في بيت سيدها. وكان الفقه الإسلامي قد طور نفسه ـــ وشرائعه ـــ لكي يطابق هذا الواقع على المقاس. إن الكارثة تحيق بالمرأة تحت راية الإسلام، بموجب قاعدة يهودية لا علاقة لها بالإسلام أصلاً.

فقد توجه الفقه لفرض الحجاب على كل (أنثى مسلمة، ما دامت تحيض وتلد).وهي قاعدة مستمدة في الظاهر من نصوص قرآنية صريحة، لكنها في الواقع مجرد مغالطة قائمة على الخلط بين وظيفة الزي الذي تحدده ظروف البيئة والمناخ، وبين وظيفة الحجاب الذي اختلقته نظرية التوراة حول خطيئة المرأة.

فقول القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ

1- رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، 14/34.

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾[الأحزاب/ 59.] ليس أمراً لجميع النساء في جميع العصور، بأن يلبسن الجلابيب، ولا يستقيم تفسير النص على هذا النحو، إلاّ في منهج فقيه بدوي من أهل القرن السابع الميلادي، يريد أن يفرض جلباب والدته على مسيرة الحضارة باسم الله والإسلام. أما في ما عدا ذلك، فإن الآية تتوجه بوضوح لنهي المرأة عن تسخير ثيابها في أغراض التبرج. وهي فكرة لا علاقة لها بالحجاب، ولا تلزم المرأة بزي معين، بل تلزمها بأن تتحرر من عقدة الجارية، وتكف عن اعتبار نفسها مجرد سلعة جنسية. ولهذا السبب، جاء في تكملة الآية قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾[الأحزاب/ 59.]، لأن تسخير الثياب لخدمة العري والتبرج، علامة صريحة على تعمد الإثارة ولفت النظر.

والثابت، أن تفسير القرآن بمعزل عن ظروف البيئة التي نزل فيها، منهج من شأنه أن يغفل أهم شروط التفسير. فالمجتمع العربي في القرن السابع ــ الميلادي سواء في مكة أو في المدينة ــ مجتمع له تقاليد راسخة في معظم مظاهر الحياة العامة، منها لباس المرأة وأسلوبها في التزين اللذان تحتفظ التوراة بتفاصيل دقيقة عنهما، في سِفر أشعياء على النحو التالي:

1- الحلي

الخلاخيل= حلقات من فضة أو ذهب، ذات أجراس، حول الساقين.

الأهلة= عقود لها منظومات على هيئة هلال.

الحلق= أقراط في الأذنين.

الأساور= حلقات حول المعصم.

السلاسل= خيوط فضية أو ذهبية لشد الثياب حول الإبطين.

المناطق= أحزمة حول الخصر.

الحزائم= حلقات في فتحة الأنف.

حناجر الشمامات= علب العطور والطيب.

الخواتم= فصوص من الماس والأحجار الكريمة.

الأحراز= أغلفة مزينة بالنقوش، تحفظ فيها الأحجية والتعاويذ..

2- الثياب

العصائب= مناديل مزينة حول الرأس.

الضفائر= أشرطة من الحرير الملون لتزين الشعر.

البراقع= خمار ينسدل على الصد والكتفين، مثل براقع الراهبات.

العطف= أحزمة لشد العطفين والخصر.

الأردية= عباءة ناعمة من حرير أو قطن.

الأكياس= جمع كساء، وهو الملاءة الخارجية.

المرائي= قطع زجاجية لامعة، تزين الثياب.

القمصان= فستان يلبس تحت الرداء.

العمائم= غطاء الرأس، تزينه عادة أحجار كريمة، للنساء والرجال معاً.

الأزر= جمع إزار، وهو ما يلتحف به.

في هذه الخزانة المزدحمة عاشت المرأة التي خاطبها القرآن في القرن السابع الميلادي، واتخذها الفقهاء مقياساً يحدد موقع المرأة من الشريعة في كل البيئات، وفي كل العصور: إنها مخلوق له ظروف محلية جداً، صنعها رجل إقطاعي على هواه. واستخدمها استخدامه لصندوق لحفظ ثروته في شكل المصاغ الذي «تتزين» به، من قمة رأسها إلى قدميها. وعلمها أن تكون جارية، وأن تعتنق عقيدة الجواري، من قبول وصاية الرجل على لقمة عيشها، إلى تسخير جسدها لمتعته بافتعال الدلال والغنج في كلامها ومشيتها معاً، خلال عصور تميزت باعتبار الدعارة جزءاً من الدين نفسه. وعند بداية الألف الثانية قبل الميلاد، كانت المرأة قد فقدت ــ في ذاكرة الكاهن ــ صفة الأم والأخت والبنت والجد' وأصبحت مجرد «أنثى في خدمة شيطان الغرائز»، وكانت التوراة تستعد لتسجيل هذه الحقيقة على لسان الرب شخصياً. إن تفسير القرآن بمعزل عن واقع المرأة في هذه البيئة المعقدة، هو المنهج الاحتيالي الذي قاد الفقه إلى كارثة.

فالقرآن لا يخاطب المرأة في كل المجتمعات، وفي كل العصور، بل يخاطب الجارية التي صنعها الإقطاع بمعونة من تعاليم التوراة ووصايا رسل

المسيح. إنه نص لا يستقيم فهمه، إلا في إطار مهمته الإصلاحية التي تمثلت في تعديل «الشريعة» بما يتيح للمرأة فرصة الخروج من الحصار العقائدي والاقتصادي، ويفتح أمامها الباب الموصد في وجهها تحت شعار الدين بالذات. ولهذا السبب، فإن كل ما قاله القرآن في شأن المرأة، قد جاء كتعديل ــ أو إلغاء ــ لنص سابق في التوراة والإنجيل.

فمثلاً قول القرآن: ﴿ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور/31]، هو أحد النصوص التي يعتمدها الفقه لتبرير الدعوة إلى حجاب المرأة المسلمة، بحجة أن ستر الزينة يحتم ستر الجسم كله. وهي فتوى نشب حولها جدل فقهي بين جميع أصحاب المذاهب، فثمة من يسمح للمرأة أن تبدي وجهها وكفّي يديها، وثمة من يتساهل في إبداء القدمين أيضاً، فيما يصر المتطرفون على أن الآية تطالب بإخفاء المرأة عن العيون، مرة واحدة، ومن دون تفاصيل.

هذا النص في الواقع، هو مجرد تعديل نص إنجيلي يحرم الزينة من أساسها، ويمنّع المرأة من استخدام ضفائر الشعر والتزين بالحلي. وهو قول بولس الرسول: (النساء يزين ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل، لا بضفائر أو ذهب أو لآلئ أو ملابس كثيرة الثمن). وعلى لسان بطرس: (لا تكن زينتكم الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلي بالذهب ولبس الثياب). فالقرآن يتوجه لتعديل هذا النص، بما يكفي لإلغاء وصاية الكنيسة على جسد المرأة. وقد أباح لها أن تبدي وجهها وكفي يديها وقدميها، وهي

مواقع الزينة الظاهرة للعيان، من الكحل وأحمر الشفاه وتخطيط الحواجب، إلى طلاء الأظافر والحناء. وأكثر من ذلك، فإن قوله: ﴿ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[النساء، 34.]! هو النص الذي يستند إليه الفقه في اعتماد وصاية الرجال على المرأة، بما يمنحه الحق في زجرها وضربها. فقد جاء في أسباب نزول هذه الآية: «عن أبي حاتم عن الحسن، أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ تستعدي على زوجها أنه لطمها. فقال رسول الله ﷺ القصاص. فأنزل الله «الرجال قوامون على النساء»، فرجعت بغير قصاص، وهو تخريج سافر لا مبرر له سوى إصرار الفقه على تفسير القرآن بمعزل عن بقية الكتب المقدسة. فالواقع أن النص المذكور يتوجه لتعديل موقف التوراة والإنجيل من حيث علاقة الرجل بالمرأة كما تحدده نصوص كثيرة، منها قول بطرس:

(أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن كما كانت سارة تطيع إبراهيم داعية إياه سيدها)[1].

وعلى لسان بولس:

((أيتها النساء اخضعن لرجالكم كما للرب. لأن الرجل هو رأس المرأة))[2].

وفي مكان آخر:

(كما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك النساء لرجالهن في كل شيء..)[3].

1- رسالة بطرس الأولى، 3/1.
2- رسالة بولس إلى أهل أفسس، 5/22.
3- رسالة بولس، 5/24.

وعلى لسان الرب شخصياً:

(لرجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك...)[1].

فالقرآن يستبدل قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[النساء/34]. بكلمات مثل: أخضعن، ويسود عليك، والرجل هو رأس المرأة. وهو تقرير مهمته أن يحدد، أن قوامة الرجل على المرأة، ليست مستمدة من سبب أسطوري ــ كما تزعم التوراة ــ مثل خلق حواء من ضلع آدم، أو خيانتها لها في الجنة، بل مستمدة من واقع المتجمع في العالم القديم الذي احتل فيه الرجل مكانة أفضل مادياً ومعنوياً، مما يعني أن القوامة تنتفي بمجرد أن تنتفي أسبابها.

ومثلاً: قول القرآن ﴿ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[النور/31]، هو نص يعتمده الفقه في إلزام المرأة المسلمة بتغطية وجهها، رغم أن النص نفسه لا يذكر (الوجه)، بل يذكر (الجيب)، أي منطقة الصدر والثديين. وهي منطقة يغطيها الزي المألوف بصورة تلقائية، ولا تنكشف أصلاً إلاّ إذا تعمدت المرأة أن تعريها عن قصد، مما يعني أن القرآن لا يطلب من المرأة أن تلتزم بزي معين، بل ينهاها عن العبث بأي زي تلبسه، لمجرد التبرج ولفت الأنظار.

أما لماذا اختار الفقه الإسلامي أن يخالف نص القرآن، ويتوجه لإلزام المرأة بتغطية وجهها، فذلك أمر مرده إلى أن تغطية الوجه تشل حركة المرأة كلياً، وتعوقها عن أداء أي عمل خارج البيت، مما يسلبها حقها في

1- 3/16، تكوين.

الكسب شرعاً، ويعيدها إلى خانة الجارية التي كان بولس الرسول صلى الله عليه وسلم قد حددها لكل الشابات بقوله: (يتزوجن ويلدن أولاداً ويدبرن البيوت).

ومثلاً: قول القرآن: ﴿واللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ﴾[النساء/34]، هو نص يسخره الفقه لمنح الرجل حق استعمال القوة ضد زوجة لا تطيق الحياة معه، ولا تخفي نفورها منه. والمدهش في هذا التفسير، أن القرآن يقترح ضرب المرأة، رغم أنه لا يبيح عقوبة الضرب أصلاً، إلاّ في حد الزنى البيّن، مما يؤكد أن النص قد تعرض لقراءة مغلوطة في هذا الموضوع بالذات.

فكلمة (اضربوهن)، إذا كتبت من غير نقاط، وبالخط المستمد من شكل الأبجدية الآرامية، التي يتشابه فيها حرف الضاد مع العين، وحرف الراء مع الزين، بحيث تبدو مثل كلمة (اعزبوهن) التي تلائم سياق النص على المقاس. والعزب في اللغة، هو هجران البيت والمرعى. ومنه عزب الرجل عن أهله، أي غاب عنهم. والمعزبة ـــ كالعازبة ـــ هي المرأة التي هجرها زوجها من دون طلاق. فالنص القرآني لا يوصي بضرب المرأة، كما توحي القراءة المغلوطة، بل يتقدم بثلاثة حلول لمشكلة النشوز؛ الأولى، إسداء النصح للمرأة، والثانية هجرانها في الفراش، والثالثة الانفصال عنها من دون طلاق، ريثما تتضح تفاصيل الموقف. وهي الحلول التي تتبناها قوانين الزواج حالياً في كل المجتمعات ذات القضاء المدني.

أما كيف تحولت كلمة (اعزبوهن) إلى (اضربوهن) فذلك أمر يسأل عنه فقيه مريب، يتعمد أن يتجاهلا كل توصيات القرآن بأن يسود المعروف في علاقة الرجل بالمرأة حتى خلال الطلاق كما في قوله: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[البقرة/229]؛ وفي مكان آخر: ﴿وإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ولا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[البقرة231].

والواقع أن أحداً لا يعرف كيف يدخل ضرب المرأة في باب المعروف، من دون شريعة التوراة التي تعتبرها «أخت الشيطان الخبيثة القلب الصخابة الجامحة»، أو: (أمرّ من الموت، المرأة التي هي شباك وقلبها أشراك ويداها قيود)[1].

ومثلاً: قول القرآن: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ﴾[النساء/3]، هو نص يعتبره الفقه تصريحاً إلهياً للرجل المسلم بأن يجمع في عصمته أربع نساء، بالإضافة إلى أي عدد من الجواري. وهو تفسير يبرره فقيه عصري مثل سيد قطب بقوله:

«لا تغفل الإسلام عن أن هنالك طبائع غير عادية في الرجال لا تكتفي بواحدة، ولا بد أن تتطلع إلى أخرى وأخرى. فإن لم يتيسر لها هذه الأخرى في عالم الزواج المعلن الشريف، وجدتها في عالم الدعارة على نحو من الأنحاء.وبذلك يتفزع المجتمع..».

1- سِفر الجامعة.

والواضح من هذا التبرير، أنه يريد أن يسخر الشريعة لخدمة «طبائع غير عادية في الرجال»، مما يلغي مهمة الشريعة من أساسها. بالإضافة إلى أنه يتجاهل أن «الطبائع غير العادية» توجد أيضاً عند النساء. وأن الإسلام قد غفل عنها على أي حال. والواقع أن مثل هذه التبريرات المرتكبة، مجرد نموذج للمنهج المقلوب الذي تورط فيه الفقه بإصراره على تفسير القرآن، بمعزل عن بقية الكتب المقدسة.

فشريعة تعدد الزوجات، ليس مصدرها القرآن، بل مصدرها التوراة التي تقدمت بالمبرر الديني لاعتبار المرأة مجرد متاع مسخر لمتعة الرجل. وعمدت إلى تسجيل هذه الشريعة على لسان الرب شخصياً في متن الكتاب المقدس. وعندما جاء القرآن، كان الرجل «تحته العشر أو الثماني من الأزواج، لا يبالي أن يعدل بينهن». وكان الأحبار يتلون على مسمعه قصصاً مشوقة عن أعداد النساء في حريم الأنبياء أنفسهم. فقد جاء في سِفر الملوك الأول أن سليمان (كانت له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السراري). أما والده داود فقد كان له امرأتان فقط، عندما تعرف على أم سليمان في ظروف، ترويها التوراة على النحو التالي:

(وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بَثْ شبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثي؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها، ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة..).

أما زوج هذه السيدة، فقد بعثه داود لمحاصرة مدينة أربة، وقال لجنوده موصياً: (اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيُضرب ويموت).

وفي سِفر التثنية:

(إذا كان لرجل امرأتان..). وقبل ذلك: (إذا خرجت لمحاربة أعدائك، وسبيت منهم سبياً، ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصقت بها..) وفي الإصحاح الخامس والعشرين: (إذا سكن أخوة معاً ومات واحد منهم، وليس له ابن، فلا تصر امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي. أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة). وفي سِفر التكوين بشأن يعقوب: (ثم قام في تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه..).

والواضح من هذه النصوص، أن تعدد الزوجات والتسري بالجواري، شريعة يهودية عرفها المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده و لم يعتمدها القرآن إلاّ من باب احتواء الواقع الذي فرضته ظروف الاقتصاد والثقافة في عالم القرن السابع الميلادي.

وإذا كان تعدد الزوجات يبدو الآن مقتصراً على المسلمين وحدهم، فذلك أمر مرده إلى أن اليهود أبطلوا العمل بهذه الشريعة، منذ القرن العاشر للميلاد، بسبب اضطرارهم للعيش في مجتمعات مسيحية، تحرم الزواج بأكثر من امرأة واحدة، فيما توجهت إسرائيل الحديثة إلى تبني قانون مدني، يعتبر تعدد الزوجات جريمة عقوبتها الحبس والغرامة.

وموجز القول، إن اتهام الإسلام بأنه شريعة تضطهد المرأة، فكرة قائمة على الجهل وسوء النية. فلو كانت الشرائع تضطهد أحداً، لانقرضت المرأة المسيحية، تحت وطأة اللعن المستمر من نصوص التوراة والإنجيل معاً، اللذين لا يدخران وسعاً في الدعوة إلى قتلها رجماً في الحجارة لأي سبب كان، حتى لو تعرضت للاغتصاب. أو كما قال سِفر التثنية:

(إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فوجدها رجل في المدينة، واضطجع معها. فاخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة، وراجموهما بالحجارة حتى يموتا: الفتاة لأجل أنها لا تصرخ. والرجل لأجل أنه أذل امرأة صاحبه)[1].

وهو قانون من شأنه أن يدفع جميع نساء كندا إلى الهروب نحو السعودية.

إن الإسلام لا يضطهد المرأة، بل الإقطاع هو الذي يضطهد الإسلام، ويشوه سمعته، ويربطه بنظمه البدائية، ويحيله من دستور لضمان صوت الناس في التشريع والإدارة، إلى فلسفة غيبية، لا هم لها سوى زخرفة الكلام، وتقديم المبررات لحاكم غير شرعي، لكي يسرق المال، ويستعبد الرجال، ويسبي «ربات الحجال»، بالحلال، بالحلال بالحلال.[2]

1- سفر التثنية، 22/23.

2- إسلام ضد الإسلام – شريعة من ورق ص213 ط3 2000- رياض الريس .



نوادر جحا، ليست نكاتاً، بل ردود عنيفة على إدارة تثير الضحك، إنها لا تسخر من المواطن العادي، ولا تستخدم مادة النكتة المستمدة من مآسي الناس، مثل النكات الشائعة عن الحموات والفلاحين والمدمنين والعميان والخرس، بل تتوجه لنقد الإدارة، مثل كل نكتة سياسية موجهة، وتحدد موقعها سلفاً، إلى جانب الأغلبية، ضد سياسة الدولة، وجهاز القضاء، وفتاوى الفقه، وإرهاب الجيش المأجور.

الصادق النيهوم

قراءات ثقافية



➢ ماركس مثلا :

ـــ ثقافتنا العربية المعاصرة، لا تعرف كار ماركس، بل تعرف ما سمعته عنه من أعدائه الرأسماليين وحدهم.

وهم طرف منحاز في أصل القضية، كان ماركس يحرض على الثورة ضدهم، وكانوا أصحاب مصلحة ملحة في تشويه أقواله.

وقد تولوا تقديمه إلى ثقافتنا العربية المعاصرة، موصوماً بثلاث تهم، كل تهمة منها، مختلفة عمداً، لإدانته أمام العرب بالذات.

التهمة الأولى: أن ماركس ينادي بإلغاء المؤسسة الدينية، ويعتبر الدين مجرد أفيون.

وهي تهمة تتجاهل، أن المؤسسات الدينية التي يعنيها ماركس، هي المؤسسات المسيحية واليهودية، وأن هذه الفكرة، ليست ماركسية أصلاً، بل إسلامية، سجلها القرآن منذ أربعة عشر قرناً، في آيات منها، قوله تعالى في الآية ٥ من سورة الجمعة ﴿مَثَلُ الَذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[الجمعة/٥].

وهي صورة أكثر وضوحاً ـــ من قول ماركس أن الدين أفيون الشعوب.

التهمة الثانية: إن الاتحاد السوفيتي هو الدولة الماركسية التي أقيمت على نظرية الحزب الماركسي.

وهي فكرة تتجاهل أن لينين ـــ وليس ماركس ـــ هو صاحب هذا النظام الحزبي.

أما ماركس شخصياً، فقد استعمل كلمة commune التي تعني الجماعة، لأنه يشترط مبادىء دستورية في نظامه، منها أن تكون السلطة في يد الأغلبية، ومنها إنهاء الإقطاع، بتسريح الجيش المستديم، ومنها تحريم الربا، بتأميم وسائل الإنتاج.

وهي مبادىء لا يتبناها الاتحاد السوفيتي، و لم تعرفها إدارة أخرى في التاريخ، سوى نظام الشرع الجماعي في الإسلام، الذي كان ماركس ينقل عنه، من دون أن يدري.

التهمة الثالثة: أن كارل ماركس، ينادي بإلغاء دور الفرد، ويعتبره مجرد مسمار في آلة كبيرة، هو رأس المال، صاحب الاحتكارات الموجهة لتكديس الربح.

أما كارل ماركس، فقد كان ينادي، بتحرير الإدارة من سيطرة رأس المال، لأنه كان يهدف إلى تحرير المواطن من وظيفة المسمار بالذات.

وقد عرض هذا المنهج في أعماله، قبل أن يكتب (رأس المال) بثلاثين سنة على الأقل، لكن خصومه الرأسماليين، لم يختاروا أن يعرضوا هذه الأعمال المبكرة للتداول، و لم يهتم أحد بترجمتها عن أصولها الألمانية، إلا منذ سنوات قليلة، عندما نقلت إلى اللغة الإنكليزية بمجهودات أفراد مثل الكاتب أريخ فروم، فيما تأخر الروس في ترجمة هذه الأعمال الأساسية حتى الآن[1].

1- محنة ثقافة مزورة ص 163 –ومابعدها

◄ المنهج مع التاريخ :

إن المنهج التاريخي المستخدم في كتابة تاريخنا الإسلامي، لا يرى حجم الكارثة التي حلت بالإدارة الإسلامية، منذ إبطال الشرع الجماعي في عصر معاوية.

بل ينطلق من هذا العصر، لكي يسجل ((أمجاد)) الإدارة الإسلامية، في إعلان مدفوع، يتجاهل، أولاً، أن الإدارة التي يتحدث عنها، نسخة منقولة عن تراث بيزنطة.

ويتجاهل، ثانياً، أنها إدارة قامت على أنقاض الشرع الإسلامي بالذات.

وإذا كانت مهمة التاريخ، أن يشرح للناس أخطاءهم، فإن المنهج المستخدم في تاريخنا الإسلامي، موجه عمداً لإخفاء هذه الأخطاء.

إنه منهج لا يشغل نفسه، بما حدث للناس، ولا يرى مدى خسائرهم التي نجمت عن إبطال الشرع الجماعي.

ولا يهمه الفارق الصارخ، بين حضارة إقطاعية، قامت على حاجة الأقوياء للترف، وبين حضارة اشتراكية، تقوم على حق كل مواطن في السلام والعدل.

منهج لا يهمه أن العالم الذي خاطبه القرآن، يضم خمس قارات، وأن الإدارة الإسلامية قد فشلت في حمله إلى خمسين منها، وأن ذلك، ليس

سببه، عدم تمسك الناس بأداء شعائر الدين، بل سببه، عدم تمسك الخليفة بالإدارة الجماعية.

إن تاريخنا لا يعلمنا الدرس المفيد، الذي سوف نتعلمه من تاريخ أمة أخرى، على أي حال.

فقد أثبت سير الأحداث في غرب أوروبا، أن الشرع الجماعي، ليس فكرة قابلة للموت، بل قانون طبيعي، لا بد منه في نهاية المطاف.

ورغم أن الثورات الأوروبية، لم تنجح أبداً.في إقرار صيغة إدارية شاملة، مثل صيغة الشرع الجماعي في الإسلام، فإنها ـــ على الأقل ـــ قد نجحت في إنهاء نظرية الحق الإلهي المقدس في الحكم، وكسرت بذلك سلسلة الإقطاع الحديدية التي طوقت عنق الإدارة منذ عصر الملوك المتألهين في دول الشرق القديم.

وفي اليوم الثلاثين من كانون الثاني (يناير) سنة 1649، سقطت المقصلة في مدينة لندن، على عنق أول ملك في التاريخ، يتم إعدامه بموجب قرار من محكمة شعبية، وتدحرج رأس شارل الأول، ملك إنكلترا، مفتتحاً عصراً طويلاً من رؤوس الملوك المتدحرجة. [1]

➢ قراءة تاريخية :

خلال الفترة الواقعة بين الانقلاب الأموي سنة ٦٥٦، وبين بداية الحروب الصليبية سنة ١٠٥٠، كان العالم القديم، لا يزال قديماً على حاله كما تركه فرعون.

1- ص117 - ص118

وكان سكان الشرق الأوسط لا يزالون يحتلون بوابة الطريق على خط التجارة الدولية، وينعمون بأعلى مستوى للدخل في العالم.

وفي ظروف هذا الازدهار التجاري النسبي، نجح العرب في تطوير السفينة البحرية، لنقل المتاجر عبر المحيط، وارتادوا بسفنهم مناطق نائية مثل اليابان واستراليا، ملقين مراسيهم على بعد مرمى حجر، من كنوز لا تفنى في القارات العذراء الغائبة وراء المحيط الأطلسي.

لكن هذا الإنجاز المثير كان مجرد جهد فردي، يموله صغار التجار في مغامرات مثيرة، مثل قصص السندباد.

ولم يكن بوسعه أن يلبي حاجات الصراع البحري القادم، لاستيطان قارات العالم الجديد.

أن تطور السفينة المحيطة على يد العرب، خلال القرن الثاني عشر، يصبح انجازاً تقنياً، لا يقل أهمية ـــ أو إثارة للمشاعرـــ عن تطوير سفن الفضاء في القرن العشرين.

فقد فتحت هذه السفينة ثغرة في جدار المحيط، واكتشفت أرضاً جديدة، تزيد مرتين على مساحة القمر، فضاعفت بذلك حجم السوق التجاري، وأضافت إليه عشرات السلع الجديدة من القطن والذرة والبطاطس وديوك الحبش، إلى السكر والكوكايين.

لكن العرب ـــ أصحاب الاختراع ـــ لا يملكون رأس المال القادر على تمويل حملات الاستيطان، ولا ينالهم من وراء تطوير السفينة المحيطة، سوى

حبسهم في القمقم شرقي مضيق جبل طارق، بينما كان كولومبس ينطلق غرباً سنة ١٤٩٢ قاصداً أميركا في سفن عربية، بخرائط عربية.

وفي هذه المرة، نزل الستار مثل المقلصة، وخسر العرب خطوط التجارة الدولية إلى الأبد.

إن الشرق الأوسط الذي ابتكر التجارة والمصارف والنقود، يعلن افلاسه بعد أربعة آلاف سنة من حكم الإقطاع ورجال الدين.

في هذا الوقت، كان نظام المصرف اليهودي ــ الذي مات في الشرق الأوسط ــ قد بعث إلى الحياة في بلدان غرب أوروبا، وكانت حركة البروتستانت قد هيأت في هذه المنطقة، جواً من التسامح الديني، ما لبث أن شجع اليهود على الهجرة في موجات متلاحقة، إلى أمستردام سنة ١٥٩٣! وهامبورغ سنة ١٦١٢، ونيويورك سنة ١٦٥٤.

وعندما كتب شكسبير مسرحية (تاجر البندقية) حوالي سنة ١٥٩٥! معلناً سخطه على شيلوخ المرابي الذي ينوي أن يسلخ جلد تاجر مسيحي، كان اليهود، هم أصحاب المصارف التي تجمع الضرائب من البريطانيين، لحساب الملكة إليزابيث، وكانت النقمة الشعبية تتصاعد ضدهم، كما حدث لهم دائماً منذ عصر الهكسوس.

إن اليهود لم يظفروا أبداً بإعجاب البروتستانت، لكن نظامهم المصرفي الناجح أثار انتباه الحكومات البروتستانتية الثائرة على سلطة البابا، التي رأت

أن تحريم سعر الفائدة، غلطة اقتصادية مميتة، تضاف إلى أغلاط الكنيسة الكاثوليكية، وشرعت تستعد لإحياء نظام المصرف الحر، في عصر تميز باستيطان أميركا، وتطوير السفينة المحيطة، من قارب مسلح بالمنجنيق، إلى قلعة عائمة، ذات طاقة نارية، تزيد على مئة مدفع.

ومنذ بداية هذا السباق، كانت بريطانيا، قد ضمنت لنفسها فوزاً مبكراً لسببين:

الأول: أن بريطانيا استعادت صيغة الملكية الدستورية التي ابتكرها اليهود.

وهي صيغة تقوم على سلطة المصارف، وتسخير جهاز الدولة لخدمة رأس المال.

ورغم أن بقية دول غرب أوروبا، عادت فاكتشفت هذه الصيغة في وقت لا حق، فإن بريطانيا كانت قد سبقها جميعاً إلى موضع الكتر بمئة وثلاث وعشرين سنة على الأقل.

السبب الثاني، أن موقع بريطانيا الجغرافي، قد أعفاها من عبء الحرب البرية، وأتاح لها تركيز الإنفاق العسكري في بناء الأسطول، وتطوير ماسورة المدفع، وزيادة سرعة الطوربيد، خلال عصر تميز بنقل مسرح الصراع الدولي إلى أعالي البحار، وجعل بريطانيا قرش البحر القاتل، الذي لا ينازعه أحد على سيادة المحيط.

في هذه المرة أيضاً، اكتشف البريطانيون علاقة التمويل المنتظم، بالتفوق العسكري.

فعندما تأسس (بنك لندن) سنة ١٦٤٨، كانت ميزانية بريطانيا العسكرية، لا تزيد على خمسين مليون إسترليني، منها ٣٢ مليون، يغطيها دخل الدولة، والباقي قروض من المصارف.

لكن هذا الرقم، ما لبث إن تضاعف أربعين مرة، خلال قرن قصير واحد، فبلغ مليارين تقريباً سنة ١٨١٢، منها ٤٤٠ مليوناً مقدمة من المصارف.

وقبل أن تولد كلمة (الدول العظمى)، كان نظام المصرف الحر قد أحال دول أوروبا، إلى إقلاع عسكرية ضخمة، يزداد حجمها باضطراد.

فتضاعف حجم الجيش البروسي، بمعدل مرة كل عشر سنوات، من ٣٠ ألف جندي سنة ١٧٠٠ إلى ٢٧٠ ألف جندي سنة ١٨١٢، بينما زادت إمبراطورية آل هابسبورغ في فيينا، حجم قواها في الفترة نفسها من ٥٠ ألف جندي إلى نصف مليون، وحشدت فرنسا تحت راية نابليون، ٦٠٠ ألف مقاتل.

وهو اكبر حشد عسكري عرفه التاريخ حتى ذلك الوقت.

أما بريطانيا التي افتتحت مسيرة المصرف الحر، فقد تضاعف حجم قواها البرية أربع مرات، وارتفع عدد سفن الأسطول من ١٠٠ بارجة إلى ٢١٤ بارجة، أي ضعف ما تملكه جميع دول العالم مجتمعة.

إن الفرعون بيي الأول الذي سخر السلاح المصرفي لضرب أعدائه بحشود عسكرية ضخمة، كان قد فتح القمقم المسحور من دون أن يدري.

في الفترة الواقعة بين تحطيم الأسطول الأسباني على يد البريطانيين سنة ١٥٥٨، وبين هزيمة نابليون في واترلو سنة ١٨١٥، كان نظام المصرف الحر، قد أحال دول أوروبا إلى مصارف رأسمالية عملاقة، تتصارع على حيازة الأسواق ومصادر المواد الخام، في جبهة امتدت من كندا إلى مصر.

وكان جهاز الدولة قد تغير جذرياً في موقعين:

في الموقع الأول، لم تعد الدولة سلطة حاكمة، بل أصبحت (إدارة)! تتولى الأشراف على مصالح رأس المال، تحت سلطة المصارف.

وهي صيغة منقولة حرفياً من كتاب التوراة، بعث نظام الجمهورية اليهودية تحت أسماء مختلفة، في قارات مختلفة، وجعلت إسرائيل القديمة، نموذج الدولة الحديثة في العصر الرأسمالي.

في الموقع الثاني، لم تعد الكنيسة هي مصدر التشريع، ولم يعد بوسعها أن تفسر موقفها البدائي من سعر الفائدة، بعد أن أثبتت الثورة الصناعية، أن رأس المال قابل للنمو بزيادة حجم العمل، وأن فكرة المصرف الحر ــ التي كانت فكرة ضارة في المجتمع الزراعي اليدوي ــ أصبحت فكرة نافعة في عصر الآلة القادرة على زيادة الإنتاج إلى ما لا نهاية.

فقد صار بوسع النول الميكانيكي أن ينتج من الجوارب في يوم واحد، ما لا ينتجه عمال الهند.

وصار بوسع قطار من مئة عربة، أن ينقل حمولة جميع القوافل التي تعبر أفريقيا في سنة.

وأثبتت ثورة العلم أن رأس المال، لا ينمو على حساب الناس، بل ينمو بقوته الكامنة في تطوير الموارد عن طريق الاستثمار، وأن المصرف الحر، طريق لا بد منه لتأمين هذا الاستثمار بالحجم المطلوب.

تحت رعاية هذه الدولة المصرفية، استعاد اليهود حق المواطنة على الكرة الأرضية، لأول مرة منذ عصر نبوخذ نصر.

فمنحتهم الثورة الفرنسية حق الحصول على الجنسية، وبادرت بريطانيا إلى منحهم الحق نفسه، لقطع الطريق على نابليون في استمالة مصارف اليهود.

وخلال وقت قصير، كان الأوروبيون ــ ومنهم الأتراك ــ يتنافسون في إضفاء جنسياتهم على اليهود، وكانت أوروبا بأسرها قد تحولت إلى (أرض الميعاد).

لكن اليهود أنفسهم، كانوا ينظرون بعيداً عن أوروبا، عبر المحيط.

ففي أراضي القارة الأميركية، العذراء، وفي مناجمها التي تحوي نصف احتياطي العالم من الذهب، كان حلم التوراة بأرض الميعاد في بلد صغير

مثل فلسطين، مجرد مشروع بائس لا يثير شهية رأس مال اليهودي، وكان اليهود قد وضعوا فكرة أرض الميعاد جانباً، وانطلقوا إلى نيويورك، حيث أنشئوا مصارفهم النشطة التي نجحت في احتواء الاحتياطي الأميركي الضخم، وتولت تسخيره لزيادة الإنتاج على نطاق لم يسبق له مثيل.

وفي الفترة الواقعة بين نهاية الحرب الأميركية سنة ١٨٦٥ وبين نهاية الحرب الاسبانية سنة ١٨٩٨ ــ وهي فترة عشرين سنة فقط ــ كان نظام المصرف الحر، قد ضاعفت الإنتاج الأمريكي، بأرقام فلكية.

فزاد إنتاج الدقيق، بنسبة ٢٦٥في المئة، والسكر بنسبة ٤٦٠ في المئة والقمح بنسبة ٨٠٠ في المئة، والصلب بنسبة ٥٢٣ في المئة بينما ارتفع إنتاج النفط من ٣٠٠ ألف برميل إلى مليون برميل، وتضاعفت ميزانية الدولة، بعدل مرة كل ثلاث سنوات، من ٣٣٤ مليون إلى مليارين ونصف تقريباً.

وفي هذه الأرض التي تفيض ــ فعلاً ــ باللبن والعسل، كان مشروع التوراة القديم، يبدو قديماً أكثر مما يجب، وكان على اليهود أن يعيدوا صياغة {الشريعة} بلغة العصر.

في هذه النسخة الجديدة، تحرر نظام الدولة الرأسمالية من قاموس التوراة، واستعاد لغته الأصلية في قاموس المصرف الحر.

فلم تعد الدولة اليهودية، هي دولة اليهود، بل أصبحت هي دولة المصارف ((الليبرالية)) التي لا تتعامل مع الزبون على أساس لونه أو دينه، ولا تضع شروطاً مسبقة لهذا التعامل، سوى شرط الربح المادي، ولا تحتاج إلى سياسة أخرى، سوى سياسة (الباب المفتوح) التي تتيح الرأس المال أن يستقبل زبائنه — أو يذهب إليهم — في الليل والنهار.

أن كلمة (افتح يا سمسم) تفتح كنزاً حقيقياً لأول مرة.

فقد نجحت الدولة المصرفية في تطوير فكرة (الباب المفتوح) إلى سياسة قومية، واعتبرت فتح السوق العالمي أمام رأس المال، شرطاً في تولي الإدارة، وضمنت بذلك مستقبل المصرف الحر، رغم أنها تضمن مستقبل البشرية نفسها.

وفي فترة الواقعة بين ظهور الولايات المتحدة، وبين ضرب اليابان بقنابل نووية، كان نظام المصرف الحر، يجتاح الدول والقارات، وكانت أذرع رأس المال الغربي، قد امتدت من وراء المحيط، واحتوت المنطقة الواقعة داخل نفوذ الأتراك، واشترت امتيازات سكة حديد بغداد، وآبار النفط في البحرين، مفتتحة معركة المصرف الحر ضد الإقطاع تحت سماء الشرق الأوسط، للمرة الثانية منذ عصر فرعون.

في هذا الوقت، كان الشرق الأوسط، لا يزال على حاله كما تركه فرعون.

فمن جهة، كانت حكوماته مجرد إقطاعيات متناحرة، تدار بنظم بدائية، لا تستطيع أن تحتوي نظام المصرف الحر، ولا تضمن له الأمان المطلوب.

ومن جهة أخرى، كان الشرق الأوسط، لا يزال في موقعه الجغرافي الممتاز، على بوابة التجارة الدولية بين قارات العالم القديم.

وهو موقع تحتاج المصارف إلى مراكز مستقرة فيه، بأي طريقة، وأي ثمن.

أن هذه المعضلة كان يكمن في إيجاد (وطن) للمصرف الحر في الشرق الأوسط، لكن الدول الرأسمالية، اختلفت بين حلين:

الحل الأول، تبنته فرنسا.

وقد تمثل في إنشاء جمهورية لبنان التي قامت على وصفة إدارية مختلفة، هدفها أن توزع السلطة المحلية بين خصوم ذوي مصالح متناقضة، لا يستطيع أحد منهم أن يمتلك من القوة أو الشرعية، ما يهدد به نظام المصرف الحر.

وهي صيغة نجحت مؤقتاً في اجتذاب رأس المال إلى لبنان، وخلقت فيه نشاطاً مصرفياً عربياً، لأول مرة في تاريخ العرب، تمثل في تأسيس (بنك انترا) الذي سارعت المصارف الغربية إلى قتله في المهد، بإعلان إفلاسه في وقت لا حق.

الحل الثاني، تبنته الولايات المتحدة.

وقد تمثل في إحياء مشروع إسرائيل التي قامت ــ هذه المرة ــ على خطة مصرفية صريحة، هدفها أن تكسب رأس المال اليهودي، وتضمن للمصرف الحر وطناً آمناً بين إقطاعيات الشرق الأوسط.

وهي فكرة لم تولد بين طبقات الشعب الأميركي، و لم يوافق عليها أعضاء الكونغرس، بل ولدت سراً في مكاتب أصحاب المصارف الأميركية، الذين سخروا الرئيس ترومان لتنفيذها بأسلحة مالية بحتة، منها تهديد بريطانيا، بقطع المعونة عنها، إذا رفضت دخول اليهود إلى فلسطين سنة ١٩٤٧.

ومنها إلزام ألمانيا، بدفع التعويضات لإسرائيل، مقابل حصولها على معونات من مشروع مارشال.

والواقع أن الرئيس ترومان أعلن اعترافه بإسرائيل، قبل أن يوافق الكونغرس على هذا الإعلان، وقبل أن تقوم إسرائيل نفسها بربع ساعة تقريباً.

سنة ١٩٤٨، كان المصرف الحر يملك وطنين في الشرق الأوسط.

الأول، في لبنان، والثاني في إسرائيل.

وكان من الواضح أن المبارزة توشك أن تبدأ بين خصمين غير متكافئين:

فالصيغة الإدارية في لبنان، صيغة عشائرية من بقايا العصر الإقطاعي في العالم القديم، لا تملك تعريفاً حقيقياً لكلمة (الوطن الرأسمالي)، و لم تتعرف على نظام المصرف الحر أصلاً.

ورغم أن السياسيين اللبنانيين، بذلوا جهداً إعلامياً صاخباً، لاحتواء النظرية الرأسمالية في تراث لبنان الفينيقي، فإن هذا الجهد، كان مجرد علامة أخرى، على أن لبنان لم يستوعب ما حدث في غرب أوروبا، ولم يكتشف الفرق المميت، بين تاجر فينيقي أعزل، وبين تاجر رأسمالي مسلح بصواريخ.

وقد تقدم اللبنانيون بصيغة مستحيلة (الوطن رأسمالي من دون جيش) وهي صيغة خرافية، لم يعرفها التاريخ أبداً، إلا في بقايا الإقطاعيات التي التمست الحماية تحت مظلة الجيوش الأوروبية، مثل أمارة موناكو وليختنشاين ولوكسمبرغ.

لكن اللبنانيين لم يكتشفوا هذه الثغرة الواسعة في نظامهم الفينيقي، بل دأبوا على تسمية بلدهم باسم (سويسرا الشرق)، متجاهلين — من باب الجهل — أن سويسرا بالذات تملك أكفأ جيش دفاعي في التاريخ.

على الجبهة الأخرى، كانت المصارف الرأسمالية، قد أقامت في فلسطين جمهورية يهودية للمرة الثانية منذ عصر التوراة.

وكانت النسخة القديمة قد تغيرت جذرياً، فلم تقم إسرائيل العشائرية التي تتوزع فيها السلطة بين قبائل العبرانيين، بل قامت إسرائيل — المصرف، التي يديرها التجار والعمال، في ائتلافات حزبية مجهزة أصلاً لخدمة رأس المال.

وفي هذا الوطن ((اليهودي))، كان اليهود يموتون دفاعاً عن أسهم الشركات البريطانية في قناة السويس، ويحرسون آبار النفط الأميركية في الخليج، ويديرون المصارف التي تشرف على التجارة الدولية بين آسيا وأفريقيا، ويظفرون بالإطراء المستمر، من جميع أجهزة الإعلام الرأسمالية، على عادة الرجال الغني في الولع بكلب الحراسة الناجح.

أن العرب الذين جاءوا لتحرير فلسطين تحت راية نبوخذ نصر، يتعرضون ــ هذه المرة ــ لأكثر من مفاجأة.

سنة ١٩٦٧، وقعت المواجهة المستحيلة بين (مئة مليون عربي)، وبين ثلاثة ملايين إسرائيلي.

وكان من المتوقع أن تنتهي المعركة خلال ساعات معدودة، كما حدث في عصر نبوخذ نصر، لولا أن عصر الملوك الفاتحين، كان قد انتهى منذ ٢٥٠٠ سنة، وكانت المصارف الرأسمالية قد غيرت سوقية الحرب رأساً على عقب.

فالمئة مليون عربي، كان لديهم مئة جندي فقط، مقابل خمسمائة، ولديهم ألف دبابة متوسطة، مقابل ألفي دبابة ألمانية من طراز ليوبرد.

بالإضافة إلى ذلك، كان احتياطي العرب المحدود من العملات الصعبة، لا يسمح لهم بمواصلة القتال، إلا لبضعة أيام قصيرة ، ريثما تنفذ ذخائرهم، بينما كانت إسرائيل تؤمن لنفسها قروضاً مستمرة من المصارف الغربية، وتتمتع بقدرة كبيرة على إطالة أمد الحرب كما تشاء.

أن العرب يعودون من المعركة، بدرس موجع ونافع، لكن حكوماتهم الأمية، لا تحسن قراءة الدرس.

فقد أعلن الرئيس السادات أن (٩٩في المئة من أوراق اللعبة في يد أميركا)، وهو يقصد في يد المصارف الرأسمالية التي تبحث عن وطن في الشرق الأوسط.

وكان من المتوقع، أن يؤدي هذا الاكتشاف إلى تصحيح الخلل في الإدارة العربية، والبحث عن صيغة تحتوي نظام المصرف الحر، في دولة ديمقراطية قادرة على التعامل مع رأس المال.

لكن الرئيس السادات اختار أن يعتمد أساليب الشطارة، ويضحك على ذقون المصارف، بتمثيلية صاخبة عن الأحزاب وحرية الصحافة، آملاً أن يحمل إليه الغربيون مدخرات مواطنيهم، من دون حاجة إلى ضمانات أخرى.

وهي فكرة مميتة، ذهب السادات وراءها بسذاجة رجل قروي، وفعل من أجلها، كل ما يفعله الرجل القروي، بما في ذلك أن يعزم روكفلر على العشاء.

لكن المصارف رفضت أن تأكل.

إننا نقف على بعد خمسة آلاف سنة من مولد المصرف الرأسمالي في الشرق الأوسط، فنجد الشرق الأوسط لا يملك مصرفاً رأسمالياً واحداً، ولا يملك صيغة إدارية قادرة على ضمان حرية رأس المال.

وفي ظروف هذا العجز الشامل، عن قراءة لغة العصر، كانت ثقافة العرب السياسية، مجرد ثقافة أمية، لا تفهم شيئاً مما يدور حولها.

وكان العرب المقلوبون على رؤوسهم، ينظرون إلى الدنيا، من زاوية المقلوبين.

أن مستقبل أجيال العرب، رهن بتصحيح هذا المنظور، في أقرب وقت ممكن، بأقل كلام ممكن، في خمس نقاط أساسية:

الأولى: أن إسرائيل ليست (صنيعة) الولايات المتحدة ــ كما يعتقد السادسة العرب ــ بل أن الولايات المتحدة وإسرائيل معاً، صنيعتان للمصرف الرأسمالي الحر.

الثانية: أن نظرية (الضغط الأميركي على إسرائيل)، نظرية خرافية بحتة، لأن إسرائيل مشروع مالي مستقل مثل الولايات المتحدة نفسها.

الثالثة: أن العرب لم يخسروا المعركة ضد إسرائيل، بل خسروها ضد نظام الدولة الرأسمالية منذ استيطان أميركا في القرن السابع عشر.

وأن هزيمة قديمة من هذا الحجم، لا يمكن تعويضها حتى باستعادة الأندلس وفلسطين.

الرابعة: أن العرب الذين فشلوا في تطوير إدارة ديمقراطية، لا يستطيعون أن يمتلكوا نظاماً مصرفياً حراً، وليس بوسعهم أن يكسبوا السباق في هذا العصر المصرفي.

الخامسة: أن السياسة الناجحة هي ثمرة القراءة الصحيحة للتاريخ، وأن سياسة العرب المرتبكة والفاشلة، مصدرها تورط العرب في ثقافة مزورة، تفسر الإسلام بلغة السحرة، وتتجاهل دستور الشرع الجماعي، وتعطي (مال الله) للإقطاع وتقرأ التاريخ بلسان فقيه، غائب عن التاريخ، منذ أن حبسه الصليبيون في زنزانة البحر المتوسط، قبل خمسمائة سنة على الأقل.[1]

نوادر جحا:

نوادر جحا، ليست نكاتاً، بل ردود عنيفة على إدارة تثير الضحك، إنها لا تسخر من المواطن العادي، ولا تستخدم مادة النكتة المستمدة من مآسي الناس، مثل النكات الشائعة عن الحموات والفلاحين والمدمنين والعميان والخرس، بل تتوجه لنقد الإدارة، مثل كل نكتة سياسية موجهة، وتحدد موقعها سلفاً، إلى جانب الأغلبية، ضد سياسة الدولة، وجهاز القضاء، وفتاوى الفقه، وإرهاب الجيش المأجور.

كل ما قاله جحا، كانت أغلبية الناس تقوله سراً، في غرف مغلقة، من إنكار شرعية الخليفة، إلى الشكوى من فساد جهاز القضاء، وتعقيدات فتاوى الفقه، وشغب جنود الحرس الملكي في الشوارع والأسواق.

كل ما في الأمر، أن جحا، كان ينقله علناً ـــ مثل إذاعة يومية ـــ إلى جميع الناس.[٢]

1- الإسلام في الأسر ص 162

2- الكلمة والصورة جمع سالم الكبتي - تالة للطباعة والنشر- ط1- طرابلس دون تاريخ ص129- 130

الفهرس